فيسبوك: كتب كتب كتب

رواية

ترنيمة امرأة.. شغق البحر

سعد محمد رحيم

رواية

ترنيمة امرأة.. شغق البحر

سعد محمد رحيم

رواية

ترنيمة امرأة.. شغق البحر

سعد محمد رحيم

"أحسني موهوباً لكلوديا والبحر، يتجلى جوهر العالم إذ تشتبك أصابعنا. يحضننا الأبيض المتوسط فأحسها بكليتي موهوبة لي، كما للبحر. أرسل نظري في أفقها، ويتفتح أفقي ساعة تحيطني بقوس نظرها. كأنني أحلم: كلوديا في غلالة أول المساء تغني، ويجرحني الأسى "أنا بعشق البحر" ويخضل جسدي بالمطر الناعم يهمي في عيني حنان في أقصى بغداد"..

فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان - الأردن - تلفاكس ٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٩٦٢+
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan . dar_fadaat@yahoo.com

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

رقم الايداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
2012 / 5 / 1590

813،9
رحيم، سعد محمد
ترنيمة امرأة... شفق البحر – سعد محمد رحيم – عمان: دار فضاءات، 2012
الواصفات: / القصص العربية // العصر الحديث/.

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9957-30-337-2

فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: 2012

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

ترنيمة امرأة... شفق البحر – سعد محمد رحيم - الأردن
دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website: http://www.darfadaa.com
التوزيع في تونس
فضاءات للنشر والتوزيع – فرع تونس
شارع الهادي نويرة. النصرII - تونس 2037
تلفاكس: 21 65 82 70 (216+) - الجوال 39 42 29 98 (216+)
E.mail: fadhahet@yahoo.com
Website: http://www.darfadaa.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: نضال جمهور
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

ترنيمة امرأة..

شفق البحر

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

سعد محمد رحيم

ترنيمة امرأة.. شفق البحر

رواية

فضاءات
للنشر والتوزيع

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

إهــداء

إلى: مؤيد سامي

الذي رحل بعيداً جداً، عابراً بحراً غامضاً، ليلحق بالكراكي

في آخر غسقها الحزين

كلوديا تخطفني إلى الشمال

تعرفت عليها على ساحل سوسة في تونس. يومها دارت بنا موجة عنيفة، مباغتة، وقرّبتنا من بعضنا، ونحن في عرض اللجّة. ألفيتها، على حين فجأة، إلى جانبي. للوهلة الأولى تهيأ لي أنها صعدت من الأعماق القديمة المسحورة، أو قذفها مركب فضائي آت من كوكب بعيد. هكذا انبجست، كأنما على

حواشيَ حلم بهيج.. ابتسمتْ:

ـ هاي...

ولعبتْ بأصابعها تحييني..

من تلك النقطة تراءى لنا البشر والمظلات في غلالة نحيلة من ضباب مضطرب، فعرفنا أننا توغلنا أكثر مما يجب في عمق البحر. وحين سبقتني غائصة، تبعتها بلهفة ونزق، حتى إذا استلقينا لاهثين تحت مظلتها، أدركت أنها بفتنتها الطافرة تبدد ما طفا، طوال سنوات، فيَّ، من زبد الغربة. وإنني أحقق، في هذه اللحظة توافقاً وانسجاماً مع الناس والأشياء حولي.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

إذ ذاك بدأنا أول رحلة الكلام. والكلام مع كلوديا مبتدأ الرواية ومنتهاها. تورط الذاكرة في لعبة اللغة ومكرها، ومأزق اللغة وهي تتقصى في متاه الذاكرة.

قالت أنها إيطالية، تتقن الإنجليزية جيداً، وتستطيع التفاهم، مع من يفهمها، بالعربية، ولها شغف بالسفر، لاسيما إلى أصقاع الشرق. ترغب بعبور صحارى أفريقيا، وسلوك طريق الحرير في مجاهل آسيا، على ظهور الخيل والجمال، أو مشياً على الأقدام بصحبة فتى من الشرق صبور وشجاع. تحلم أن يخرج لها من أغوار حكايات ألف ليلة وليلة.

قالت أنها لم تعثر عليه بعد، أو أنها لن تعثر عليه أبداً، لأن نوعه انقرض منذ زمن بعيد.

* * *

لم تُعلمني باسمها، مثلما تعوّد البشر في أثناء بدء أول لقاء بينهم، وكذلك لم أفعل أنا.

رحنا نمشي على رمل الساحل، يغمر الماء الصاعد أقدامنا الحافية. ننتشي بلسعاته الخفيفة الباردة قبل أن يتراجع متهادياً، موشوشاً. نبقى لدقائق صامتين.. أحدس أنها مثلي، ربما تفكر بأي الأسئلة والتعليقات عليها استئناف الكلام، أقول؛

ـ سأخمن اسمك.. هذا الوجه يليق باسم يلوح الآن في خاطري.

ـ أي اسم؟

ـ روزاليا، روزاريا، روزالينا، روز ماري، روز.. أي اسم فيه روز.

ـ لماذا روز؟

ـ وجهك يوحي بهذه الكلمة.. حين فوجئت بوجهك أمام ناظريّ وأنت تبتسمين، هناك في وسط البحر قفزت إلى ذهني هذه الكلمة. وردة تتفتح للشمس والبحر والهواء.

ـ أتراك تغازلني؟

ـ أفصح عن انطباعي الأول.

تضحك.. تباغتنا رشقة من هواء بليل فنمتلئ بعذوبته.

ـ وإن قلت لك أن اسمي ليس هذا.

ـ سأحتفظ بحقي في أن أناديك (روز).

تقف.. ترمقني بنظرة حائرة، مندهشة.. تهز رأسها.

ـ ما اسمك؟

ـ كلوديا.. أنا كلوديا.

ـ كلود روز.. روزديا.. روز كلوديا.. كلوروز.. دياروز.. يمكن أن أنحت لك مئة اسم من هذه الحروف.

ـ أنت إذن من أولئك المولعين باللعب في جسد اللغة.

ـ تستطيعين أن تقولي هذا.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

تبتسم، الابتسامة ذاتها التي ستظل تفجّر في روحي فقاعات المسرّة لأشهر سبعة أو ثمانية قبل أن تستحيل إلى طيف بعيد، قِبلة حنين، حلمٍ لذيذ غادرني وعليّ ملاحقته، استعادته، الاحتفاظ به وإن في هيئة صورة مشرقة في الذاكرة.

ـ قل لي ما اسمك أنت.. دعني أخمن.. أحمد؟ علي؟ مصطفى؟ سعيد؟

ـ لا، لا، لا، لا.

ـ كمال؟ عمّار؟ عبد الله؟ محيي الدين؟

ـ لا، لا، لا، لا.

ـ قل.. قل لي، ما اسمك؟

ـ سامر.

ـ سامر.

تلتقط خنصري بخنصرها ونحن نخطو تاركين آثار أقدامنا على الرمل.. أحسني موصولاً، الآن، بقلب العالم، بجوهره الفذ، الساطع. بالقانون الأسمى للوجود، ذلك الذي يمنحنا الشعور بأن الحياة لها معنى سامٍ، وإنْ كان غامضاً وزلقاً، وأنها على الرغم من كل شيء جديرة بالعيش.

* * *

أقول لها:

ـ إنك تبحثين عن فردوسك المفقود.

تقول:

ـ كلنا يا سامر .. كلنا نبحث عن فراديسنا المفقودة.. إنه وهمنا الذي يساعدنا على الحياة.

أقول:

ـ ربما كنت تبحثين في المكان الخطأ، وبالطريقة الخطأ.

تقول:

ـ ولو.. عندما أتأكد من الخطأ سأبحث في مكان آخر، بطريقة أخرى.

تمسكني من كفي.. تقيمني، وتركض لتخبر دفء الماء قبلي.. ألحق بها.. نعوم.. تغوص هي.. تضيع في غموض البحر.

على قلق أبحث عنها في الجهات، فتنبجس أمامي، خارجة من تحتي. أشتمها فتضحك. نخرج إلى الليل البارد. ننزوي في مقهى. أشرب فنجان قهوة، تشرب علبة عصير برتقال.. هكذا تلقيني بغتة في هذا الأفق الواعد باللذة والألم.

* * *

أنّى لي أن أقول لها؛ إنني جئت، ها هنا، لألملم نثاري، وانتشل ما تبقى مني، وأخرج من عبء موت شاسع إلى داخلي.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

البحر لصق غربتي، وعريي مبذول لشفق الموج، ولنزوة كلوديا، وكلوديا أغنية سخيّة تتدفق في هدأة الساحل..

ـ خمس عشرة شظية ناعمة، الآن، تحت هذه الندوب التي تداعبها أصابعك.

تحدق بي، فيأخذني سحر الليل المديد بعينيها. وتحت جلدي يتململ الوجع القديم.. أستلقي على ظهري، وأعاين قوس السماء. أخاله صَدَفة جبارة تحتويني فأذعن للسكون الذي يغمرني. أو لعلّني أبتعد، بما فيه الكفاية، بأفكاري، عمّا حولي. لكنها تباغتني وتشرع بالغناء. تستغرق بكلمات ولحن أغنية غجرية معجونة باللوعة. صوتها الراعش الأسيان، مثل رذاذ من الحزن، يسقط على روحي.. أقول لها:

ـ كفّي عن هذا الغناء الحزين.

تكفُّ، وتبقى تحدّجني، كأنها تستدرج ما أسكت عنه إلى حافة الفضيحة. أقول لها، ربما في سعي مني لتغيير مسار الكلام:

ـ أخشى كلوديا من الصورة التي رسمتها لي في ذهنك.

تقول:

ـ وماذا يهم إذا كانت جميلة ومدهشة؟

أقول:

ـ إذن، ستضعين بيننا هوّة أخرى.

* * *

تسألني عمّا جئت أفعل، إذن، على ساحل الأبيض المتوسط.. أقول:

ـ لأكتب.

ترن ضحكتها.. ضحكة قصيرة، صافية تفصح عن حيرة وشك.

ـ لتكتب؟!!

ـ أجل كلوديا.. روايتي، رواية أناي في العالم.. في مواجهة العالم.

تضحك ثانية.. أقول لها:

ـ لا تنظري لي هكذا، كما لو أنني كائن غريب قدم من الأزمان السالفة.

تقول:

ـ في عينيك أرى غبش الصحراء.

وهذه المرة، أضحك أنا، وأقول:

ـ يبدو أنك سليلة رحّالة حالم من أولئك الذين غامروا في القرن الثامن عشر، أو التاسع عشر بالقدوم إلى الشرق.

تتقلب على رمل الساحل وهي تقهقه:

ـ كم أود لو أستلقي على الرمل القائظ هناك.

أقول:

ـ لن تتحملي حرّنا الكافر.

تقول:

ـ سأقسر جلدي على تحمله.

* * *

نعود إلى الساحل وقد خلا من الناس أو كاد.. نتمدد على الرمل. نتسمع للنشيج المكتوم للبحر.. ملمس أصابعها يوقظ فيَّ ألماً مطَّهِّراً ونشوة خاطئة. أسمع قعقعة عربات الرغبة في دمي. أسمع رنين الأجراس المعلقة على رقاب خيول تركض في صحرائي.

مأخوذاً بالغواية تجذبني كلوديا إلى مخملها. إلى الشبكة الناعمة الملساء الحادة. تقبض عليَّ بذلك الشيء النافر والشرس والحيواني الذي فيها، فأحتويها في هذا الأتون الحارق الذي هو شغفي وشبقي. روحي الظامئة الصارخة في البرية، الحارة والمتطلبة، فأحس للمرة الأولى بأننا معاً في فاتحة نشيد باهر، يهيّج مياه الأبيض المتوسط.. أقول لها:

ـ كأن الزمان، وجد من أجل هذه اللحظة.

تقول لي:

ـ كم أنت حالم أيها البدوي الضال؟

أقول لها؛ أنت الأخرى حالمة أيتها الغجرية الوحشية.

تضحك فأتأمل تقاسيم وجهها. تسحرني بشرتها بالنور البرونزي الغض الذي تبعثه. تلوب روحي فأعبر إلى ما وراء خطوط المرئي، كأنني عبثاً أحاول قراءة ما يدور في رأسها الجميل.

أعرف أن أسئلة مرهقة، عصية تصدّني عنها. أسئلة تراكمت منذ فجر التاريخ حتى باتت جبلاً من صخور مسننة، ناتئة، جارحة.. أسئلة جوّاب

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

رجيم.. أسئلة مؤجلة، عارية.. أسئلة من قبيل؛ من الصياد فينا ومن الطريدة، في هذا الطراد الناعم، المضني، الأثير، على أرض هذا القفر الثلجي، وعبر هذه المفازات الساخنة، القاحلة؟

* * *

تنتزعني كلوديا من بلادة الصيف. من ذلك المرض الوجودي الرفيع الذي أسموه السأم، ومن الإحساس بالتوحد واللاجدوى. فعلى الامتداد الشذري للبحر تمنحني بشقاوتها مذاقاً للأشياء، كنت افتقدته منذ زمن بعيد، وولعاً بالحرية والحياة.

منذ سنين سحيقة، في بلدتي البعيدة، البعيدة/ السعدية، علّمني خالد (وسأحكي عن خالد فيما بعد) كيف ألعب وأضحك.. كان امتياز خالد في هذا العالم قدرته على ابتكار اللعب، والانفجار بالضحك لحظة اختلال التوازن من حوله، أو لحظة التهديد باختلاله.. والآن ، تأتي هذه المرأة اللذيذة، بطقسِ حاوٍ حاذق، لتعيدني ثانية إلى ساحة اللعب، وإلى مسرح الضحك، فتشركني بلعبها الماكرة، المثيرة. لتذكّرني تارة بحنان (وعن حنان، أيضاً، سأحكي.. لابد من أن أحكي) في ذروة مناورتها ضد الموت، وتارة بخالد وهو يسعى لإنقاذ طفولتنا من شَرَك الحرمان. أترنم، كأنني أريل، في أعماق روحي، لئلا تسمعني كلوديا؛

كان يا ما كان

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

في ذلك الزمان

كان هناك ولد

عذب اسمه خالد

وامرأة من شهد ولوز

وزهر البستان

صافية كنبع في الجنة

جميلة كشهقة الفجر

اسمها حنان) .

رأس كلوديا على كتفي ..

ـ اسمعي روز.

ـ روز!

ـ قلت لك، بين الحين والحين سأناديك روز.. روز، هل عرفت ذلك الإحساس الحاد الباهظ والمؤسي بالفقدان.. إن شيئاً عزيزاً، نادراً، لا يعوّض يكون قد اختفى وإلى الأبد.

ـ كأنك خبرت الحب والموت.

ـ أجل روز.. لقد خبرتهما.. لقد خبرت الحب والموت بعمق وقسوة أوروبا شاطئ غواية امتد على الجانب الآخر من مخيلتي الطفلة. والأبيض المتوسط كان بحر يوليسيس بالمقلوب، يحرِّض المغامرَ، فيَّ،

لموسم هجرة مؤجل تحت وطأة الحروب. وحين التقيت كلوديا ظننتها، للوهلة الأولى، بينيلوب حالمة تبغي استئناف الرحلة، لأنها مشغولة بهاجس المعنى. المعنى الذي تعرف بأن عليها أن تجوب بشأنه الآفاق لتكتشفه أخيراً في داخلها. أو كما في قصيدة كافافي عن إيثاكا، تلك التي سيبلغها يوليسيس عجوزاً، ليوقن أن الرحلة ذاتها كانت الممتعة وفيها المغزى. حسبت أنها بالانتظار، وأنا رهانها: القادم المنتظر (يا للوهم)، المعجون بالحكمة والحب بعد عبور أفخاخ اليورانيوم. وساعة فاجأتني بالقول؛

ـ لماذا لا تأتي معي إلى أوروبا؟

أرسلت نظري فوق الزرقة المضببة حيث أفق الشمال، وقهقهت.

ـ لماذا تضحك؟

ـ مجنونة أنت كلوديا. من يمنحني تأشيرة دخول إلى هناك، أنا العراقي. ثم لا تنسي مشكلة النقود. كم شهراً أو أسبوعاً تكفيني بضعة آلاف من الدولارات، جنيتها بشق الأنفس في ليبيا؟

قامت ومشت نحو موجة مقبلة.. ركلتها وعادت لتستلقي على بطنها، وهي بالمايوه الأصفر. كانت كتلة من توقد الجسد والغواية.

ـ وماذا لو هرّبتك؟

ـ ماذا؟

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ على مركب يملكه أبي.

لم أقل شيئاً.. تركتها حيث هي.. استقبلتُ موجة مدلّهة مشاكسة. احتضنتها ورافقتها. لحقت بي. سبحنا نصف ساعة. كنت أفكر، وأظنها كانت تفكر أيضاً. ثم وجدتني لا أفكر. كان عليَّ ألا أكترثَ للاحتمالات إذا ما أردت أن أغامر. صرت، في لحظة، مستعداً ـ بكليتي ـ لأن لا أكترث.

أكدت لي أن لا أقلق، فبمقدورها أن تهرّبني إلى إيطاليا بالسهولة ذاتها التي بها تدخن سيجارة، أو تشرب كأساً من البيرة، فمراكب والدها الثلاثة طوع أمري، وما عليَّ إلا أن أشير بإصبعي فتتهيأ لي الظروف حالاً.

ـ لا تسأل؛ كيف.

قالت، فسألتها بتهكم مازح عمّا إذا كان لوالدها أية علاقة بالمافيا. تهيأ لي أنها أخذت سؤالي على محمل الجد. ومع ذلك لم تضطرب. نظرت في عيني بثبات واثق، وقالت:

ـ نعم، لأبي علاقة بهم، لكنه ليس منهم. إنه ببساطة يعمل في ظلهم.

قلت:

ـ أتمنى، ولكنها مغامرة غير...

قاطعتني:

ـ عندما تقول مغامرة عليك ألا تتحدث عن الضمانات، ومع ذلك أقول لك؛ بل هي مضمونة النتائج .

ـ وماذا أفعل هناك؟

ـ تعمل أو تُكمل دراستك.

ـ أوه عزيزتي، وماذا عن مشكلة وضعي القانوني، ماذا عن مشكلة اللغة؟

ـ هذه أمور سنناقشها هناك.

ـ كأنك متأكدة.

ـ لا تعقّد الأشياء، سأعطيك مسوِّغاً للسفر معي: أن تختلي بضعة أشهر لكتابة روايتك.

* * *

بعد أسبوع كنت أنسل إلى السفينة (ناتاليا) بزي بحّار، وأحتلُّ قمرة خاصة بي.

اقترحت كلوديا ألاّ أختلط بالركاب، وأتجنب الصعود إلى سطح السفينة، فبقيت أسير قمرتي طوال الساعات التي استغرقتها الرحلة. أقرأ وأتناول الطعام اللذيذ الذي كان نادل، لا يفهم أحدنا مما يقول الآخر شيئاً، يأتيني به، وأحاول النوم ولا أستطيع.. وباستثناء دوار البحر الخفيف الذي أصبت به، في ساعاتي الأولى. باستثناء ذلك الدوار الذي

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

أوقفه كبسولان، أظنهما من مستحضر الزنجبيل، جاء لي بهما النادل فإن رحلتي كانت بلا منغصات.

لم تستقل كلوديا السفينة ذاتها. قالت أنها ستسافر بالطائرة، لتستقبلني في الميناء وتسهّل إجراءات خروجي بجواز السفر المزوّر الذي يحمل شعار جمهورية دولة عربية.

في الميناء، لمّا اجتازت بي العوائق التقليدية، سألتها:

ـ والآن.. ماذا بعد؟

ـ لا تسأل.. كل شيء سيكون على ما يرام.

وخلال دقائق أدركت أنني في عالم آخر، وفي مدار آخر، وعلى حواف مصير آخر. تتنازعني مشاعر مختلطة، ليست هادئة تماماً، وليست عنيفة. مشاعر مبهمة، أقل ما يمكن أن أقول عنها، أنني من خلالها أراني حراً، ومضطرباً في حريتي التي لا أعرف على وجه التحديد ماذا أصنع بها.

في الشقة المفروشة التي أوصلتني إليها، وسلمتني مفاتيحها، ورزمة كبيرة من الورق الصقيل، وعلبة أقلام بأنواع مختلفة، قالت لي:

ـ اكتبْ، على الورق، أو استخدم الكومبيوتر إن كنت متعوداً الكتابة عليه. إنها خلوة رائعة لن يعكرها عليك أحد، وسأزورك كلما أتيحت لي الفرصة.

وكان عليَّ أن أخوض تجربة التآلف والتوحد مع المكان، قبل أن أجلس إلى المنضدة الخشبية الصقيلة، المغرية، لأكتب.

* * *

كنت بحاجة إلى دقائق، بعد استيقاظي، في أول نهار لي، في شقة صغيرة أنيقة ودافئة، كي أعي أين أنا حقاً.

قمت خفيفاً، مغتبطاً قليلاً، وغير مبالٍ بالمرة.. لوحة لامرأة شبه عارية تستلقي فوق عشب صيف أوروبي على الحائط. امرأة من نفث خيال فنان انطباعي مفعمة بالنور والموسيقى.. بقيت أمعن النظر فيها لحظات قبل أن تثير انتباهي أيقونة لطوطم أفريقي يحدق بغرابة فيّ أنى أدرت وجهي، موضوعة على منضدة أبنوسية مضلعة في ركن الصالة، إلى جانب بار برفوف زجاجية صفّت عليها قناني النبيذ والشمبانيا والويسكي والكونياك. في الجهة المقابلة للبار جهاز كومبيوتر ومكتبة حائط صغيرة، مشيت باتجاهها بفضول. كتب بالإيطالية وأخرى بالإنكليزية، ومعظم الكتب الأخيرة لرحالة إنكليز من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. التقطت كتاب لورنس "أعمدة الحكمة السبعة" وقرأت بضعة أسطر قبل أن أعيده إلى مكانه.. كنت أشعر بالجوع.. مشيت إلى المطبخ.. مطبخ صغير أنيق بكاونتور وأدوات طبخ وطباخ وثلاجة وجهاز إعداد القهوة. لم أجد صعوبة في العثور على علب القهوة والحليب والسكر. ولم

يكن هناك شاي.. تناولت فطوري ـ قطعة من الجبن مع كسرة خبز وفنجان قهوة بالحليب ـ حلقت ذقني، وأخذت دوشاً بارداً، وأزحت الستارة الثقيلة، ودلفت إلى الشرفة.

كانت السيارات، في الميدان الدائري، كما تراءت لي تحت العمارة، أكثر من البشر. وكان رجل المرور على دراجته النارية الضخمة متحفزاً يراقب حركة السير من فوق الرصيف المقابل، وخلفه تماماً وقف رجل كهل يمسك بطرف سلسلة، رُبط بطرفها الآخر كلب صغير أبيض.. مرت فتاتان ترتديان بنطالين ضيقين فراح الرجل مع كلبه يراقبانهما، وبقي رجل المرور لا يحيد بنظره عن تيار المركبات.

لنصف ساعة لبثت في شرفتي.. غادر الرجل الكهل وكلبه، ولحق رجل المرور بسيارة مسرعة، وعبر أطفال ونساء وشباب في كل اتجاه، وفتحت واجهات محال تجارية، وتناهت دقات ساعة من مكان ما.

عدت إلى الداخل وشغّلت جهاز الراديو ورحت أبحث عن إذاعة عربية، فوقعت على واحدة تبث أغنية مغاربية راقصة، لم أفهم منها إلا بعض الكلمات.

دخنت سيجارتي الأولى وأنا مسترخ على كرسي وثير. وقبل أن يحين موعد الغداء كانت المنفضة الكريستال قد امتلأت بالأعقاب. وكان حلقي مراً، ولا شهية لي للطعام.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

في الثانية، بعد الظهر، دق جرس الهاتف. رفعت السماعة بتوجس، أو لعله خوف لم أفهم كنهه.. ماذا لو لم تكن كلوديا؟ كانت كلوديا في الجانب الآخر. سألتني؛ كيف أنا الآن، وماذا أفعل؟

قلت:

ـ أسأل نفسي من دون أن أجد لسؤالي جواباً؛ لماذا أنا هنا/ الآن؟ وما ينبغي عليَّ أن أفعل؟

قالت:

ـ أظنك وجدت فرصتك لتكتب.

قلت:

ـ يا ليت.. لكنني، للأسف، أحسني خاوياً، ولا رغبة لي في شيء.. في أي شيء.

وحين أخبرتها بأنني لم أتناول غدائي بعد.. قالت:

ـ سآتيك حالاً، لنتغدى في مطعم قريب يقدم أطباقاً شهية.

فرشيت أسناني بمعجون ذي نكهة نعناع طيبة، وارتديت ملابس الخروج.

قبلتني كلوديا من فمي وهي تدخل.

ـ لو تتخلص من كسلك وفوضاك.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

حملتِ المنفضة وفرّغت الأعقاب في سلة المهملات. رتبتْ غرفة النوم ووضعت بيجامتي في الدولاب. أغلقت باب الشرفة، وأسدلت الستارة، وأعادت الكرسي الذي جلست عليه إلى موضعه.

ـ سأجعل خادمتي الآسيوية تمر على الشقة من أجل التنظيف وغسل ملابسك مرتين في الأسبوع.

ـ خادمتك الآسيوية؟

ـ لا تعطي لعبارتي دلالة رمزية.

ـ لست أفعل.. كنت أفكر...

ـ هي سمراء، لا تخلو من الجمال والجاذبية.. حذارِ يا سامر.

ـ لستُ....

ـ هيا.

في المطعم طلبت لنفسها طبقاً من المحار، أما أنا فقلت:

ـ أريد أي شيء آخر، بشرط أن أعرف نوع اللحم الذي آكله.

ضحكت كلوديا وأوصت لي النادل بطبق سباكيتي وشريحة من لحم السمك ومقبلات، وزجاجة نبيذ.

حين خرجنا كنت منتشياً، لا أثر في نفسي لأحاسيس الضيق والوحشة التي عانيتها في الصباح.. تسكعنا طويلاً في الشوارع. أدخلتني محلاً للعب الأطفال واشترت دمية كبيرة. ومن صيدلية اشترت أقراصاً وحفاظات

نسائية. ومن سوبر ماركت اشترت زجاجة شامبو وزجاجة طلاء أظافر، وأحمر شفاه . واشترت لي قميصاً وجوارب وملابس داخلية وزجاجة كولونيا، ثم أوقفت لي سيارة أجرة وأخبرت سائقها بالعنوان. عانقتني وعبرت الشارع، ولم تقل إلى أين هي ذاهبة؟

إلى ساعة متأخرة تابعت ما يعرض على شاشة التلفاز، وبقيت أقلّب القنوات الفضائية ولم أستقرّ على برنامج بعينه، وعلى الرغم من فناجين القهوة التي شربتها ظل رأسي مصدوعاً فذهبت إلى الفراش.

لم أنم إلا قبيل الفجر، ولم أستيقظْ إلا بعد الظهر.

خرجت وتسكعت وأكلت شطيرتين في مطعم صغير يعج بالسياح، مع زجاجة كولا، وعدت في صخب أول الليل، ولم تتصل بي كلوديا، وكذلك لم تفعل في اليوم التالي.

مراراً جلست إلى المنضدة لأكتب، غير أن الكتابة كانت عسيرة ومتمنعة.. قوة ما، خفية ولئيمة، تحول بيني وبينها، فتظل الورقة بيضاء أمامي إلا من بعض الخطوط المبهمة التي ربما تكون الخارطة الملغزة لنفسي وهي في مأزقها هذا.

* * *

في اليوم الرابع أيقظتني، والوقت ضحى، واعتذرت عن عدم اتصالها لأنها كانت تعاني من وعكة بسيطة كما قالت. تناولت معي فطورها، بيضاً

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

مقلياً وقطع جبن وزبدة، وشاياً جاءتني به بعدما أوصيتها في المرة السابقة. بعد ذلك ثرثرنا ودخنا بضع سجائر.

أمسكت يدها ورفعتها إلى فمي. ألقت برأسها إلى الوراء فبان شلال النبيذ ساقطاً على منحدر رقبتها. لثمت رقبتها وحنكها وخديها وجبينها وأذنيها، وحملتها إلى السرير وأنا أمتص عصير شفتيها ولسانها. ولمّا رحت أفك أزرار قميصها. قالت؛ أنت تتمادى يا صاح.. قلت؛ أوقفيني لحظة تريدين.. قالت؛ أيها اللعين.. وبينما هي تعريني، عريتها من كل قطعة ملابس ترتديها، وكنت أحترقُ شهوة، وكانت هي.. نزلت بفمي نحو صدرها. نحو ذينك التلين الصغيرين المتوثبين. داعبت حلمتيها الورديتين بلساني قبل أن أحضن برقة فاحشة بكفي نهدها الأيسر، ثم الأيمن، وأعود زارعاً بطنها وفخذيها بقبلات ناعمة لطيفة. وبدءاً من ركبتيها رحت أصعد ثانية داخلاً بين ساقيها، فجعلت تشدني بقوة، وتقبلني، وتهرش شعري.

تقلبنا على الصفيح الساخن للرغبة مثل ممسوسين.. تارة وجهها إلى السماء، تارة وجهي. تارة وجهي نحو الأرض، تارة وجهها. ووجهي ووجهها يشتعلان. وفي تناغمٍ لهاثنا كان الكون يستعيد بهاءه وتوازنه وخيلاءه. كانت الذروة نوراً تفجر مني في داخلها، وموسيقى منها تصادى رنينها في داخلي. كان كل شيء فيَّ ممتناً لكل شيء فيها..

ألقت برأسها على كتفي، ودفنتُ وجهي في شعرها، شعرها الكستنائي السبط، في حالة من رضا وتواطؤ، وقد جلسنا ـ من دون كلام ـ نعيش صفاء ما بعد الخروج من ذلك الغمر السماوي العجيب.

* * *

تمنحني كلوديا النشوة الفسيحة: هذه القدرة على الطيران المذهل الفذ، حيث يتحرر المرء مما يثقله، ويكون مثل عندليب مفتون، مفعماً بالفرح والموسيقى.. تُخرجني من نزيف الليل. من وحشة المكان. من هذا التيه المديد، ومن نحيب الروح.. من ظلالي الكئيبة، وفزع الأحلام، فأشهد قدّاس جسدها إذ يحتفي بالحياة. تبسم منشرحة كما لو أنها أمسكت بذاتها الطفلة في صبيحة عيد. تستل من حقيبتها شريطاً تُلقمه آلة التسجيل، فيتناثر نغم آسر أسيان. تمد ذراعيها، وفي عينيها تحديقة نقية متوحشة. يتباطأ اللحن، فتدوّر وركها. ثم يبدأ بالتصاعد ومعه يتماوج الصدر والرأس والساقان. وحين ينطلق النغم كحشد من عصافير أهاجته طلقة طائشة تُذعن للجزء الساحر المجنون ـ وقد استيقظ ـ من روحها.. تخلع قميصها وتقذفه في الهواء.. نهداها خلف حمالة الصدر الشفافة حيوانان صغيران ضاقا ذرعاً بمحبسهما، وبطنها مذبح نوراني في ليل قبيلة بدائية.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

تفتح زر بنطالها الجينز فينزلق قليلاً نحو الأسفل، ومعه يتكشف شريط من لباسها الداخلي، وبعض من مرتقى ردفيها، وشيء من عتمتها السرية البليلة.

في لحظة، تتجلى لي قرينتها الخبيئة.. الكائنة البرية، الرقراقة، العنيفة التي لم تروّض، ولم تألف، بعد، العالم خارج الغابة.

تهز رقبتها ورأسها، فألوب في كستناء شعرها الطويل.

أسمعُ أزيز النشوة في دمي، وأنا أرى هذا التفتح الراعش لوردة فمها. هذا الندى الحائر على أسنانها المهتاجة. هذا السحاب الصارخ بالشهوة على لسانها، فأقول؛ أي وعد بالفراديس السعيدة تنطوي عليه كينونة هذه الأنثى؟

غير أن اللهب المتأجج ، الصاعد، سرعان ما يتضاءل، بعد ساعة أو ساعة ونصف، ثم يبدأ بالخمود، تاركاً فيَّ رماداً بارداً، وفراغاً، فأعود لأدخن، وأنا ساهم تتنازعني خواطر ورؤى، تتنافر وتتصادم، لا أقدر على احتوائها، فتلحظ كلوديا إشارات هذا الانقلاب المباغت في مزاجي. تقرأ في كتاب، لكنها بين لحظة وأخرى تختلس النظر إليّ، ولا تنبس بحرف. تدعني لأخرج من هواء فردوسها إلى ضبابي. لعلها تحسب أنني بهذا سأحقق توازناً مؤقتاً، أنا إليه بأمسّ الحاجة، وأنني، لابدّ، راجع إليها.

* * *

أبحث دوماً عن مكان آخر، هَرَباً من مكاني، من نفسي، علّني أعثر على الوجه الصريح لنفسي في المكان الآخر. لكن المكان الآخر الذي أصل إليه يتكشف أخيراً عن الوهم عينه فأتيقن، ليس تماماً، بأنني طوال الوقت كنت أخدع نفسي. أو ربما لأن المكان الآخر ذاك موجود في زاوية ما من العالم، لم يقيّض لي، بعد، العثور عليه. لعلّه لا يوجد إلاّ هنا، قريباً مني، جدّ قريب: هنا، في داخلي. ولكن، يا للهول، كم هو عسير أن تستكشف نفسك، أن تحدد موضع ذلك المكان في دخيلتك التي هي قارّة معرّضة دوماً لانزلاقات وتبدلات لا تنتهي.

أود لو أَنقل لكلوديا حين تأتي عصراً، هذه الفكرة، غير أنني أصرف النظر. فماذا عساها أن تقول عن هذا العصّابي الحامل لألف عقدة، والذي يحكي عن أشياء، ربما هو نفسه، لا يفقه كنهها.. لعلّها ستقول في سرِّها، أو تلقيها في وجهي هكذا، إذ ما الذي يمنعها من قول ما تعتقد أنه الحقيقة؛ أنت ماسوشي لا يرتاح لك بال إلاّ إذا وجدتَك عالقاً في عالم مأزوم، تستدر الشفقة كأي شرقي يبحث لخيباته وهزائمه عن الأعذار والمواساة.

أخرج إلى الشرفة.. في الشرفة المجاورة امرأة بدينة تنشر الغسيل، تبتسم لي وهي تلوِّح بمشد صدر كبير، وأخرى في عقدها السادس مستغرقة في القراءة، جالسة في الشرفة التي هي أسفل شرفة المرأة البدينة، حولها أصص أزهار، ترتدي نظارة بإطار دقيق وتلف رقبتها بشال أبيض، تقرأ

في كتاب ذي جلد ورقي. تلتقط قلم رصاص من وراء أذنها وتكتب بضع كلمات أعلى الصفحة التي تقرأ فيها. تحك أرنبة أنفها بمؤخرة القلم قبل أن تعيده إلى موضعه وتستأنف القراءة.

تنتهي المرأة البدينة من نشر غسيلها على شرفتها؛ ملابس داخلية وأخرى للأطفال مع كنزة حمراء واسعة، فيما المرأة التي تقرأ في الكتاب لم تتنبه لي، أو ربما لم تبالِ بأمري.. في الساحة التي أمامي طفلان يلعبان الكرة، وشرطي المرور واقف إلى جانب دراجته، والسيارات في هذا الوقت من منتصف النهار آخذة بالازدياد.. يُقرع الجرس.. هذا موعد مجيء الخادمة كريستين.. تدخل بخطوات وجلة، تبدأ العمل حالاً. ألتقطُ كتاب قصائد لريلكة بالإنكليزية.. أجلس على الكرسي المركون في الشرفة وأقرأ.. بعد أكثر من ساعتين، ألتفتُ فأرى الغسيل المنشور، في شرفة المرأة البدينة، ما يزال يخفق في الريح الرخية، فيما المرأة التي في عقدها السادس لم تعد على كرسيها. تنشر كريستين ملابسي التي غسلتها في الشرفة. وتكلمني بلغة غريبة فأفهم أنها تقول إنْ كنت بحاجة إلى أي شيء آخر. أقول لها شكراً بالإنكليزية وأظنها تفهمني. ترسم على وجهها ابتسامة عريضة وتغادر.

* * *

ما الذي تخفيه؟ أي سر؟ أي عذاب؟ وما هذا الـذي يـضنيك، ويـبهظ روحك، كأنك خارج مـن محنـة، أو هـارب مـن خطـر مـداهم؟ قـل لي، اعترف، لعل في اعترافك لي بعض راحة أو خلاص.

كان هذا سؤالها الذي يلتمع في عينيها، ولا تنطقه. تغلق كتابها وترمقني بتلك الطريقة التي تقول لي من خلالها؛ أعرف أن هناك أمراً. أمـراً عـصياً يضغط على ذاكرتك وأعصابك، ويمنع كائنات الحياة فيك من الانطـلاق واللعب. وكانت نظرتها تلك تربكني، وتحيرني وتدفعني إلى هاوية البوح. غير أنني كنت أتردد في اللحظة الأخـيرة، وأتراجـع، وأقـسر نفـسي عـلى الكتمان.

أخاف أن يفيض الألم دفعة واحدة، ويتخطى بي حدود التحمل.

قالت، ونحن جالسان في مقصف، نشرب ونثرثر:

ـ أهي امرأة؟

ـ ماذا؟

أجبتها مستغرباً، متلعثماً.

ـ أقول، أهي امرأة هذه التـي تتركـك مـشدوهاً أحيانـاً، وحزينـاً عـلى الدوام؟ اسمع، لست غبية. أرى رفة الحزن فيك حتى في سـاعات مُتعـك وانشراحك.

ـ لا أدري عمَّ تتكلمين؟

رفعت كأسها إلى شفتيها، وهي تقول بنبرة صوت مختلفـة عـن نبرتهـا. نبرة مشروخة، متحدية:

ـ بل تعرف.. تعرف تماماً ما الذي أقصد.

ابتسمتُ.. لم تكن تلك ابتسامة، بل تعبيراً موجعاً، لا شك، ارتسم على وجهي وجعلني كما لو أنني على وشك البكاء.

ـ ولماذا تريدين أن تنبشي .....؟

ـ أهو أمر يتعلق بموتى!!

ـ كم أنت ذكية كلوديا؟

ـ لا يحتاج المرء أن يكون ذكياً جداً ليستنتج هذا.

ـ لا أعني الاستنتاج، بل استدراجك لي..

ـ لأنني مهتمة بأمرك.. ينبغي أن تدرك ذلك.

ـ أدركه تماماً، وأنا ممتن لك.. ومدين.

ـ أرجوك سامر، أنا لا أفعل شيئاً ضد إرادتي.. بل بالعكس. ولا أسـأل نفسي؛ لماذا؟ فقط أعرف أنني أريد هذا. لا أرغمك على قول ما لا ترغب، أو الإفصاح عمّا يجب أن يبقى سراً.. هل جئت لتنسى؟

* * *

أدخلتني كلوديا مقصفاً يضج باللغط والدخان. اخترنا الزاويـة الأشـد عتمة في المكان، وجلسنا. الرجل ذو الـصديرية البيـضاء، الواقـف خلـف البوفيه حيّا كلوديا بأصابعه، فلوّحتْ له مع ابتسامة مشعة. جاءت النادلـة

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ وهي امرأة ذات بدانة، في أواسط عمرها، يبدو على محيّاها الإرهاق ـ ووقفت إلى جانبنا.. سألتني كلوديا:

ـ بيرة؟

ـ بيرة.

وفهمتُ أنها تقول؛

ـ أجل، كأسان من البيرة.

جلست امرأة إلى البوفيه. قال لها الرجل من خلف البوفيه شيئاً هامساً فأطلقت كلمة بذيئة. لا شك أن تلك الكلمة كانت بذيئة على الرغم من أنني لم أكن أعرف معناها.. قدّم لها كأساً، كرعتها دفعة واحدة. كانت ترتدي بنطلوناً قصيراً لا يكاد يستر الجزء الأسفل البض من ردفيها، وأوشكت على السقوط لمّا استدارت فتلقفتها يد رجل، كان قريباً منها.. ابتسمت.. اتسعت ابتسامتها، ثم قهقهت، ومضت إلى منضدة يجلس إليها رجلان، واقتعدت الكرسي الفارغ أمامهما. كأنهما كانا بانتظارها.

كانت رفوف البار، من خشب متين بني اللون وبراق، تبدو بديكورها القديم وكأنها تعود لسنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية، عامرة بزجاجات كثيرة، من كل صنف ولون. زجاجات تجعلك ترغب بالشرب المفرط والسكر، وثمة لوحة لشيخ ثمل بيده كأس، على وجهه ابتسامة

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

نصف ساخرة ونصف مشفقة، لم يحلق ذقنه منذ أسبوع، تتوسط معرض الزجاجات ذاك.

ـ أنت تراقب كل شيء.

قالت كلوديا، فقلت بنبرة مازحة:

ـ ربما لأنني روائي.

ـ ومتى ستكتب روايتك هذه؟

ـ الآن.. إنني الآن أكتبها.. أو، هي التي تكتبني.

ـ هل كتبت شيئاً منها، أقصدُ على الورق، في الكومبيوتر، حقيقة؟

ـ لا.. ولكني سأكتب.

ـ تريد محفزاً.

ـ لم أعثر بعد على الاستهلال.. الأحداث والأفكار والشخصيات واضحة في ذهني.

ـ لماذا لا تبدأ من حيث بدأ كل شيء؟

ـ هذا لا ينفع.

ـ تسعى لشكل جديد.

ـ أسعى من أجل أن أقول ما يجب أن أقوله حقاً.

ـ وهل ما ستكتبه وقائع حدثت حقيقة، أم هي من نسج الخيال؟

ـ هو شيء حقيقي من نسج خيال العالم الحديث.

ـ هل أنت فيها؟

ـ قلت لك إنها روايتي .

* * *

ما عدت أهتم بما يدور حولي.. تسحبني الثرثرة السكرى، مع كلوديا، إلى المحطة النائية التي أبغي؛ المحطة التي بت أراها، أو أرى طيفها، في بؤبؤي عينيها، عيني كلوديا الدافئتين حيث الخمر وضجة الزرازير.. قلت؛

ـ إن في جعبتي قدراً هائلاً من الحكايات.. حكايات لا تنتهي. وأنا أحكي لك لأثبت بأنني ما زلت أتذكر، أي أنني مازلت أعيش. كانت شهرزاد تحكي لتدرأ الموت، فتلك الحكايات كلها ما كانت سوى مناورة ضد الموت. فهي طوال الوقت كانت تخدع شهريار.

ـ أتقصد أن الحكايات ما هي إلا خُدع.

ـ لا، كلوديا.. الخدعة هي في فعل الحكي، في اللعب بالحكاية، في الوقوع على كيفية سردها، وفي هذا كانت شهرزاد بارعة.

ـ وأنت الآن تلعب ضد من؟ تخدع من؟

ـ ألعب ضد احتمالات الموت والنسيان.

ـ إذن أنت لا تريد أن تنسى.

ـ لا، تلك القصة لابد من أن تعيش في ضمير أحد ما، وذاكرته.

ـ وأنا يا سامر، في كل هذا، من أكون؟ ما دوري؟

ـ أنت شريكتي كلوديا، أو يجب أن تكوني هكذا.. شريكتي ضد الموت. سأحكي، وستحكين.. أذكر مشهداً من فيلم قديم.. في لحظة ما هربت إحدى الشخصيات، وكانت رجلَ فضاء مطارداً من قبل عصابة، اضطر لتسلق جبل. كان خائفاً، بل مرعوباً لأن مطارديه يرومون قتله، ولا شيء آخر. ولكي يستعيد توازنه راح يحكي لنفسه قصة كان قد سمعها من أمه عندما كان طفلاً. كان الجسر بينه وبين الخلاص هو حكاية أمه القديمة. كان عليه ألاّ ينظر إلى الأسفل حيث الوادي الصخري يلوح مثل شدق وحشي ذي أسنان هائلة. وكان يخاف أن يحدّق في الأعلى لأن المسافة إلى هناك عسيرة تملأ النفس بالروع، فبات عليه أن ينظر إلى داخله.. كانت الحكاية وسيلته لترويض الزمان والمكان، وتحقيق توافق هش، لكنه ضروري، بين الداخل والخارج. وقد نجحت اللعبة..

ـ وهل نجا؟

ـ أوه.. تلك مسألة أخرى. كانوا هناك، في القمة، ينتظرونه.

ـ إذن، لم يكن ثمة جدوى.

ـ بل كان.. لقد حاول.. مجده أنه حاول.

ـ حاول ماذا؟

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ أن يفهم، فكلما حكينا أكثر اقتربنا من أنفسنا واقترب بعضنا من بعض.

* * *

يدي في يد كلوديا، أو هي روز، كما يحلو لي أن أسمّيها. أصابعنا مشتبكة، ونحن نعبر زحمة سائحين ملابسهم مهرجان من الألوان، على جسر المدينة الحجري القديم، أنظر إلى الماء، وأفكر بحنان لحظة شاكست جرأتي في مساء بغداد البعيدة، وجعلتني أصيح هلعاً، وقالت لي؛ خوّاف، هل خفت؟ خفت عليك، لأني أحبك، أخاف.

وكلوديا تداعب رأس طفلة يابانية يسحبها والدها فتبتسم، ويقول الياباني شيئاً، وتهز امرأته رأسها تحية، فأغصب نفسي على الابتسام، وحنان في إهابي.. يختفي الياباني وامرأته وطفلته في زحمة سائحين آخرين. أظنهم بسمرتهم الغجرية أسباناً.. نمر بمتاجر تبيع تحفاً. بباعة جوالين يعرضون كل شيء "لعب أطفال ووروداً وأدوات زينة وملابس وقرطاسية وصوراً ومرطبات". نصادف عشاقاً يقبّل بعضهم بعضاً على الرصيف، وأشباه مجانين يرتدون أسمالاً مزركشة ويغنون. ونقف قليلاً مع جمع مهتم من شباب وصبايا حول رجل يعزف الهارمونيكا. تترك كلوديا ورقة نقدية له ونمضي.

نصل ساحة واسعة يتوسطها تمثال لرجل مفتول عار، وفي الجهة الأخرى تلوح بأبهة فخمة بناية كنيسة قوطية عتيقة، وفي كل مكان يجلس فنانون منهمكون برسم بورتريهات للسائحين.. هل أنت عربي؟ يصيح بي رسام مصري فأحييه بيدي.. يقدم لنا عرضاً بأن يرسم وجهينا بنصف الثمن المعتاد. أقول له؛ لا وقت لدينا اليوم؛ فيفهم أنني عراقي، ويقول أنه في نهاية السبعينيات هاجر إلى بغداد واشتغل كاتب طابعة في مكتب تجاري في منطقة المنصور. قال؛ "إنْ جئت مرة أخرى ستجدني هنا".. "إن شاء الله" قلت له.

جلسنا، أنا وكلوديا على مصطبة حجرية. جاءت امرأة عجوز تبيع وروداً فاشتريت لكلوديا وردة حمراء، وكدت أحدثها عن حنان فصرفت الفكرة، وقلت لها؛ يوم جميل وتمثال بديع. فراحت تحدثني عن دافنشي، عن فلورنسا عصر النهضة، عن مايكل أنجلو وجيوتو وبتوشللي، عن متحف الأوفيزي الذي قالت عنه؛ لم تر إيطاليا إن لم تر هذا المتحف، ووعدتْ أن نزوره في يوم آخر.

في مطعم صغير، أنيق أكلنا البيتزا وشربنا البيرة، وخرجنا إلى ساحة أخرى.. مشينا بين مئات الطيور، ثم وجدنا أنفسنا بين عشرات الدراجات الهوائية يقودها صبية مرحون. أقبل رجل وامرأة عجوزان على دراجتين . عاطت المرأة وهتف الرجل حين اقترابهما منا. كانا مبتهجين،

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ودخلنا مقهى لنشرب فنجانين من الكابتشينو، ثم رحنا نتسكع على ضفاف النهر. هبطنا درجات عريضة، وعند حافة النهر جلسنا على مقعد خشبي ندخن، ومالت كلوديا برأسها وألقته على كتفي. وضعت يدي على رقبتها، تخللت أصابعي شعرها. نظرت إليّ بحنان. مررت بإبهامي برقة فوق شفتها السفلى، احتضنت وجهها بكفي وقبّلتها قبلة طويلة.. طارت بي قبلتها على ظهر ملاك طيب ضلّ طريقه في السماوات. كنت مسحوراً، وقلت لها؛ كم أنت رائعة جنتي. بوغتت بعبارتي، وطاف في عينيها ظل حيرة وقلق.. امتد بيننا صمت طويل، قبل أن تفاجئني بسؤال؛ "أتراك أنت الآخر جئت غازياً".

ـ غازياً؟! ما الذي يجعلك تقولين هذا؟

وضحكت بارتباك، وقلت؛ "إن كنت تلمّحين لمصطفى سعيد في رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) فلست أسطورة مثله، هو أقوى مني.. أنا إنسان بسيط أبحث عن الدفء في صقيع أوروبا، وأحسبني وجدته بعينيك".. فتضحك وتقول شيئاً عن الشرقي، فأقول؛ "لو تنسي هذا التحديد المفبرك فنعود لطبيعتنا بشراً على كوكب واحد". فتضحك ثانية وتقول؛ "أمزح معك، لا تأخذ كل ما أقوله لك بحساسية زائدة". وتقبّل خدّي، أقول؛ "لم أفكر بالثأر، لست أبغي إلاّ التفهم، ولا أمثل إلاّ نفسي. هل فهمت؟". "قلت لك كنت أمزح". أدعك أنفها وأنفجر بالضحك

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

فتضحك. تهيج نفحة من نَفَس الأزهار بضحكتها، يتهيأ لي أنها تلوّن غسق المدينة.

* * *

نوافذ السيارة مفتوحة، والهواء عذب بليل. تسوق كلوديا بمرح مخمور، وتتمايل مع الموسيقى التي يبثها شريط التسجيل. موسيقى متهورة تطيح بالسكينة الكسلى للشارع شبه الخالي، في هذه الساعة التي جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل. تبطئ من سرعتها. تطلق كلمة بالإيطالية لا أعرف معناها، فيرد عليها، بغضب، متشرد كهل، يقف تحت لوح مضيء لإعلان عن سيارات فيات، وتضغط على الدواسة، مسرعة أكثر، وهي تقهقه بجذل، وتسألني إن كنت فهمت شيئاً.. أقول:

ـ شتائم متبادلة.

تصحح:

ـ شتائم قذرة متبادلة.

أحسني خاوياً، لا أبالياً، وشبه منتش، وأنا أناولها، تحت إلحاحها، علبة بيرة، وأفتح لي علبة أخرى.. أقول لها:

ـ عليك أن تكوني حذرة. إن أوقفتنا الشرطة...

تصيح:

ـ ولماذا تخاف الشرطة بحق الشيطان.. أنتم الشرقيون...

أقاطعها:

ـ لا تنسي أن وضعي غير قانوني.

ـ وهذا ما يجعل الأمر أكثر إثارة. تصوّر لو لاحقتنا سيارة الشرطة الآن.

ـ أرجوك كلوديا، لا تفسدي...

ـ اللعنة، سامر. في كل سنة لا أمسك لحظة مثل هذه.. لا تبددها.. أرجوك، أرجوك.

أسكت، وأقول في سري؛ ليكن ما يكون. وماذا يهم؟ الشرطة، أو غير الشرطة. أو المافيا، أو حتى الفاشست.. يكون الأمر سيان أحياناً!.

* * *

تحملني أسئلة كلوديا إلى حافات حربي القصية. أو لعله ذلك الهاجس الذي يحرِّضني لأبعثر إرثي الباهظ في أفق رواية أقول سأكتبها. أخبرها ـ روز الجميلة ـ عن ليلة واحدة. ليلة ابتدأت كأية ليلة خريفية، مشبعة برائحة تفسخ النباتات، ومطر بكر ستعبر غيومه ولن يتساقط، ولغط الجنود، لتنتهي عند فجر مضرّج بالدم والأنين.. أخالها تتناهى، إليَّ الآن، رائحة الموت العالقة بين ذرات التراب، والأعشاب المحترقة، وفي الهواء الملوث بسخام القنابل. أخالني أعود إلى الظلمة المعتقة، العفنة تلك، تكشف مشاعل التنوير عن هولها الشاسع.

يرن الهاتف الميداني.. يرفع حازم ـ عريف الفصيل ـ السماعة..

ـ نعم؟

أرى كيف تضمحل بقايا ضحكته عن وجهه ببطء رصين، لتستحيل إلى تكشيرة مبهمة.

ـ نعم سيدي.

يضع حازم السماعة، ويحدق فينا..

ـ ماذا؟

ـ سيهجمون الليلة.. يقول النقيب أنهم حشدوا نصف مليون شخص.

يعلق عباس ـ رفيقي في الملجأ ـ بشتيمة موجّهة إلى لا أحد.

يقول حازم؛ مثل المرة السابقة، سيأتون راكضين وعلى ظهور الخيل والحمير والدراجات، وستمزق الألغام أجساد مئات من المساكين، قبل أن يصلوا ويفتك بعضنا ببعض.

أقول؛ مساكين، هم ونحن..

ـ تخيلي كلوديا. معك رمانتان يدويتان، ومائة وعشرون إطلاقة، هذه حال كل جندي هناك، وتعرفين أن عليك مواجهة نصف مليون.

ـ هل قتلت أحداً؟

ـ لا أريد التفكير بهذا الاحتمال، لم أطلق مباشرة على أحد. كنت جندي مخابرة. مع جهاز لاسلكي.

ـ ثم؟

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ لا، في النهاية اجتاحوا مواضعنا.

ـ وبقوا فيها.

ـ لن أنسى تلك الليلة.. أنا واثنان من رفاقي نمشي في أحراش من الجثث، تحت قمر دام مجدور.

ـ إصابتك كانت في هذه المعركة.

ـ لا.. لم أصب في مواجهة.. تلك كانت في دورية قتالية بعد أشهر وسقطت قنبلة.

ـ خمس عشرة شظية.

ـ بل ست وثلاثون.. أو أكثر.. شظايا قنبلة من العيار الخفيف.. استخرجوا حفنة، وبقيت خمس عشرة.. هذا ما قاله الطبيب.

ـ ألا تؤلمك؟

ـ أحياناً في الليل.. إنها توقظ الكوابيس.

ـ تحلم وكأنك ما زلت في الحرب.

ـ غالباً.. وفي بعض الأحيان حين أفتح عيني يتهيأ لي بأنني في الجبهة.. أحتاج للحظات حتى أعرف بأنني بعيد عنها بضع سنين.

ـ ألم تفكر، يومها، بالهرب؟

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ فكرت، لكنني لم أفعل.. لم أحاول.. دائماً كنت أحلم أنني بعيد عن ساحة الحرب.. في مكان آخر.. مجرد حلم.. لم يكن ذلك ممكناً.. أو لعلني افتقرت دوماً لجرأة القرارات الكبيرة.. لم يكن بإمكاني الهرب.. لا أدري..

ـ دفاعاً عن الوطن، كما يسوِّغون الأمر.. تأنيب الضمير؟

ـ مفاهيم كثيرة تغدو ملتبسة، إلى حد ما، في مثل هذه الظروف.. ما هو أي شيء؟ وهناك الخوف.. حسناً.. تلك كانت حرباً لم نُستشر في خوضها، بيد أننا خضناها

ـ ألم تكتب في الحرب؟

ـ أوراق كثيرة.. مزقت بعضها، وضاع مني بعضها، واحتفظت بقليل.

ـ ستكتب رواية عن الحرب.

ـ لا رواية يمكنني كتابتها، ما لم تكن ضاجة بدوي الحرب.

ـ في الحرب، يموت الإنساني في الإنسان.

ـ ليس دائماً كلوديا.. أحياناً يستيقظ هذا الإنساني، ويصبح أكبر وأعتى من أي شيء آخر.

ـ كيف وبعض يقتل بعضاً؟

ـ هي لعبة متناقضات.. سأحكي لك عن هذا... اسمعي.

ـ اشرب.

ـ في صحتك.

ـ في صحة الإنساني في الحرب.

ـ نعم، الحرب اللعينة...

أصمت محدقاً في بعد افتراضي، اعتباطي.

ـ قلت أنّك ستحكي لي.

ـ آه.... اسمعي.. كان ذلك في السنة الرابعة للحرب. كان الوقت شتاءً . كنا في الجبال. كان البرد شديداً. شيء غير معقول. وكان الثلج يسقط على الدوام، ثم تهب الريح القارسة. في الليل. لا سيما في الليل.

ـ في الليل يكون الأمر أقسى.

ـ وألعن.. اسمعي..

ذاكرتي كما لو أنها تتفكك، ألملم نتفها، بعضها إلى بعض، لأصنع ترنيمة متحشرجة، أو شبه هذيان. كلمات تبحث عن قوام، غير أنني نصف صاحٍ، أقترب وأبتعد، وأكاد أتطوح. كلماتي تتعثر؛ اسمعي، أقول لها، وهي مصغية. انتباهها يجعلني مضطرباً. تريد أن تسمع، وأريد أن أحكي، وفي هذه الساعة لا أعرف كيف...

ـ كان كل ما حولنا بين الأبيض والكحلي. الرمادي. كان كأنه الحلم كما تُصوّر في الأشرطة السينمائية. كنا نعرف الطرقات. الوديان، والأشجار. الزان والبلوط، والسفرجل والجوز.. أشجار عملاقة. وفي الليل الثلجي، مع الخوف، تبدو تلك الأشجار مثل جنيات هائلة. وفي الجوار حيوانات

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

برية، جائعة دائماً، تتربص وتنقض على من يكون وحده. ذئاب وضباع ودببة.. كنا نخرج في دوريات، نمسح منطقة محددة، ونعود قبيل الفجر.. اسمعي: ذات ليلة توغلنا أكثر مما يجب، أو انحرفنا من دون أن ندري. السماء ملبدة، والصقيع يصفع أجسامنا التي أخفيناها جيداً داخل ملابس ثقيلة، غير أن البرد بقي يصلصل في العظام. كنا في شكل نصف دائرة، نفكر بالضباع أكثر مما نفكر بالعدو، غير أن العدو كان هناك. فتحوا علينا النار. يبدو أن واحداً منهم كان خائفاً فضغط على الزناد قبل أن ندخل منطقة كان يجب تحاشيها. كان ذلك من حسن حظنا، وإلاّ لقضوا علينا. انتشرنا خلف الأشجار والصخور، وبين تكسرات الأرض. وجرت معركة معقدة. متداخلة.. كانت النيران تأتينا من جهات غير متوقعة. كنا في ورطة، ولكننا قاتلنا بشكل جيد دفاعاً عن النفس، أو من أجل أن لا نؤسر. من يريد أن يكون أسيراً في إيران؟ على الأقل أنا لم أكن أريد. واستقرت إطلاقة في جهازي اللاسلكي وعطّلته تماماً. لكن لم يكن بالمقدور حمله، كانوا بحاجة لي لأحمل السلاح وأطلق في اللحظة المناسبة. أمطر الضابط الجهاز بوابل من الرصاص كي لا يستفيد منه العدو. ذلك الجهاز حال دون إصابتي، غير أن عطله تركنا مقطوعين عن مقر وحدتنا.. قال الضابط؛ "علينا أن نقتصد في إطلاق النار". وكان يجب أن نحدث ثغرة وننسحب في مجموعات. وفي النهاية انسحبت مع ثلاثة من رفاقي..

كنا المجموعة الأخيرة. وكان الإيرانيون قد انسحبوا أيضاً. بعد مائة ياردة أو أقل التقينا بكائن بشري يئن في الثلج.. للوهلة الأولى حسبناه من جنودنا. لمّا اقتربنا منه عرفنا أنه إيراني. كان ينزف من ساقه. اخترقت إطلاقة ساقه، ويبدو أن رفاقه نسوه أو ضيعوه، أو تركوه، في خضم الفوضى، لمصيره. ما كان لنا أن نفكر بقتله، والخيارات المتاحة الأخرى أمامنا كانت محدودة.. أن ندعه لقدره ونمضي، وكان هذا حكماً عليه بالموت لأنه كان سينزف حتى ينشف دمه، أم ستأتي الضباع ، ويكون هو وليمة لا بأس بها في زمهرير ذلك الليل .. قلت .. أنا قلت؛ "لنحمله".. قال أحد رفاقي ـ سامي ـ لنشد ساقه علَّ نزيفه يتوقف، ونتركه ليزحف باتجاه الحدود الإيرانية.. قال علي؛ لن يستطيع.. قال رابعنا؛ لنحمله مثلما قال سامر. كان هذا الرابع أقوانا بنية.. اسمه عبد الله، رجل كردي من خانقين، وأعرفنا بمسالك هذه الجبال، وهذا الشتاء الثلجي.. كنا نحمل ضماد ميدان. ربطنا موضع الجرح في ساق الإيراني، وحمله عبد الله على كتفه. ثم حمله علي، ثم سامي.. وأخيراً أنا.. ساعتان انقضتا وأدركنا أننا تهنا.. قال سامي؛ "كما لو أننا في سيبريا".. قلت متهكماً؛ "من شاهد فيلم (زهرة عباد الشمس) لصوفيا لورين؟". قال علي؛ "احك لنا قصة الفيلم". وقبل أن أبدأ، نبهنا سامي إلى الضباع التي تتبعنا من بعيد.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

اقترحت أن يسير واحد منا ووجهه إلى الخلف حيث تلك الحيوانات الجائعة الكريهة.

فقد بهروز ـ أظن كان اسم الجريح الإيراني بهروز ـ نعم، فقد بهروزوعيه. كنا محاصرين بالثلج والضباع والإيرانيين، وبقواتنا التي قد تتوهم وتبيدنا. وكنا نشعر بالخوف والبرد والجوع. شهق فجر شاحب، وبدأ الثلج يسقط مرة أخرى، ونحن في مكان لم نره من قبل. جلسنا تحت شجرة سفرجل، عليها بضع ثمار بابسة يبدو أنها صمدت بوجه الشتاء. استعاد بهروز وعيه، وكان يشعر بالإعياء. طلب ماءً. سقاه سامي من زمزميته، وأعطيناه حبة سفرجل كبيرة لم يستطع أن يأكلها. كانت متخشبة. ثم نام، أو فقد وعيه ثانية. إذ ذاك شرعت أحكي قصة فيلم (زهرة عباد الشمس)..

بعد ساعة وكان النهار قد طلع على استحياء ولم نر الشمس. كانت ساعة الغبش. قمنا على الرغم من إحساسنا بالإرهاق، واستأنفنا السير. لم نفكر أن نتخلص من بهروز. صار واحداً منا. كان البؤس مجسداً بوجهه الملتحي الغائر وأطرافه النحيلة. لحسن الحظ كان نحيلاً، وبقينا نتناوب حمله، حتى عثرنا ظهراً على قرية كردية في كتف جبل. وجدنا هناك الدفء والطعام، واستطعنا أن نوقف نزيف بهروز الذي أعانه صحن ساخن من

الحساء، وفنجان شاي أعدهما لنا ـ كاكه سيروان ـ نعم، كان هذا اسم مضيفنا، ذلك الكائن الجبلي الطيب.

مع الصباح كنا نسير باتجاه قطعاتنا، بعد أن تركنا بهروز مع كاكه سيروان.. قال كاكه سيروان؛ "أعرف كيف أرجعه إلى أهله".. لوّحنا لهم، لوّحوا.. حتى بهروز لوّح لنا.. قال علي؛ لو عرف جهاز الاستخبارات سيذيبوننا في حوض التيزاب..؟ قال عبد الله؛ "من سيخبرهم؟". "أي واحد منا؟ أكد علي.. قال سامي؛ "أحياناً لا يحتاجون لمن يخبرهم.. هم يعرفون، هكذا".. صاح عبد الله؛ "تصدقون الأساطير". قلت؛ "بالله عليكم.. يبدو أننا سنتشاجر".. كرر عبد الله؛ "من سيخبرهم؟ من؟". قلت؛ "يا عبد الله، لن يخبرهم أحد، إلاّ إذا أسروا بهروز وجاؤوا به إلى وحدتنا وهناك رآنا واعترف لهم، أو وشى بنا كاكه سيروان والاحتمالان كلاهما غير معقول".. قال علي؛ "وأي شيء هو معقول في هذه الحرب العاهرة".. نزلنا جبلاً. كنا متعبين.. أعصابنا متوترة، وأمزجتنا سيئة.. انزلق بي قدمي. التوت. تدحرجت بضعة أمتار ولحق بي حازم. صحت من الألم.. أقاموني.. مشيت والألم يصعد من كاحلي إلى عمودي الفقري. كنت أضلع. حملني عبد الله. رحت أحتج. قال عبد الله؛ (هذا اليسوي زين).. قال علي؛ "لا تخبروا حتى الحجر، انسوا الأمر تماماً، انسوه"..

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

من ينسى؟ حملني علي، وكدنا أن نسقط فعاد عبد الله وحملني مرة أخرى حتى وصلنا الوادي. غير أن جبلاً آخر واطئاً، كان في طريقنا. المهم أننا وصلنا.

سألت كلوديا فجأة:

ـ هل كنتم سعداء؟!

ـ سعداء؟!

ـ سعداء لأنكم وصلتم وعثرتم...

ـ هل كنا سعداء لأننا..؟ ربما، سعادة من يفلت من قبضة الموت. لم نفكر بهذا. كنا نريد أن ننام.

* * *

بوجه من عليك أن تخرج لسانك؟ بوجه من عليك أن تبصق؟ بوجه من عليك أن تقهقه ساخراً؟ وبوجه من عليك أن تصيح؟ من أي وجع عليك أن تبدأ؟ وإلى أي صراخ، أي هذيان، أي احتجاج، ينبغي أن تنتهي؟ وأتساءل؛ إن كنتَ حراً، حتى في اختيار شكل موتك، وطريقة موتك، ومكان موتك، وزمن موتك؟

أنت طريدة تعيسة.. تطاردك أوهامك وأشباحك، فتهرب. كأنك مسوق بإرادة قدرية خرساء، أو تتبع بلا وعيك خطاً خفياً صاعداً إلى

حيث لا تدري.. لم تجد الفردوس، ولم تعثر على ضالتك التي لا تعرف حتى ما هي. ولم تتحرر من كوابيسك.

والآن، تدرك أن الهرب لا يعطيك حلاً. لا يمنحك الأمان، ولا السعادة، ولا الحرية، ولا الحب، ولا الخلاص.. ولا حتى الأسى..

فقدت مذاقك للأشياء، واختلّت بوصلتك الداخلية.. وهذه الرواية العريضة والحزينة التي تحتل إهابك، وتومض فيك شعاع أمل أخير تخفق في صبها على الورق، وتخشى أن تضيع منك فتكون قد أضعت كل شيء، فتصبح عندئذ الخسارة باهظة وأكيدة.

تذهب إلى ساحل البحر. تلاحق بنظرك الأجساد شبه العارية والعارية للفتيات الفاتنات، من دون أن تحس بإثارة حقيقية. تتسكع على أرصفة تشعر أنها ليست لك. تدخن طوال الوقت، وتشرب الكأس تلو الأخرى، وتعيش مع كلوديا بعضاً من ساعات المتعة ليتولاك، بعد مغادرتها، الجزع والوحشة، وهول الفراغ.

تسأل نفسك عن المعنى في هذا كله؟ وتسأل نفسك عن الآتي الذي إذا ما كان تكراراً لحالك هذه، فإنه حتماً سيسلمك للجنون.

هل أنت على يقين من أن كل ما هو طاف الآن على سطح ذاكرتك حقائق دامغة؟ كم صاغت شطحات خيالك وتهيؤات ذهنك، وكوابيسك

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

وأحلامك ومخاوفك من تلك الصور/ آلاف الصور التي تسعى أن تكون مادة أولية في روايتك.

ها أنت ذا عاجز عن البدء في الكتابة. وكلما أمسكت بالقلم تجدك مضطرباً، تتلاطم في رأسك الأحداث، والأشخاص، والأماكن، والأزمنة.. تتآكل الوقائع تحت سطوة المخيلة، وتسلمك المخيلة إلى ما لا تحصى من الاحتمالات. شيء تستطيع تأكيده، وشيء آخر لا تستطيع. وشيء ثالث يهيئ لك جواز تأكيده.

عزاؤك الذاكرة، وملاذك الأخير. تخاف عليه من الاختلال والعطب، وتروم إنقاذ ما يختبئ في سراديبه السرية.. تلك الصور والأشياء والأشباح.. ظلال المشاعر. المسرّات والأوهام.. الأوجاع والكوابيس. تخشى أن تقول لكلوديا هذا، فقد لا تفهمك، وقد تظن بك الظنون، أو قد تقول؛ شرقيٌّ عبئه ماضيه، وجنته ما ترك وراءه هناك، وعالمه الكلمات. مهلاً كلوديا، لن تلبث، في النهاية سوى الكلمات، فلا تسخري من سطوة ذاكرتي عليَّ، فأنا لا أملك الآن شيئاً غيرها، إنها عبء، مثلما تقولين، ولكن ليس من السهل التملص منه.

***

هزتني فاستيقظت.. كنت مجللاً بالعرق واللهاث والخوف.. قالت كلوديا؛

– كما لو أنك ناجٍ من ملاحقة حيوان متوحش.

قلت؛

– كان حيواناً بالفعل، التهم حنان وانقض عليّ.. في حديقة واسعة كنا. لا أحد في الجوار. غيمة تربض على قمم الأشجار. بيضاء كانت، ثم أخذت تتعكر. ثم استحالت إلى حيوان ضخم، وهاجت كما الريح. حيوان لا أستطيع تحديده، يقع بين الديناصور والثور. فتح فاه وهو يخور فضاعت حنان، في لحظةٍ، في جوفه، وعندما اقترب مني أيقظتني يداك.

ـ كنت تصرخ. وحتى صراخك كان مخنوقاً.

– كان شيئاً مرعباً.

– كابوس.

– أنا يا كلوديا كائن مسكون بالكوابيس.

ـ لم لا تعرض نفسك على طبيب؟

– لا بأس، لا بأس.. سأكون على ما يرام.

* * *

ولأن كل شيء حولي كان على وشك الغرق، أصرّت أختي شيماء أن أغادر.. قالت؛

ـ الحق بخالد في ليبيا. سنتان أو ثلاث وتعود بمبلغ جيد، تتزوج وتستقر.

قلت لها مناكداً؛ هكذا، أتزوج وأستقر؟!

قالت؛ موت حنان لا يعني نهاية العالم.

قلت؛ قد لا يعني نهاية العالم، ولكني لا أعرف كيف أبدأ من جديد، وأيضاً إن كان ذلك ممكناً؟

كان رهان الوجود، هناك، في ذلك الوقت، مع ذلك الخراب، أن يبدأ المرء من جديد. كنت على عتبة أخرى، لا أدري إلى مَ تفضي؟ والأفق ضباب ومجاهل.

لم تفهم شيماء. ابتسمت وضغطت على كتفي بأصابعها، وقالت؛

ـ كثيرون ذهبوا وعادوا وجيوبهم مملوءة.

قلت؛ تعرفين أنني لا أهتم لأمر النقود.

قالت؛ من لا يهتم لأمر النقود في هذا الزمان. أو على الأقل ستنسى. إنْ بقيت هنا، مع هذه الحال، ستجن.

كانت على حق في الثانية: سأجن، لكنني لن أنسى.

بكت شيماء، وأنا أحمل حقيبتي وأودعها.. قال زوجها حسن؛

ـ ابعث رسائل، ودعنا نعرف أخبارك.

ووضع سامر الصغير رأسه على صدري.. أسمت ابنها البكر سامراً.. قالت؛ إنه يشبهك (ثلثين الولد على الخال). وأعطتني صورته فوضعتها في محفظتي.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

قبّلتهم جميعاً. شيماء وطفلتها الصغيرة التي على ذراعها، وزوجها، وسامر الصغير الذي يشبهني.. لم أقل لهم أنني ذاهب إلى المقبرة أولاً. جلست أمام قبري أبي وأمي وبكيت. لم أبك أمام شيماء. لكن هناك، أمام القبرين، بكيت. بكيت نفسي.. بكيت أبي وأمي.. وبكيت حنان المدفونة في مقبرة النجف. كان متعذراً أن أعرف أين هو قبرها على وجه التحديد، ومقبرة النجف محيط شاسع.. أحسها مدفونة ها هنا، في صدري. صدر كل عراقي يا كلوديا مقبرة شاسعة... دعينا من هذا الكلام كله، ما ذنبك أنت؟ أنا آسف!

* * *

منذ أشهر لم أبعث لشيماء برسالة. لا شك أنها قلقة الآن. لماذا لا أكتب لها؟ أنا نفسي لا أدري.. في كل يوم. والله، يا كلوديا، في كل يوم أقول سأكتب. يمر هذا الخاطر في ذهني غير أنني لا أستطيع. أفكر بها. أتذكر طفولتنا النازفة. مسراتنا الخاطفة التي أحن إليها على الرغم من كل شيء. كانت شيماء صديقتي. أقرب أصدقائي إلى نفسي، ولعلها ما تزال. لم تتلق تعليماً جيداً. في الأول المتوسط قال لها أبي؛ (عيب، ليس من اللائق أن تخرجي إلى المدرسة بعد الآن. لقد كبرت). لم تعترض لكنها أخفت في نفسها حسرة أليمة، وحين مات أبي راحت مع أمي، تصنعان من خوص النخيل أشياء كثيرة من أجل أن نعيش، ومن أجل أن أنهي أنا تعليمي.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

كانت بارعة. تقنية بارعة، تنسج الحُصر والمكانس والسلال أسرع وأفضل مما تفعل أمي، وحين ماتت أمي جاء قريب لنا اسمه حسن وطلب يدها.. سألتها؛

ـ ما رأيك؟

قالت؛ لا أظن أن هناك خياراً آخر.

قلت؛ هي حياتك.

قالت؛ الأمر سيان.

كان ذلك في زمن الحرب، وأنا، في معظم الوقت، هناك، في الجبهة.

* * *

كانت شيماء جائعة ونعسانة، وكنت جائعاً وغير نعسان. قالت أمي؛ حتى يأتي أبوكما. ولم نحتج. بقينا نتسمع لهزيم الريح وهي تنهض في الظلمة، وننتظر.. صاحت شيماء؛ "جاء".. طرقات أبي نعرفها. يضرب الباب بجماع كفه أربع مرات. فتحت الباب. دفعني ودخل. وقف بقامته المديدة الصلبة أمام أمي التي قامت إزاءه وهي تتوجس خيفة، لا ريب. سألها وعيناه تقدحان بالقسوة والشك؛ "أين كنت؟". اجتاحني برد الخوف في نخاعي. كيف عرف بخروجنا إلى بيت خالتي. قالت؛ "منذ عيد الفطر لم أر أختي".. صرف بأسنانه؛ تخرجين وحدك.. قالت؛ "كان معي سامر وشيماء".. صاح؛ "لم يقل أنك كنت بصحبتها". كانت فلتة

لسان. عاطت أمي؛ "من هذا الحقير، جاسوسك؟". واستدركتُ أنا؛ "كنا معها، أنا وشيماء".

في الحال ضربني وضربها، وريح الليل جعلت تلطم البيوت والأشجار وأعمدة الكهرباء. تقطعت الأسلاك وجثمت ظلمة ثقيلة، واختنقنا أنا وأمي وشيماء بالبكاء، وظلت حبات البطاطس المقشورة على حالها.. لم نأكل. حتى شيماء الصغيرة لم تأكل.. لا أدري من أضاء الفانوس.. جلس أبي في الزاوية يدخن، وخلفه ظله مثل صنم معبود غاضب، على الجدار. وطلبت منا أمي أن نتعشى.. وأنا أبكي بصمت موجع قلت؛ "لا أشتهي". ألحت أمي ولم يتكلم أبي. أخذت قطعة خبز مع قطعة بطاطا، وكذلك فعلت شيماء. اختلطت حموضة الدمع والمخاط مع الطعام، والريح تعوي. تتلاحق صفعاتها. تهز الأبواب والنوافذ بحنق لا مسوّغ. قلت؛ "كم أكره الريح؟". انتتر أبي؛ "لا تكفر يا كلب، الله هو مرسل الريح".. قالت أمي؛ "لو تعرف الله حقاً وتخافه لما شككت بي"..قال؛ "تخرجين من وراء ظهري، والله أعلم إلى أين؟". قالت؛ "أختي مريضة، وأنا مخنوقة في هذا السجن". قال؛ تكذبين.. قالت؛ "ظالم وقلبك غير نظيف".

قام مرة أخرى، ولم تقم.. ركلها مرة، مرتين، وثلاثاً وهي تعيط، فرُحنا أنا وشيماء نصرخ. تركها وانقض علينا، فقامت أمي وأمسكت به. ضربها

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

على وجهها فسقطت. كنا مستلقين على الأرض، ننظر إليه من تحت، وهو يلهث فوقنا ويشتم.. رأيته عالياً جداً والريح في الخارج تزأر وتصفع.

***

أخرجُ من جرح الطفولة. أبي يصيح، وأمي تهدد بحرق نفسها، وأختي المروعة تنتف شعرها وأنا أنزوي بدمعتي. أقول؛ لو أموت. لو يموت. لو نموت.. أبعثر صلواتي اليائسة في نسمة السحر. اللهم برحمتك، وأقرأ ما أعتقد أنني أحفظ من آياته. تتكسر الحروف فوق فكي الراعشة وأراها. في قتامة لا أباليتها تسجر التنور كأنها طالعة من ليل اغتصاب مضن وعسير، وحول عينها اليسرى هالة بنفسجية من أثر لطمة أبي. أفتح فمي لأقول لها ما يقوله الولد السعيد باليوم الجديد ((صباح الخير)) غير أنني أخفق في النطق. أتمتم، فتفهم أمي وتحضنني. يستغرقنا نشيج صامت وحنان لا حد لجموحه، والسعف اليابس يتقصف في النار فتلهبنا الحرارة الهاربة بلطف. أحلم بالرغيف المستدير الساخن القريب. وعلى حين فجأة أبصره. يقف أشعث، بكتفين متهدلتين في طرف الباحة وقد تعمقت تجاعيده. تفلتني أمي، ولا يقول شيئاً وهو يمضي. يلبس معطفه البالي ويأخذ مسحاته. تناديه أمي؛ "لو تشرب الشاي". يهز رأسه؛ "لا أريد". ويخرج.

في المساء، حين يرجع يفتح كيساً فيه برتقال. يناولني برتقالة، ويناول شيماء التي تأتيه راكضة برتقالة، ويناول أمي برتقالة. على وجهه هدوء غريب ولا يتكلم.

كيف لدمعتي أن تبارح طفولتي؟ وكيف لأمي أن تخرج من دمعتي؟ وهل بمقدور الرواية/ روايتي أن تقيلني من عثرتي الدامعة؟

في ذروة الحرب ماتت أمي وتزوجت شيماء، وحين انتهت رحل خالد فألفيت حياتي وقد استحالت إلى عطالة وفراغ ولا جدوى. لم أكن أعرف ماذا يمكنني أن أفعل في بلدتي الصغيرة. لو تعلمين يا كلوديا كم أحب تلك البلدة؟ بيوتها الطينية العتيقة. شوارعها المظللة بالنخيل والكالبتوس. عصافيرها الصاخبة في الفجر. زرازيرها وهي تهبط بحركة مروحية ضاجة لتختفي في أشجار البساتين عند الغروب. ماء نهرها الطائش في الشتاء. مقاهيها اللاغية حتى انبلاج الصبح. شيوخها بصلابتهم وعجرفتهم. رجالها بعنفهم اللامسوّغ ووقاحتهم، وطيبتهم التي تطفح عند الطلب. أطفالها الذين يقذفون رؤوس النخيل بالحجارة علّ طيراً يسقط منها أو حبة تمر. صباياها اللواتي ينضجن قبل الأوان. نساؤها المغرمات بالنميمة والبكاء. عجائزها وهن يفصحن عن شبق غائب ويشتمن ببذاءة. أحلامها وهي تينع في رؤوس شبابها قبل أن تذهب مع الريح. مدينة بنكهة النعناع والبرتقال. تؤمها اللقالق والزاغ والكراكي.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ولا يهز سكونها إلاّ الموت والفضائح. مدينة لا تنسى الخطايا، ولا تغفر، وتنكر أبناءها إن غادروها، وتحتضنهم إنْ رجعوا ثانية، وتبحث من أجل الخروج من رتابتها عن قرابين.

كنت مصاباً بوسواس العطالة. عاطل عن العمل. عاطل عن الحب، والأمل. عاطل حد البلادة، عاطل عن فعل أي شيء يمنحني إحساساً بالرحابة والأمان، ويعتقني من السجن. السجن فيّ.. في داخلي، في داخل نفسي.. في عقلي.. منفي وأنا في بيتي ومدينتي، بين أقرب الناس إليّ في هذا العالم ـ أختي وأولادها ـ غير أن خالداً غادر وتركني من غير معين أو مؤونة.. ماجستير اللغة الإنجليزية لم يفدني في الحصول على عمل لائق. أشعر وكأنني نفاية زائدة في هذا البلد الذي يبدو أنه لا يرغب بأمثالي. اقترحت أن أعمل في البناء، أحمل الطابوق والجص والأسمنت. أصعد السلم الخشبي وعلى كتفي صحن الجص أو الأسمنت، أو أناول الطابوق لبنّاء كهل، وأعود في آخر النهار بتعب ينخر الروح، وبضعة دنانير لا تعني شيئاً في سوق الحصار الاقتصادي.. على الأقل سيشعرني هذا ببعض الراحة، لأنني أبني.. أبني في زمن الخراب الكاسح.. بكت شيماء، وقال حسن ـ زوجها ـ "الله كريم". وعلى باب الكريم كنت مع ملايين غيري في الانتظار. انتظار من، وماذا؟ انتظار غودو الذي لن يأتي أبداً. وشيماء تقتطع من خبز أبنائها دنانير معدودة تدسها في جيبي؛ "لا تبتئس، الله

كريم". والإحصائيات الرسمية تقول أن نصف مليون مواطن قضوا بسبب نقص الغذاء والدواء، والله كريم. كلنا على باب الكريم.. تقول أم خالد؛ "بابه الواسع، الهائل الكبر، المرصع بالياقوت والحناء، هو الباب الذي لا يفتح إلاّ بالدعاء الوفير. الباب المحروس بألف ألف من الملائكة مسومين". "يحرسونه مِن من؟".. "من الشيطان يا ولدي".. "وهل قوة الشيطان معادلة لقوة الله كي يستعين بالحراس؟". تحتار أم خالد.. تقول؛ لا، لا، ليس الأمر هكذا". والحاج صالح رجل الدين العتيق، الرابض على مشارف التسعين أو المائة.. التقيه في بيت أحد أقربائي الأبعدين. قريبي ذاك كان يحتضر، ويقرأ الحاج القرآن قرب رأسه، ثم يتحدث عن الجنة والجحيم والحراس.. أسأله عن الحراس، يرد؛ "إنهم جند الله، يستعين بهم سبحانه".. "ضد من؟". "ضد الشر".. "وهل الشر يكافئ"... يدير الحاج صالح رأسه بامتعاض.. "اسمح لي يا حاج".. أقوم وأخرج من بيت قريبي البعيد الذي يحتضر.. الله كريم.

* * *

قررت أن أغادر إلى بغداد، ولم أكن أعرف، أيضاً، ماذا يمكنني أن أفعل هناك. حملت رسالة خاصة من رجل متنفذ يكنّى بأبي قحطان، إلى آخر اسمه ماهود؛ صاحب متجر وخان في الشورجة القديمة، وتلك هي مركز التجارة الأهم في العاصمة.

خطوت داخل المحل الذي أحمل عنوانه، ووقفت بين أكياس المواد الجافة، الحريفة الرائحة. كان جالساً وحده، بلحيته الخفيفة المشذبة، المصبوغة بالحناء، يخفي كهولة العقد السادس من العمر بنضارة مصدرها، لا شك، التغذية الجيدة والمتع التي لا إفراط فيها، ومسحة اللا أبالية إزاء القدر، وربما شيء من السخرية كذلك. السخرية التي تعين في مراوغة مأساة الوجود.. قال ببرود، وهو يطقطق حبات مسبحته ذات الخرزات الصفر الكبيرات؛ "تفضل".. أعطيته الرسالة.. وهو يقرأها كانت ملامحه تنشرح، وتومض على شفتيه ابتسامة؛ "استرح"، أجلسُ.. "شكراً".. جئتَ لتشتغل؟. "نعم".. "ماجستير؟".. "نعم".

بقيت أحدق فيه وأنا أسحق شعوراً بالتوجس؛ "وماذا تريد أن تشتغل؟". "ماذا تعرض عليّ؟". "الخان".. وأشار إلى باب صغير، إلى جانبه.. "حمّال؟".. ضحك بصخب، وقال؛ "ولم لا؟ أحياناً"..

ـ أنا موافق.

باب صغير لا يكاد يلفت الانتباه. تنحني لتدلف من خلاله، وإذا بك في مكان غريب كأنه لا ينتمي إلى هذا القرن على الرغم من وجود رافعة وعربة آلية وأجهزة تكييف. قال السيد ماهود؛ "هنا ستبقى ساعات طويلة، مهمتك الوحيدة أن تحسب، أن تبقى يقظاً لكي تحسب بدقة. الكيس الواحد يعني آلاف الدنانير، وعشرات آلاف الدنانير".

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

بصري يتنقل بين الأعمدة الدائرية والسقوف المسودة والجدران الرطبة والأبواب الجانبية، وتلال الصناديق والأكياس، ومن ثم الباب العملاق الذي ينفتح على شارع فرعي لتدخل منه البضائع وتخرج؛ "وظيفتك هي أن تراقب. تراقب العمال والبضائع. أنت المحاسب والمسؤول، أو أنت المدير هنا".. "هكذا مرة واحدة". "من يزكّيه أبو قحطان لا تليق به وظيفة أدنى".. "أشكر ثقتك".. "المهم أن ترسِّخها".

كما لو أنه أُسقط في يدي. كما لو أنه منفى اخترته بمزاجي. لا رغبة لي في الكلام. لا رغبة لي في النساء. لا رغبة لي في الخروج. أراقب الدبيب العجيب، في هذا الركن السري المعتم من بغداد. بضاعة بأصناف أعرفها، وأخرى لا أعرفها. لبعضها أسماء أليفة، ولبعضها أسماء غريبة، وأكاد أقول مريبة. أود لو أسأل عنها، لكني لا أسأل.. أقول؛ ما الفائدة؟ ما الفائدة إذا كانت السمكة خائسة من رأسها؟ تدخل البضائع وتخرج، من باب آخر كبير ينفتح على زقاق جانبي. بضائع يحملها رجال ونساء. عمال في التعب يثرثرون. يلهثون ويشتم بعضهم بعضاً، وأنا أحصي وأسجل. كأن هوّة بيني وبينهم.. كأنني من كوكب غير الأرض. أتطلع إليهم بنصف فضول ونصف مبالاة.. أحصي وأسجل. امرأة تسوّي صناديق صغيرة. صناديق مشمش جاف. تدندن بأغنية ملولة، وتعرض لا مكترثة، أو مكترثة، وهي تنحني، صدرها، ولا أهتم.. وأمي، صبيحة عيد أضحى

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

بعيد طبخت لنا مشمشاً جافاً وأرزاً، وكنا أنا وشيماء تحت ضغط الدهشة والتشهي. نتقافز ونلح. تقول أمي؛ "اصبروا ريثما يأتي أبوكما من صلاة العيد".

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلاّ الله، والله أكبر.. الله أكبر ولله الحمد.. ورائحة المشمش الجاف والأرز تملأ خياشيمنا الرهيفة فنضطرب ونلح. ويجيء أبي من صلاة العيد. نقبّل يده ونجلس إلى صينية الطعام مأخوذين برائحة المشمش الجاف والأرز صبيحة العيد. المرأة تدندن كاشفة ثدييها المتهدلين بحلمتيهما الدكناوين، وأنا لا رغبة لي في النساء. أرحل إلى صبيحة عيد أضحى بعيد نأكل المشمش الجاف والأرز. يقول أبي؛ "لا يكون العيد عيداً بلا صلاة، ولا يكون بلا مشمش جاف وأرز في الفطور". يعطيني درهماً، ويعطي شيماء نصف درهم، ونلبس دشاديشنا الجديدة ونخرج إلى ساحة الأراجيح.. المرأة تعرض لي نفسها. الشهوة في عينيها. أفكر أن أقول، لكن لا رغبة لي في الكلام.. يلكزني ماهود في جنبي؛

ـ ما لك؟

ـ سلامتك.

ـ ما لك؟ أتريد أن ترتاح.

ـ لا، أريد أن أبقى.

المرأة تكف عن الدندنة وتتوارى.. يقول ماهود؛

ـ ألك حاجة إلى شيء؟

ـ أبداً.

ـ كأنك تستحي.

ـ فقط، لا حاجة لدي.

ـ أبو قحطان يقول عنك أشياء حلوة.

ـ لا أدري، أشعر بالقرف.

ـ لا تنظر إلى الدنيا بجدية زائدة. أضحك عليها.

ـ أتمنى لو أستطيع.

يضحك السيد ماهود واضعاً يده على كتفي، يقول؛

ـ الليلة، أنت ضيفي.. سنخرج ونتونس.

أقول في سري؛ وماذا سأخسر؟ أقول له؛

ـ حسناً..

من غير أن أسأل؛ أين، وعمّا سيفاجئني به. وأظنه خمّن ما أفكر به.. قال؛

ـ مكان جيد.. سنشرب وندردش.. وحدنا، مع الدلافين!.

ابتسمت وقلت؛ كما ترغب.

أخذني ماهود إلى ملهى الدلافين.. بدا بلحيته المخضبة بالحناء، والمسبحة الكهرب تطقطق بين أصابعه، وعلى كتفه عباءته القهوائية مثل

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

شيخ قبيلة بدوية مهابة.. أخذني إلى ساعات من الضياع الفاحش، من الخبل وعواء الجسد إذ تترك مويجات الشهوة زبداً حارقاً في خلاياك يسلبك مع كأسين من الويسكي العقل والإرادة والنقود. وأنا ما كنت أحمل نقوداً، غير أن ماهود كان ينثرها بإسراف عجيب، وكن يعرفنه. مرعى من اللحم الأبيض والأسمر والحنطي. دلافين بشرية. يحس المرء وكأنه خرج من تقويمه وبراءته القروية وموته اليومي إلى تخوم الحلم. في البدء يضايقني الدخان والألوان والعطور وصوت مطرب لا يسمعه أحد يغني، والوجوه التي لا تشبه الوجوه، غير أن استدراكاً بسيطاً من ماهود ينتشلني.. تقبل بغتة امرأة تجلس إلى جانبه، وتتنزل أخرى تجلس إلى جانبي، وتدور الكؤوس والرؤوس والغمزات واللمزات والكلام التافه السخيف. وطوال الوقت تقتلني بقية من الخجل القديم وأنا ألتهب.. وبعد ساعتين عدنا مع المرأتين إلى الخان.

فتح لنا الحارس الكهل "علوان" الباب الكبير ولم يتفاجأ. كان بانتظارنا على ما يبدو. في الغرفة التي تتسرب إليها روائح الصابون الرقي والزيوت والتوابل والرز العنبر كنا أنصاف سكارى.. قال ماهود؛ "لنتعر جميعاً"، فتعرينا.. في تلك اللحظة لم يدهشني عري المرأتين بقدر ما أدهشني عري ماهود. بطنه الكبيرة، وثدياه المتهدلان، وشعر صدره ورجليه وعانته الحليقة، وأشياؤه كلها التي انكشفت دفعة واحدة، متخلياً

أمامي عن وقاره واستعلائه وسطوته. في تلك اللحظة ـ لا أدري لِمْ؟ ـ تذكرت خالداً.. قلت؛ لو كان بيننا لناسبه الموقف هذا، ولتعرى مثلما فعلنا بإصرار أشد، وقناعة أعلى، وهوس أعمق.. في تلك الغرفة التي يصلي فيها فعل ماهود أفاعيل مدوخة. ويبدو أن المرأتين كانتا تعرفان ماذا يريد. كان عفريتاً ماجناً يخفي في خلاياه وبين أعطافه خزيناً مهولاً من الشبق والفساد. أما أنا، وبعد عدة كؤوس، لا أدري كم، من الويسكي، وبعد محاولتين مع المرأتين تحت سمع وبصر ماهود انقلبت أحشائي ورحت أتقيأ حتى أحسستني على وشك الإغماء أو الموت.

* * *

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

حنان تُثملني بنكهة الجنوب وترحل

"ها أنت تذبل" قال لي. وكان ملحاحاً وصارماً وهو يعطيني إجازة إجبارية ليوم واحد كي أخرج فيه إلى شوارع بغداد؛ "روح شوف الناس، العالم".

حلقت ذقني، واستحممت وارتديت أفضل ما عندي من ملابس وخرجت. ولو لم يكن ملحاحاً وصارماً. لو لم يعطني إجازة في ذلك اليوم.. في تلك الساعة، ويدفعني للخروج، ولو لم أتخذ اتجاه الباب الشرقي. لو لم أقف لدقيقة عند بائع السجائر، ولو لم تخترني أنا لتسألني عن السيارات الذاهبة إلى حي البياع لربما لم أكن قد عرفت امرأة اسمها حنان، ولربما ما كنت اقتنعت بالسفر إلى ليبيا، ولربما لم أكن لألتقيك قط يا كلوديا!!. وعندئذ لن تكون هذه الرواية أبداً.

غير أن ما حدث هو أن ماهود منحني إجازة في ذلك اليوم، وقال لي؛ "اخرج". وأنني حين خرجت لم أتخذ اتجاه الباب المعظم، بل سرت في الاتجاه الآخر، نحو الباب الشرقي. ومن هناك استدرت نحو سينما غرناطة.. تفرجت على صور الفلم المعروض. فيلم فرنسي قديم من بطولة

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

جان بول بلامندو، يقول الإعلان أنه سيعرض في الواحدة بعد الظهر، وكانت الساعة هي الحادية عشرة إلاّ ربعاً. واصلت المشي، بقرار اعتباطي، نحو ساحة الطيران. وفي ساحة الطيران، في ذروة ساعات الزحام، وقفت عند بائع السجائر، وكانت حنان هناك، تريد أن تذهب إلى بيت عمتها في حي البياع، ولا تدري أين هو موقف سيارات الباص.

نظرت حولها، وكان ثمة مئات وآلاف من البشر، غير أنها لسبب لا يعرفه إلاّ الله سألتني أنا؛ "رجاءً، أين سيارات البياع".

وأقول لك يا كلوديا؛ لو لم تخطر في بالي تلك الفكرة الغريبة، في تلك اللحظة أن أذهب أنا أيضاً إلى البياع لما حصل ما حصل. ولما كنت أنا الآن/ هنا، في هذه الشقة، أثرثر معك. بيد أنني قلت لها بتلقائية؛ انتظري، أنا أيضاً ذاهب إلى البياع.

في الباص، وهي جالسة إلى جانبي عرفت أنها من الديوانية. تخرجت في ضمن الدفعة الأخيرة في جامعة البصرة، وهي الآن في بغداد، تراجع وزارة التربية لتتعين مدرِّسة في مدينتها. وقد قالوا لها؛ تعالي في الأسبوع المقبل.. قالت؛

ـ لن أعود إلى الديوانية.. سأنتظر أسبوعاً.

قلت لها؛

ـ إن احتجت إلى أي شيء اتصلي بي.

وأعطيتها رقم هاتف مكتب ماهود.

ـ اسمي سامر.. ما اسمك؟

ـ حنان.

ـ طيب حنان، أوصلتك، وعليّ أن أبقى في الباص لأعود.

حدجتني بذهول فاتن، وابتسمت وهي تنزل.. هكذا، هكذا.. هكذا يا كلوديا، بهذه المصادفة المحضة تغير المسار، وتغير كل شيء.

* * *

كأنني جئت لأتحرى. كأنني جئت لأكشف وأكتشف. وقطعاً أنا ملغوم بأسئلة لا تعد. أسئلة تتناسل وتفرض سطوتها. تحيّر وتربك، لكن ما ستعجبين له هو أنني، في نهاية المطاف، ربما أبغي النسيان. أن أدخل ذاكرة الورق والحاسوب. أن أدخل ذاكرة كل رجل، وكل امرأة، وكل جيل، وأن أنسى.. أن تحضر الرواية وأن أتوارى أنا. وسؤالي الآن يا كلوديا هو؛ أين تنتهي لعبة القدر الماكرة، وأين يبدأ فعل الإنسان؟ فمنذ ماتت حنان، ومات خالد غدا الوجود أشد غموضاً، وانهالت الأسئلة؛ (ما الحب؟ ما الحياة؟ ما الإنسان؟ ما الموت؟ وأيضاً، ما العمل؟ على أية هاوية نقف نحن معشر البشر؟ ما هذا الذي يجمعنا، وما ذاك الذي يفرقنا؟ وكم هي مسافة الأوهام في هذا كله؟ ولماذا نحزن ونتألم إذا كان كل ما فينا وحولنا

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

صائر إلى التبدد والعدم؟ ولماذا هذا التشبث العنيد والبطولي بالحياة على الرغم من كل شيء؟

اتصلت حنان.. صاح ماهود؛

ـ سامر، تلفون.

وكان صوتها هو ما تناهى إليّ بدفئه وعذوبته، ونكهة الأنثى العالية التي تحملها نبرته.. عرفتها قبل أن أسألها من تكون.

ـ هذه أنا، أستاذ سامر.

ـ سامر.. قولي سامر يا حنان.

قام ماهود وغادر ليتركني معها، مع صوتها.. اتفقنا على موعد ساعة العصر. في ذلك اللقاء سألتها إنْ كانت عرفت الحب يوماً.

ـ نعم.

قالت.. كان صدقها ساحراً. أمسكتُ يدها. رأيت الحزن بعينيها مطراً هادئاً يهمي على بساتين الليل، وأصابعها كما لو أنها أجنحة غضة تتوجس من تجربة الطيران الأولى.

ـ وأين هو الآن؟

لم تجبني.

ـ لم يخنك بالتأكيد.

ـ لا.. وكيف عرفت؟

ـ لا أحد يخون امرأة مثلك.

ابتسمت بأسى.

ـ قُتل في الحرب، استشهد.. كنا مخطوبين.

ـ في الحرب مع إيران؟

ـ في الكويت.

* * *

قريباً من تمثال أبي نؤاس، تحت شجرة أثل، على حافة الممر الكونكريتي، نجلس أنا وحنان، والشمس تتحدر خلف ظهرينا.. تسقط في الفخ، حيث يشخص القصر الرئاسي.. تقول لي؛

ـ أخشى النظر إلى الجانب الآخر.

ـ وما شأنك بالجانب الآخر؟

السيارات تمرق سريعة.. يمر رجل يتفرس فينا. أتوجس، بيد أنني لا أفصح عمّا أفكر فيه.. تسأل حنان؛

ـ أهو منهم؟

ـ لا عليك.

نصمت قليلا.. يبتعد الرجل.

ـ أتدري سامر، ما الصورة التي تستحوذ على ذهني كلما جئت بغداد؟

ـ أمممم؟!

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ أراني أسير في شارع ما، الزحام فيه ليس كبيراً، ولكن هناك بشر يمشون.. فجأة تتوقف سيارة إلى جانبي، ينزل منها شخص ضخم، يمسكني من ياقتي، يشيلني ويحطني في السيارة التي سرعان ما تنطلق، أتدري إلى أين؟

ـ بالله عليك حنان، كفى.

ـ إلى القصر، قصرهم.

أضحكُ.. ضحكي متكلف، متشنج.

ـ والبشر الذين يمشون في الشارع. ما رد فعلهم؟

ـ لا أحد يتدخل، لا أحد. سيقولون مسكينة، أو تستأهل، قد تكون خائنة أو جاسوسة أو شيوعية، ليبرروا جبنهم. سيكتفون بالتفرج.

ألتفتُ للحظة. يستغرقني غموض الضفة الثانية. احمرار الغروب يوشح البنايات بين الأشجار، وأشباح العساكر يمرقون إلى جانب الجدران العالية، وزورق سريع يستدير فجأة فتنبثق شظايا الماء مثل نافورة من دم.

ـ هل أحدثك عن أبي نؤاس.. هناك من يقول أنه لم يدخل قط قصر هارون الرشيد، ولم يقل تلك القصائد في حضرة الخليفة.

ـ تاريخ ملتبس.

ـ ما زال ملتبساً. حتى هذا الذي يحدث الآن ملتبس وشائك يا حنان.

ـ من ينقذنا؟

ـ نحن.

تضحك.

ـ كم نتقن الكلام.

ـ الكلام ما نحن عليه، وقد يقودنا إلى الخلاص.

ـ أو إلى الهلاك، أو الجنون.

ـ إنْ صمتنا سنجن.

ـ هذا صحيح أيضاً.

يعود الرجل المريب ثانية، يتفرس فينا.. أقول؛

ـ لنترك المكان.

ـ لنبق.

تصر حنان.

ـ هم، لا يحبون المزاح.

ـ ومن قال؛ إننا نمزح.

أقوم.

ـ قومي حنان.

تقوم مذعنة.

ـ لو لم نخف، لو لم يكن هناك الخوف.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

نترك المكان، نقطع ممراً إلى شارع السعدون، تحملنا طمأنينة الزحام نحو ساحة النصر.

تتخطى حنان مخاوفها بالإمعان في المواجهة المخيفة. إنها بدل أن تهرب مما يخيفها تهرب إلى ما يخيفها علّها تتحرر منه.. قالت لي ذات مرة؛

ـ أن تعيش الخوف في كل يوم، وفي كل ساعة.. جرعات زائدة من الخوف.

ـ وماذا يحصل حينئذ؟

ـ تصل إلى حد الملل منه، والاستخفاف به. تصبح شخصاً لا يخاف.

في ساحة النصر زحام أليف. ها نحن نذوب بين الناس، بعيداً عن العيون المترصدة، وأفكر للحظة بفزع؛ أن تقف سيارة لاندروفر، ذلك النوع الذي يستخدمونه في الاعتقالات، في عرض الشارع، ينزل منها ثلاثة رجال، يدفعوننا إلى جوف السيارة، يشدون أعيننا ويمضون بنا، ولا أحد يتدخل، لا أحد. سيكتفون بالتفرج مثلما قالت حنان.. لو كنت مكانهم لاكتفيت بالتفرج مثلهم، إذ ماذا بوسعي أن أفعل غير ذلك.. أُقصي هذا الخاطر، أو أحاول إقصاءه. نسير الهوينى تحت مئات يافطات الأطباء. يصيح بائع الشلغم الواقف مع عربته على الرصيف.

ـ عسل، يا عسل.

ـ أظنه يقصدك.

تضحك حنان.

ـ وماذا في ذلك؟

أشتري من شاب سوداني لفافتي فستق ساخن. نأكل بعض الحبات منها. أخفي لفافتي في جيبي، وهي تخفي لفافتها في حقيبتها. بعد أن نترك حبات قليلة في أيدينا. تنبثق الشتائم أمامنا. جماعة تتشاجر عند مدخل أحد أزقة البتاوين "أبن القحبة.. أخ القحبة.. قواد.. أخت الـ ... الخ". نبتعد ونحن نقضم حبات الفستق.. يقول لي طفل في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، يجلس إلى صندوقه تحت شباك جامع الأورفلي؛

ـ عمّي تصبغ حذاءك.

ـ لا، عمّي.

نعبر الشارع من بين كشافات الضوء للسيارات المارقة، تمسكني حنان من ساعدي، أرفع رأسي نحو نصب الحرية الغارق في شبه العتمة، ترفع حنان رأسها.. تقول؛

ـ لا أحب هذا النصب.

ـ هو عمل كبير يا حنان، إبداع مذهل....

تقاطعني؛

ـ وما علاقة العسكر بالحرية؟

ـ ألا تؤمنين بالثورات؟

ـ لا أؤمن بشيء وسيلته القتل.

ـ حتى وإن كان الهدف هو الحرية؟

ـ أية حرية يا سامر؟ بعد هذا الموت كله، أين الحرية؟

ـ انظري حنان إلى ما أبدع ذلك العبقري جواد سليم.. الإبداع أيضاً طريق إلى الحرية.

محاذاة حديقة الأمة يفور الضجيج: صياح السائقين، وهدير محركات السيارات..

قلت لحنان؛

ـ الدنيا ليل، سأوصلك إلى البياع، ومن ثم أعود...

اعترضت، إلاّ أنني أفهمتها أنْ لا شغل لدي، ولن أطمئن حتى أراها تدخل بيت عمتها.. ولجنا جوف باص (الريم). عثرنا على مقعدين فارغين متجاورين فوق العجلات الخلفية، لا بأس. جلست حنان إلى النافذة، حاولت أن تفتحها ولم تفلح، وحاولتُ ولم أُفلحْ. طلبت من الرجل الجالس أمامنا فتح النافذة القريبة منه. فتحها ولم ينبس بكلمة. كان جو الباص خانقاً. لغط ودخان سجائر، ورائحة جوارب عفنة. صعد الباص كهل مخمور وهو يتمايل. تعثر بشيء ووقع على رجل يجلس إلى جانب امرأة لعلها زوجته. دفعه هذا فأمسك المخمور بياقته. صاح بعض الجالسين؛

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ عيب، صلوا على نبيكم.. يمعودين، قولوا يا الله.

الرجل المستفز حمل المخمور وألقاه خارج الباص، بينما وقفت امرأته تضع يدها على خدها ذاهلة. حاول الكهل المخمور الصعود ثانية غير أن أحدهم منعه بغلظة "لعله السائق" فجلس على حافة الرصيف وهو يشتم.. كان هو السائق الذي منع المخمور من الصعود، فها هو يجلس خلف المقود بعدما امتلأت المقاعد بالجالسين والممر بالواقفين، وبعدما راح سائق باص آخر يحث سائقنا بعصبية ظاهرة على الانطلاق. وبقي مساعد سائقنا يصيح والباص يتباطأ بين كتل السيارات والبشر المتزاحمة "بياع، علاوي، بياع"..

التف الباص حول نفق التحرير واتخذ مسار الشارع المحاذي لحديقة الأمة من الجانب الآخر لينعطف في ساحة الطيران باتجاه شارع الجمهورية. وليستدير ثانية عند ساحة الخلاني ويتسلق من ثم جسر السنك. أخرجنا ما تبقى في كيسي الفستق، ورحنا نقضم الحبات ونثرثر. كان جوف الباص لجة من اللغط.

تحدثني عن أبيها صاحب المتجر في سوق الديوانية، وأمها الطيبة حد السذاجة، وإخوتها الثلاثة (واحد مهندس وواحد يعمل في الأردن نجاراً، وواحد لم يكمل دراسته، استشهد هو الآخر في الحرب).. تحدثني عن

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

مازن خطيبها الراحل ـ كيف التقيا وهي ما تزال في السادس الإعدادي ـ خطبها ولم يوافق الأب في البدء، غير أنه أذعن بعد طول توسل وإصرار.

أقول لك كلوديا؛ ذلك الشاب الذي يحلم ويستعد لزواجه القريب قتل في أثناء الانسحاب. هناك الآلاف الذين قضوا في أثناء الانسحاب. كانوا يعتقدون أنهم نجوا لكن طائرات التحالف لاحقتهم وقتلت كثراً منهم. وتلك حكاية أخرى؛ تراجيديا أخرى.

في ذلك اليوم حدّثت حنان عن شيماء وخالد. عن دراستي في بغداد، وشهادة الماجستير التي حصلت عليها في الأدب الإنكليزي. عن عملي مع ماهود في متجره وخانه. عن شغفي بالقراءة. عن محاولاتي في الكتابة. عن حلمي في أن أنهي دراستي وأحصل على الدكتوراه، وأن أكتب رواية واحدة على الأقل.

بعدها تكررت لقاءاتنا. أخبروها في الوزارة؛ "ليس الآن، تعالي بعد أسبوعين". غادرتْ إلى الديوانية، وحين جاءت ثانية التقيتها، في هذه المرة مصادفة، أيضاً. مصادفة من تلك المصادفات اللامعقولة التي توحي وكأن يداً قدرية ترسم بدقة خريطة جديدة لمصيرك. كانت هي عائدة من الوزارة، وكنت خارجاً لشراء بعض الحاجيات من الكرادة، وقد ألفيتها، وقت الظهيرة، في ساحة الطيران قبالتي.

***

ظهيرة فاضحة تأتي بحنان.. ظهيرة انفلتت من غيوم كانون، وسواد المطر وارتحلت بالزرقة. تقبل حنان في بذخ الضوء وتبجح الهواء، وهي تضحك، كأنها تعزز ألقها ضد الخجل، وتحتمي من ارتباكها باللمعان الدامع والتأنق الوفير، وتريد أن تقول ولا تقول، وأفكر أن أصمت لكني أقول بأني خرجت لأحلم بها.

على هامش الزحمة واللغط ودمدمة المركبات نجلس.. أول مقعد عابر، في حديقة الأمة، يتشرب توترنا.. "كيف أنتِ؟".. "كيف أنت؟".. "متى جئت؟".. "أمس".. "ولم تتصلي".. "قلت غداً سأكون مستعدة أكثر".. "مستعدة؟".. "مشتاقة".. "أنا سأطير".

أشياؤنا تتناغم، وانفعالنا يستكين. نتوقف عن الكلام، ونستأنف الأسى، ونستسلم لكثافة حضور بعضنا إلى جانب بعض.

إلى مَ أفضي بهذا الشرود الصاحي؟ بهذا التنصل من طغيان هذه الفاصلة من الزمن؟ معلّقاً أراني بين ما انقضى فصار عصيّاً، وبين ما يكون، وقد لفّه الضباب.. وحدها حنان كائنة في الحقيقة، ووحدها اللحظة شاهدة على وهم ما عدانا، والأسئلة نؤجلها لنستريح في الآن.. لا شيء معقول سوى أنها قريبة قرباً رائعاً، ومبذولة كالموسيقى من أجل الروح. وبغداد تدخل في الإيقاع اللذيذ مرة أخرى. تكف عن دورة السأم والفراغ، وتخرج مما هو

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

طبيعي إلى ما وراءه. فمع حنان تؤشر مداها وتصونه، وحنان تكرر؛ كيف أنت؟

كيف أنا؟ سأعترف لها، ولكن بعد حين. أريد للساعة، المتأرجحة، هذه، التشبّع والكمال. أريد لها الفضاء كله، والزمن الراكد المطمئن العجيب. وحنان ما تزال، وأنا ما أزال في فسحة أنفاسها، في مجال رفيف العذوبة التي ترسلُ لتؤكدني، لتعلنني رجلاً تلبّس نور العالم.

في ربيع ذلك العام كان شريط الظلمة يتمزق، ويتسع مدار البنفسج، وتتجمع النجوم في سلّة بين أناملها. تذهب إلى الديوان□ة فأعود إلى شوارع لهفتي، وتأتي إلى بغداد فأروح لأودع خباياي في مساء عينيها..... وذات موعد:

أصعد حافلة تعج بطالبات الجامعة. تأخذني كركراتهن إلى الإيقاع الشجي في صوت حنان. إلى ليل الجنوب في نظرتها الرهيفة. إلى عسل الوعود في ضحكتها. إلى سحرها وهي تصعد مع الثواني الوئيدة نحو ساعة موعدي معها. تتطلع إلى انحدار الشارع وانحناءات الآس. قد ينزل. قد أنزل أنا من الحافلة القادمة. أخالها؛ يضطرب الوجيب بين أضلعها، فأنزل. لكنها في تلك المرة لفّقت ابتسامة باهتة وبضع كلمات؛

ـ ياه، كم اشتقت إليك.

***

لمحت ذلك الظل الكسير في عينيها، وصفرة وجهها التي لم تفلح ريح الربيع وشمسه في مواراتها.. قلت؛ لم أنت ذابلة هكذا؟

قالت؛ أشعر بدوخة.. تعب الطريق.

كانت قادمة لتوّها من الديوانية.. في اليوم التالي أقنعتها أن نذهب إلى المستشفى. فحصتها طبيبة عانس. لا أدري لم ظننتها عانساً. وبعد تحليل الدم، طلبت تحليلاً آخر وأشعة قبل أن تنزوي بي؛

ـ (شتصير منك؟).

لم أرد أن أكذب.. قلت؛ "صديقتي".

قالت؛ "لن أُخفي عليك، أنا آسفة".

فجأة، تحطم شيء ما، جد نادر، وجد ثمين، وإلى الأبد.. قلت، والغصة في حلقي؛

ـ خير، دكتورة؟

ـ ورم خبيث.

ـ لا!!!.

ـ هي من أين؟

ـ من الديوانية.

ـ من الجنوب إذن، الجو هناك ملوث. لا شك تدري، اليورانيوم المنضّب وغيره.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

حين خرجنا بقيت صامتاً، واجماً، وكانت تلح؛

ـ قل لي.. ماذا قالت الطبيبة؟

ـ ليس هناك ما يقلق.

ـ لست مطمئنة، عيناك تقولان شيئاً آخر، لِمَ أخبرتك أنت ولم تخبرني؟ قل لي؛ مرض خطير؟ خبيث؟

وكذبت.. كان عليّ أن أكذب.

ـ لا، لا.. تحتاجين إلى علاج قد يطول، ولكنه ليس خطيراً.. لا شيء.

هزت رأسها وأمسكتني من يدي، ووقفت.

ـ هو شيء خطير، أليس كذلك؟

ثم راحت تلهث.

ـ سرطان.. سرطان، سامر؟ سرطان؟

منذ ذلك اليوم سرى السرطان في جسم الكون. في الوعي والمشاعر والأفكار. منذ ذلك اليوم رأيتني أشيّع الموسيقى والألوان والحب وشذا الحياة إلى المثوى الأخير.. أتعرفين يا كلوديا، ما معنى أن تموت حنان؟

ذهبنا إلى طبيب آخر، أرسلنا إلى محلل قال؛ إنه يشك.. قال الطبيب؛ حسناً تأكدوا..

وتأكدنا.. كانت حنان على شرفة الموت. تطل على البحر العظيم بعينين ملؤهما الغموض، وشفاه متيبسة.. قال الطبيب؛ إن المرض زحف فيها

عميقاً إلى نقطة اللارجاء.. حسناً، قلت؛ ما أتفه كل شيء إذا كانت حنان تموت. إذا كانت امرأة مثل حنان تموت؟

* * *

يومان مرّا ولم تتصل بي. يومان ثقيلان رحت خلالهما أجوب شوارع بغداد على غير هدى، وأقف طويلاً على الجسور. أراقب الماء العكر الدافق في دجلة، والقوارب القليلة العابرة وطيور الغاق، مأخوذاً بالجزع، وبالنحيب القارض المكتوم في أحشائي. وأحياناً حين يصل نفاد الصبر بي إلى حافة اليأس أركل حصاة في طريقي، أو ألكم الحديد الأخضر لدرابزين الجسر أو الأعمدة وأشتم. وبين ساعة وأخرى أمرُّ بمتجر ماهود. وكنت قد أخبرته بكل شيء عن علاقتي بحنان.. أحدجه فيحدق بي للحظة كأنه لا يعرفني، ثم يهز رأسه بابتسامة مشفقة.

ـ لا، لم تتصل.

أرجع إلى الخان وأفكر. ربما عادت إلى الديوانية، وأصرخ في داخلي؛ لا، ليس من حقها. لا بد أن تعلمني. عليها أن تستشيرني، وإذ ذاك لن أوافق.

في اليوم الثالث جاءني ماهود بنفسه إلى الخان؛

ـ تعال، حنان على التلفون.

قبّلته من رأسه واندفعت عبر الباب الصغير نحو مكتبه في زاوية المتجر.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

كان موعدنا العصر.. على غير توقع أقبلت باسمة، وعرفت أنها استعادت رباطة جأشها.. ضغطت على أصابعي.

ـ أنا آسفة.. جاء أبي.. هاتفته فجاء.. لم أخبره طبعاً.. قلت أنا مريضة وبحاجة إلى أسبوعي علاج في بغداد، سأمضي معك أسبوعين.

بدت مرحة أو كانت تفتعل المرح، ونحن نسير في شارع الكرادة. قذفت بحقيبتها إلى أعلى وتلقفتها برشاقة وهي تضحك، ثم دارت حول نفسها.. تنبه المارّة. أثارت مرح شابين فعلقا بكلام مازح، وبعض النظرات كانت مستنكرة فشعرتُ بالإحراج.

مررنا بشرطي مرور كهل. سألته إنْ كان عبور الشارع من هذا المكان ممنوعاً. قال؛ "نعم، ممنوع".. قالت؛ "إذن سنعبر من المكان الممنوع".. وأمسكتني من يدي وهي تلوّح له. ابتسم الشرطي وقال؛ "للحلوات، ليس ممنوعاً".

دخلنا كافتريا. صفقت للنادل ونحن نجلس. أقبل مبتسماً. قالت لي؛ "ماذا تشرب حبيبي؟".

طلبتُ فنجان قهوة، وطلبت هي عصيراً. سألتني بابتهاج؛ "ها، كيف الحال؟". قلت؛ "أنا سعيد، فرحي لا يوصف". قالت؛ "أعرف كيف كنت تشعر خلال اليومين الماضيين، لا شك أنك (دردمت) كثيراً".. ضحكتُ؛ "رائعة حنان".

وجعلتْ تتكلم لتُخرجني إلى أفق الدهشة في عينيها. إلى فتنتها الخمرية وهي تشاكس ظل الشحوب. إلى روحها السكرى وهي ترتعش بالندى والعبير.

كسرت حنان في لحظة قشرة الوهم عن دخيلة الأنثى، وقالت ما لم تقله امرأة لرجل في موقف عشق.. ماذا أذكر مما قالت؟ ربما لا شيء سوى النبرة في هسيسها الحلو وعذوبتها. سوى أنفاسها وهي تثملني، وتعطيني امتياز الخفة كي أحلق عميقاً في السماوات. وسوى تلك الأغنية التي ترنمت بها بصوت خفيض أولاً فاسترعت به انتباه النُدل والعشاق من حولنا فعمَّ الصمت. ومعه راح صوتها يتجلى، ويعلو رويداً رويداً مثل موجة تنبثق من قلب البحر، وتتسارع حين تقترب من أجساد الناس على الساحل لترشقها برفق بارد.

كان صوت حنان يعبث بي، وربما بهم أيضاً. يلامس مدارنا المؤسي الملتاع ويغسلنا بالحزن. كانت حنان كأنها تبكي. كانت حنان تبكي، وبإبهامها النحيل الرشيق مسحت دمعة هاربة وضحكت، وصفّق الجميع. كانت حنان تناكد الموت بأغنية حب، وبالحرية ((أنا بعشق البحر.. أنا بعشق السماء)).

في اليوم التالي ذهبنا إلى مدينة الألعاب. صعدنا سيارة صغيرة، انحشرنا فيها معاً، وأصرّت أن تقود هي. في الساحة الدائرية لاحقت سيارات

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

الآخرين وأخذت تصدمها بعنف، وكانت تصرخ وتقهقه. سرت العدوى فيهم جميعاً فبدأوا يصدمون بعضهم بعضاً. يصرخون ويقهقهون. في تلك الفوضى كان جسدها لصق جسدي.. كنت أشعر بدفئها يتسرب إليَّ، ويجعلني منتشياً. أصرخ وأقهقه. وتنبهت إلى يديَّ تحيط بخصرها وتضغط، حتى إذا تركنا الساحة قالت؛ "وقح".. "ماذا؟".. "ظننتك ستقبِّلني".. قلت؛ "كدت أفعلها".. قالت؛ "وما الذي منعك؟".. قلت؛ "هذا لا يجوز أمام الناس".. قالت؛ "خوّاف".

بعنادها سحبتني من يدي إلى لعبة عربة الموت. اعترضت من دون جدوى. جلست إلى جانبي وهي تضحك، وأطلقت صرخة أولى على طريقة الهنود الحمر حتى قبل أن تتحرك العربة. لمحت حمرة خفيفة على خديها منحتني شعوراً بانشراح محبط. وكان عليَّ أن أجاريها في مرحها إذ تبحث روحها عن مسارب لم تألفها، وتتغيا فضاءً آخر.. قالت؛ هذه المرة لا تشبكني أنت، سأشبكك أنا. وأحاطت خصري بيدها الطويلة، الرشيقة وشدتني إليها.. صعدت العربة، ثم سارت الهوينى قبل أن يتلقفها المنحدر الأول فأطلقت حنان صرخة أخرى لم يكن فيها أثر للخوف. كانت حنان مهتاجة، تضحك وتعيط.

ـ أتحداك إن فعلتها الآن.

ـ ماذا؟

ـ قبّلني.

أكانت تفتعل الابتهاج، أم أنها وجدت حريتها أخيراً على حواف العدم؟ أم تراها كانت في حالة اختبار لذاتها، في هذه الفوضى الصعبة بين الحب والحرية والموت؟ وفي حركة طيش وقفتْ، وشرعت تصفق فتولاني الرعب.. أمسكت بها من ساقها، في اللحظة التي كانت العربة تهم بالانحدار بزاوية شبه شاقولية، وأجلستها.

ـ ماذا تفعلين؟ أي خبل هذا؟

ومشيت أمامها غاضباً ونحن نغادر، وهي ورائي، تحاول اللحاق بي لاهثة.

ـ آسفة سامر، ما كنت أقصد شيئاً.

فصحت بها وأنا أحدق فيها.

ـ حرام عليك.. حرام.

أسنانها تصطك، وشفتاها ترتعشان، وفي عينيها خمد البريق.

ـ حنان، حياتي. أمعقول ما فعلت؟

ـ كنت فرحانة فقط، فرحانة لأنك معي.

قبضت على كرة كتفها، وأرغمتها على أن تقسم لي ألاّ تكرر مثل هذه الحماقات.. ((قولي؛ والعبّاس)).

هزت رأسها وهي تحاول الابتسام.

رغبت أن نذهب إلى الكاظمية. تسكعنا في سوقها، وفي بعض دروبها القديمة. أكلنا شطائر في مطعم شعبي، وشربنا عصير زبيب. وفي منعطف زقاق أوقفنا عربة ربل. صعدت وهي تكركر مثل طفلة.. بعد شارعين انحصرنا بين السيارات وداهمنا اللغط والأبواق والروائح واضطررنا إلى النزول. كانت المنائر الذهبية أمامنا. اقترحت عليها أن ندخل لنزور ضريح الإمامين. لبثت للحظة كأن خاطراً استغرقها، ثم مشت مبتعدة كما لو أنها نسيتني لتكون وحدها.. لحقت بها.. لم أسألها.. حسبت أن سؤالي سيعذبها، وكنت أعرف الإجابة. الإجابة التي لن تتلفظ بها أبداً. الإجابة التي أحسها لهباً في صدري: لهباً كاوياً، لاسعاً، لو أخرج منه.

هل ستُخرجني منه روايتي هذه؟ شدو اللغة المتمنعة هذه؟ وهذا السعي الموجع الحثيث من أجل الذاكرة/ ذاكرتي، وهي كائنة على الشفير.

* * *

اجتزنا بقعة ضوء وقوس مطر ناعم. شطحنا بأقدامنا في برك الماء. قهقهنا بمزاج سكارى.

تحت مظلة انتظار الحافلات بضعة شبان، وعجوز متصابية، ورجل وامرأة يهمان بعبور الشارع وهما يخشيان البلل. لم أقل لها سوف تمرضين. القطرات تتحدر على الظلمة الأسيانة لشعرها، وعلى وجهها، وأجدها لا تهتم. تسألني؛ لماذا يخاف الناس المطر؟ تمرق سيارة لشرطة النجدة بكشافها

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

الصارخ، ثم تأتي حافلة بطابقين. تقف فنستقلها، ولا نـدري إلى أيـن هـي ذاهبة في هذا الليل؟ أصعد السلّم معها إلى الطابق الأعلى. نجلس ولا أحد سوانا ثمة.. تقول لي؛

ـ والآن؟

ولأني أتوجس من صعود أحدهم أقبلها قبلة سريعة على شفتيها فتلقي برأسها على كتفي.. أحسها ترتجف. أسألها؛ "بردانة؟". تهمـس؛ "ومـن يدفئني غيرك؟".

أعانقها، فيتهيأ لي أنها تبكي. لا أحـاول أن أتأكـد، ولا أنطـق بكلمـة. ويوغل بي الخيال بعيـداً. أتخيـل خلايـا الـسرطان وهـي تمتـد بـسلامياتها الأخطبوطية في جسدها. تسعى كي تـصل إلى مركـز الحيـاة فيهـا. تغـدو الصورة أمام ناظري مهولة فأحلم بشعاع مـضاد، ينبـث مـن هنـاك، مـن مركز الحياة عينه، يأتي على خلايـا المـوت، يلاشـيها حتـى يـدرك الأصـل البغيض، الجرثومة المصنوعة بحذاقة البشر فيقضي عليها، فتخرج حنان إذ ذاك من بين ذراعي من غير سوء. معافى مثل عندليب الفجر.

كم كان دقيقاً وبارعـاً ذلـك الطيـار وهـو يرسـل صـاروخه؟ ينفجـر الصاروخ في مكان ما.. يدمِّر أو لا يـدمِّر. يقتـل ربـما، وفي الوقـت نفـسه يبعث شيئاً عجيباً ضد حنان، مـن أجـل مـوت حنـان.. ذلـك الطيـار ذو الرطانة الشقراء سيتحدث لصديقته الفاتنة بفخر عمّا فعـل وهمـا يحتـسيان

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

الشراب، أو يرقصان على أنغام الجاز في مقصف بنيويورك، أو في ناد للقمار في لاس فيجاس. أو يمضيان إلى فراش المتعة بشقة في فرجينيا.

منذ ذلك اليوم رحت أفكر به. لعل اسمه طوني أو جون أو جـارلس أو مايكل. ولعل صديقته مارغريت أو كـاترين أو ليليـان أو نيكـول. لـيكن اسمه مايكل، وليكن اسمها نيكول. أكاد أراه يداعب طفلة على الشاطئ، ويغازل حسناء تعبر أمامه بالمايوه البنفسجي. يستلقي بضمير مستريح على الرمل وقد نسي صاروخه، ولا يعنيه أمر حنان إن كانت ستموت أو لا.

لقد نفّذ الأوامر وكفى واستحق ثنـاءً وتـصفيقاً ووسـاماً رفيعـاً. لمـاذا يزعج نفسه بالتفكير بامرأة من العالم البعيد إنْ راحـتْ ضـحية يورانيومـه المنضب ما دامت فتاته لن تخلف وعدها، وستأتيه في شقته ساحرة ومثـيرة وطيعة، لا تعرف ما فعل هو، في مدينة لم تسمع بها ـ الديوانية ـ عـن امـرأة لن تعرفـها أبدا ـ اسمها حنان؟!!

هل لكي ينعم هو (مايكل) بـ (نيكول)، عليـه أولاً أن يحرمنـي مـن حنان؟ شيء ما خاطئ إلى حد مريع، يا كلوديا، في تكوين هذا العالم.

* * *

ذاكرتي ضباب أزرق يرتسم في أفقه وجه حنان، وذلك الـشغب الفريـد يبرق بعينيها، وهي تتنحى متهكمة عن مصير تقرر بشكل ما، تحت سطوة قوة ما، مبهمة وقاسية. تستدير على حين غفلـة منـي، ونحـن عـلى جـسر

السنك، نعبر نحو جهة الرصافة لتنط، في لحظة، فوق الدرابزين الأخضر، ماسكة بعمود النور، وتحتها يجري ماء دجلة بخضرته الكامدة.

ـ ما الذي تفعلينه بحق الله؟!

ـ سأقفز لأسبح.

ـ كفاك مزاحاً.. الناس ينظرون إلينا.

ـ لست أرتكب خطيئة.. فقط أرغب بالسباحة.

ـ انزلي.

ـ لن أنزل.

وأتت بحركة كأنها ستقفز حقاً.. صحت بها.

ـ حنان، ستصيبينني بالسكتة القلبية.

ـ سأمنحك مشهداً لن تنساه ما حييت.

ـ ستغرقين أيتها المجنونة.

ـ أعرف كيف أسبح.

تغطي علينا أصوات منبهات السيارات، ويقف المارة بفضول وخوف.

ـ ثوبك سيمنعك.. سيخنقك.

ـ طوال عمري أسبح، في نهر الفرات، وأنا مرتدية ثوبي.

ـ بالله عليك، حنان، أنت تقتلينني.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

الرعب يخنقني. أراها بقامتها النحيلة المشدودة عملاقة في موازاة فندق المنصور ميليا. باحتراس أقترب منها..

ـ تعالي انزلي.

ـ اقفز معي.

ـ ليس هنا. سنجد مكاناً ملائماً.

ـ كذّاب.

ـ واللهِ.

ـ وعد؟

ـ وعد.

تقفز إلى رصيف الجسر فأمسك بها.. تضحك.

ـ أخفت؟ يا خوّاف.

ـ ما هذا الذي تفعلينه؟ خفت عليك، خفت عليك حقيقة.

ـ وما الذي بقي حتى أخاف عليه؟

ـ آمني بالله، آمني بنفسك، بقدرتك على تحدي الموت.

نزلنا الجسر، وفي شارع الرشيد اتخذنا اتجاه الباب الشرقي وصدى الرعب ما زال يملؤني. كان عليّ منذ الآن تحمّل حماقاتها، وطيشها، وفهم لغة مراوغتها الجديدة هذه بأنها ضد المرض، ضد الورم الذي جمح على

غفلة من المنطق والمعقول.. بدأت حنان تكيد بالمنطق والمعقول، ووجدتني مضطراً لمجاراتها، على الأقل حتى منتصف الطريق.

ـ وعدتني.

ـ بم؟

ـ بالسباحة، أريد أن أسبح.

ـ في وقت آخر.

ـ إذا لم تف بوعدك، سأسبح وحدي. سأقفز من فوق الجسر.

قلت بيني وبين نفسي؛ عليّ ألاّ أكون متأكداً جداً بأنها تمزح.

ـ حسناً، سنسبح.. سنختار يوماً ملائماً ومكاناً ملائماً.

ـ خوّاف.

قالتها وهي تكركر.

ـ أجل، أنت تخيفينني.

في يوم آخر، وأضواء البنايات البعيدة، الناعسة، تومض مع حلول الغسق. اخترنا ثنية مهجورة شمال بغداد تخفيها أشجار نخل وتوت وسرو. لم تنض عنها ملابسها التي اختارتها بعناية. بنطلون جينز أزرق وقميص يحتشد بزهور ملونة، ضيق نوعاً ما، يبرز بعضاً من مفاتنها التي ما تزال محتدمة على الرغم من المرض.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

أما أنا فخلعت قميصي وبنطالي وبقيت بملابسي الداخلية.. هبطت إلى النهر قبلي. كانت تجيد العوم. رجوتها ألا تبتعد عن الشاطئ. كانت أيادينا تتلامس أحياناً، وكانت هي مبتهجة. تحاول الفرار من مراقبتي. تختفي، فأصيح بها، فأفاجأ بها وقد ظهرت خلفي وهي تضحك.

ـ خوّاف.

كانت حنان تستعيد زمن نزقها القديم. شقاوتها الفاتنة التي يمكنني تخيلها. تقفز من فوق الخطوط مغمضة العينين، في لعبة (التوكي)، وضفيرتها الطويلة تداعب ردفيها الصغيرين.. الآن تحس في نفسها بعضاً من دفء تلك الجذوة النائية. أو أنها مغمورة بالظلال القاتمة لساعة ما قبل الغروب في جنوب الفرات. مأخوذة بطرطشة الماء عند الحافة الضحلة، وجمع من الصبايا الضاحكات الصارخات الفرحات يحطن بها. يرشقنها بالماء. وها هي بقسوة باردة حزينة تترك فيَّ ما لا يُمحى. تمنحني مؤونة من أسى لطيف تكفيني بقية العمر. تستحوذ على ذلك الجزء الرائق الحميم من ذاكرتي، وإلى الأبد. تحفر على صخرتي اسمها ووجهها بأصابع تقطر دماً وعذاباً هادئاً.. تفعل ما تفعل، ربما لاستدراك حرية متمنعة، أو ربما مناورةً لتضليل ألم الروح، أو تعزيماً لطرد شبح النسيان.

وأنى لي أن أنساها؟ هل من الممكن أن أنسى ابتسامتها الشاحبة الأخيرة، المخضلة بالدموع، وهي راقدة على سريرها في مستشفى اليرموك، والتي بها سلبتني رباطة الجأش، وأطاحت بآخر دفاعاتي.

ـ آسفة سامر.. أتعبتك معي.. عش حياتك.

لم أستطع أن أقول شيئاً. انفجرت بالبكاء، وخرجتُ من غرفتها. جلستُ على الأرض، في الممر الطويل، وأنا أنشج بحرقة غاضبة. كنت غاضباً على نفسي، وعلى العالم، وعلى كل أحد. ما معنى كل شيء وأي شيء، إذا كانت حنان تموت؟

أقبلت امرأة تلطم وجهها. كان ابنها ذو الخامسة قد مات. مرّ طبيب، وممرضتان، ولم يأبهوا. كانوا قد تعودوا على هذا الموت اليومي.

من يأبه كلوديا؟ من يأبه في زمن الرعب، واليورانيوم المنضب؟

* * *

انحدرنا من شارع الرشيد إلى غسق دجلة. جلسنا على دكة إسمنتية نرقب الأضواء الراجفة في الماء، وقارباً صغيراً ينزلق بدأب باتجاه الشاطئ الآخر.

ألفيتها ترتعش بفعل الهواء اللاسع. خلعت قمصلتي وألقيتها على كتفها.. قلت؛

ـ الجو بارد. كان يجب أن تذهبي إلى البيت.

همهمت؛ لا أتحمل نظرات الشفقة. والتفكير، وأنا وحدي في غرفتي، سيقتلني.

قلت؛ أخشى أن تصابي بالرشح.

ـ الرشح؟!. ياه، تخاف عليَّ من الرشح. ترى ماذا يعني الرشح أمام ذلك الوحش؟

ـ اتفقنا أن ننسى الأمر، علّه ينسانا.

أطلقت ضحكة متهكمة وقالت؛

ـ لماذا نموت؟

ـ حنان أرجوكِ.

وكأنها لم تسمعني أردفت؛

ـ لماذا نولد ونحيا ونعاني ونحب إذا كنا نموت؟

ـ حنان..

ـ قل لي، لماذا يتزوج الناس وينجبون؟ يقذفون بأطفال آخرين إلى العالم إذا كان هناك الألم والموت؟ ثم ما معنى كل شيء إذا كان هناك الموت؟

صحت بها؛

ـ توقفي بحق الله، أنت تدفعينني إلى الجنون.

لاذت بالصمت والوجوم، وبقيت أنا أحدق في سواد الماء، من دون أن أعرف ما عليّ قوله.. قالت، وقد هدأ روعها؛

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ آسفة.. آسفة سامر. أنا أنانية، وأقول أشياء تُشوِش وتجرح. لا عليك، دعنا نذهب.

ـ حنان، لنبق دقائق أخر. لا أريدك أن تنفعلي هكذا ثانية، ولنؤمن بالمعجزة.

ـ أن نكذب على أنفسنا.

ضغطت على كفها؛

ـ أنت تبكين، حنان.

ـ دعنا نذهب.

زعيق طائر ما يتناهى، وأبواق السيارات المارقة على جسر السنك تثير الأعصاب، والهواء يصفر.

ـ كيف تذهبين وأنت على هذه الحال.

هبت واقفة فوقفت.

ـ كان يجب أن لا أعرفك.

ـ أنت تقولين أشياء لا معنى لها.

ـ هيا بنا.

ـ أنت تبكين، حنان.

ـ (أروحلج فدوة).

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ضممتها إليّ. سرى في أضلعي وجيب الحياة التي فيها، وأحستني في لحظة صفاء، والدمع يستغرقني، أنني أحتوي، دفعة واحدة، الحياة والموت؛ مأساة الوجود وعظمته المؤسية.

* * *

نفرت حنان من الشفقة، واحتالت من أجل عزاء مقنّع، لأنها لم ترغب في مواجهة الموت. حاولت ألاّ تفكر به لكنها كانت تجده أمامها كلما ظنت أنها تمادت في الهرب. صار الموت، في نظرها، في كل مكان؛ في الحركة والأشياء والغناء وسقوط المطر وصياح النوارس وعيون الأطفال. فصحتْ لي عن رؤياها المرعبة تلك قبل أن تتدهور حالها ذلك التدهور الخطير.

ـ لا أدري. باتت الأشياء الحلوة الحميمة تذكرني بالرحيل، فمذ علمت بالمرض وقعت على حقيقة مخيفة: إن ما نحب آيل إلى الفناء حتماً. وما هو جميل هو زائل أيضاً، وفرح الحياة ليس سوى أكذوبة.. وحتى أنت، حتى أنت يا سامر يوحي لي حضورك بالفراق.

وتحدثت عن قطار. عن عربة وحيدة، وهي وحدها فيها، تجلس إلى النافذة، وأنا على رصيف المحطة. تراني ألوّح لها حتى أغيب عن ناظريها بينما هي تمضي في الوحشة والمجهول.

كم هي حنان بعيدة الآن، يا كلوديا؟ وكم أنا بعيد؟ وكم هي بعيدة هذه المدينة؟ وكذلك بلدتي وطفولتي والحرب، وخالد وأبي وأمي وشيماء. وكم أنت بعيدة؟ لكن ما هي الفجوة، وأين موضعها، في النسيج المعقّد هذا؟ تلك الفكرة الجبارة الخفية التي تقبع في مكان ما. مكان لن يعرفه أي منا أبداً؟ تُوجِّهنا، وتعبث بحريتنا وبرغباتنا وأحلامنا. سألتني عنها. كيف هي، وما هي؟ وكيف تفعل ولماذا؟ أين هي، أفي داخل أنفسنا أم في خارجها؟ وماذا تريد. ولماذا؟ وإن كانت خيراً محضاً أو شراً محضاً، أو شيئاً بين هذا وذاك؟

فكرت أن أتزوجها. وتفكير مثل هذا خليق وحده أن يربك كل شيء. عرفت أنني سأبدو أخرق وأنا بصدد البحث عن منفذ للكلام معها عن هذا. أي كلام شائك سيكون؟ كيف لي أن أتحاشى عارض الشفقة، ورد فعلها الذي، لا ريب، سينفجر إزاء كلمة (خطية) المفترضة التي لن تتحملها امرأة، مثل حنان، مثقلة بذلك القدر من عبء الكبرياء؟ هل ثمة طريقة في العالم تصلح لإقناعها؟

كنت أتحرش بالمستحيل، وأطرق على باب أصم أعرف أنه لن يُفتح أبداً. أتصور الظلام الذي يزحف بتأن وإصرار وقسوة على الهامش الأخير من حكايتنا فأزداد غضباً وتمزقاً، ومعه أفقد قدرتي على البكاء. لو أبكي. حتى هذا كنت أعدّه خيانة. فبكائي ربما حررني، ومنحني صفاءً يرفل

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

بحزن هادئ، وامتثالاً لا يخلو من جبن أمام واقع أدكن ومرّ لا مناص منه. ووجدتني أخاطر تحت طائلة اليأس، غير أنها بذكائها اللمّاح فهمت بعد أول جملة نطقت بها.

ـ لا سامر، لا.

ـ حنان، أرجوك اسمعيني.

ـ كيف تجرؤ؟ تعرف مدى كرهي لأن أكون موضع شفقة.

ـ ليس الأمر هكذا.

ـ لخاطر الله كفى، لا تعذبني.

تحدثت مع أبيها الذي عرف أخيراً بمرضها وجاء إلى بغداد. كان كهلاً مهدماً، يجد ابنته الوحيدة آيلة إلى الأفول. روز، لو نظرت إلى وجهه النحيل، إلى عينيه الرماديتين، لأدركت إلى أي حد كان يتعذب. للوهلة الأولى استقبل وجودي بحذر، ومن غير ود، وتمتم بغيظ مكتوم وأنا أطرح عليه الفكرة، ومن ثم طلب مني أن أدع ابنته وشأنها، وأن أكف عنه شرّي. وأحسب أنه ما كان سيتردد لحظة في طردي لو أن ابنته لم تكن بهذه الحال.

ألححت فصرخ في وجهي؛

ـ سوف لن توافق، وأنا لا أوافق فحلَّ عنا.

كانت تلك فاصلة حرجة وموجعة لكلينا. لم أستكن. كان عليَّ أن أمضي بالأمر إلى نهايته. زدت من إلحاحي عليه. قلت له؛ إن هذا لصالحها،

وإنه مسؤول أمام الله. أعرف أنها خطوة خرقاء، لكنني كنت مشوشاً في حينها. اقتنع أبوها على مضض، وانزوى بها يحدثها في غرفتها، في بيت العمة نعيمة في البياع، وأنا جالس في الصالة المتواضعة أقضم أظافري، وساقاي تهتزان. أراقب جزعاً النسر الفاحم يهمّ باصطياد طير من السرب الذي يحتفي به خريف وشيك في اللوحة المستنسخة على سجادة الحائط. ألمح في الأفق ظلاً قاتماً ينبئ عن غيم كاسح، ومطر سيفيض، وقرابين مرتقبة. حتى إذا ما انفتح الباب رأيت كائناً مشبّحاً غاض من وجهه الدم، يقف على حافة الانهيار، يحدجني بغيظ وخيبة ويأس.. كانت تلك حنان.

ـ اخرج، ولا تأت بعد.

أخرج من موت حنان فألقى على ناصية الشارع موتي.

الظلمة ساكنة يبهظها البرد، وبضع سيارات تسرع مبتعدة في الليل القاحل، وأنا أحث الخطى باحثاً عن محل بيع مشروبات قبل حلول العاشرة إذ تغلق محلات الخمور بأمر من السلطات المختصة. أعثر على واحد منزو، وثمة شاب تعتعه السكر يتوسل بالبائع من أجل (نصف ربعية بالدَين). أقول للبائع؛ أعطه على حسابي.. يقبِّلني المخمور من رأسي، ويقول؛ مكانك الجنة.. يضحك البائع وأبتسم. أقتني نصف زجاجة ويسكي (صنع محلي)، وأخرج. للحظة تصير حنان حلماً نائياً. صدى نغمة هرّبتها سنون غابرة، فأجدني مثل مقامر خسر رهانه الأخير.

أسير خاوياً. أعبر شارعين. تطالعني أشجار آس غير مشذبة. أدخل من ثغرة بين أغصانها وأجلس خلف صف من أشجار الدفلى. أفتح الزجاجة وأشرب، أشرب، أشرب. وقبل أن أغادر الحديقة، وأرمي بزجاجتي الفارغة، أتقيأ. أحس كما لو أنني سأقذف أحشائي. يصعد الألم إلى رأسي والحمّى. أمشي طويلاً وأنا غير متأكد من المكان أو الزمان. وإلى حد ما، غير متأكد حتى من نفسي. أأنا هذا، حقيقةً؟ أهو الواقع، هذا الضياع في البرد المعتم؟ وطيف حنان يناكدني.

ـ اخرج.

فأخرج من حبها إلى فجيعتي. من يأسها إلى جزيرة روحي المقفرة. من دفئها الحلو إلى كوابيس لا تنتهي.

لا أدري كيف وصلت إلى الخان. لا بدّ أنني استأجرت تاكسياً. طرقت الباب. فتح لي الحارس علوان، وفي عينيه أثر النعاس.

ـ تأخرت، إنه الفجر، ما بك؟

لا أجيب. لا أستطيع أن أجيب. وفي غرفتي تملؤني رائحة الرطوبة والمرض فأتمدد من دون أن أخلع شيئاً مما ألبس. أنام.. يباغتني صوت حنان؛ اخرجْ. فأخرجُ من صبح ابتسامتها إلى غسق حيث تنأى الكراكي راحلة، وتلقي الوحشة بجناحها.

* * *

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ليومين أو ثلاثة عشت جزع المرض. لم أقبل بمراجعة طبيب. جاءني ماهود بمضمد حقنني بإبرة بنسلين وأعطاني أقراصاً وأمرني ببلعها. وجلس ماهود على طرف سريري في غرفتي. قال أنه مستعد أن يتكفل بمصاريف علاج حنان إن كان هناك أي أمل؛ (عزيز أنت عليّ).. شكرته وقلت؛ لا أمل.

بعد أيام، بروح هشة، مجروحة، ولكن عنيدة، أخذت سيارة تاكسي إلى البياع. أخبرتني ابنة العمة نعيمة، بنبرة خجولة، وهي تطل بنصف وجهها من الباب، أنهم أخذوها إلى مستشفى اليرموك بعد أن تدهورت حالتها. ذهبتُ إلى المستشفى. قالت لي أنها آسفة.. آسفة على أي شيء، أنا الآسف يا روحي. وكدت أنفجر بالبكاء.

وفي اليوم التالي كانت فاقدة الوعي وكان أبوها يجلس على مصطبة في الممر بوجه شمعي وعيون غائرة. سلمت عليه فتجاهلني تماماً، أو أنه لم يسمعني ولم يلحظ وجودي، والعمة نعيمة كانت هناك معها في الغرفة وقالت لا فائدة، وبكت وبكيت.

قبيل الغروب بقليل فتحت عينيها. تحدثت معها عمتها، واندفعت أنا لأكون في محيط نظرها. لمحتني فارتسم على محيّاها طيف شيء غريب، أقرب ما يكون للابتسامة، لكنها ليست كأية ابتسامة..

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ سامر، متى جئت؟ أتعبتك معي.

كانت نبرتها واهنة، مشروخة.

ـ حنان، (أروحلج فدوه).

أغلقت عينيها وانبثقت ثمة دمعة، وانهال مني الدمع. دخل أبوها وأخرجني من الغرفة، ولم ينطق بكلمة، وبقيت جالساً على المقعد عينه الذي كان يجلس عليه في الممر، والريح في الخارج تئن.

والريح ظلت تئن، وما تزال، مذ خرج، بعد يومين، أقرباؤها الملثمون بيشاميغهم، بتابوتها من المستشفى، ووضعوه على حافلة (كوستر)، ومضوا من غير أن يكترثوا بي.

لم أشعر ـ طوال حياتي ـ بالوحدة والحزن والانكسار والخسران مثلما شعرت في موقفي ذاك. لم أدر كم مشيت.. رأيتني أُسقط وجهي في دجلة. في رخاوة الماء وهسيسه المتعب. في دجلة الماكثة أبداً، والراحلة في الخلود. نصف صاحٍ، وعلى بعد خطوة من الكابوس.

زورق مستوحد ينسل تحت الجسر، يتركني في الشجن والوحشة. يأتيني بحنان من المستحيل ويسلمني للظى. أتنبه لسيارة تقف ورائي. أخطف وجهي من الماء، وألتفت. تحاصرني عيونهم المستريبة. يسألني الضابط عمّا أفعل حقاً. أقول؛ "لا شيء". يقول أنهم منذ ساعة عبروا الجسر ورأوني

هكذا. يطلب بطاقة هويتي. أعطيها له. يردها لي ويقول؛ "أتعرف كم الساعة؟". أقول؛ "لا". يقول؛ "هي الثالثة بعد منتصف الليل، هل من شيء؟". أقول؛ "لا، أحس بالضجر". يقول؛ "كأنك تفكر بالانتحار". أقول؛ "لا". يقول؛ "امش وإلاّ إنْ رأيتك هنا مرة أخرى رميتك في النهر".. أنظر في وجهه ولا أنبس بشيء.. يأمرني؛ "امشِ"، فأمشي.

* * *

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

حين دخل مايكل ونيكول روايتي

يضرب الغجري على أوتار قيثارته بنشوة وخبل، وتشتعل أقدام امرأتين غجريتين بالفلامنكو، فيضطرب الهواء وتترنح النوارس. تركض الطفلة الخلاسية وراء كرتها الملوّنة، وينهمك الصبي الأشقر في نبش الرمل، وست نساء يمنحن عري أجسادهن لشمس الظهيرة.. كأنني أحلم؛ تغرد الخمرة في دمي، وقبلة كلوديا تلاشيني في لازورد البحر.

أحسني موهوباً لكلوديا والبحر، يتجلى جوهر العالم إذ تشتبك أصابعنا. يحضننا الأبيض المتوسط فأحسها بكليتي موهوبة لي، كما للبحر. أرسل نظري في أفقها، ويتفتح أفقي ساعة تحيطني بقوس نظرها. كأنني أحلم؛ كلوديا في غلالة أول المساء تغني، ويجرحني الأسى "أنا بعشق البحر" ويخضل جسدي بالمطر الناعم يهمي في عيني حنان في أقصى بغداد. يشيلنا البحر.

الساحل يغادر صخب النهار.. لا غجري، الساعة، يضرب بنشوة وخبل أوتار قيثارته. لا رقصة فلامنكو تشتعل بها سيقان المرأتين الغجريتين. لا طفلة خلاسية تلاحق كرتها الملونة. لا صبي أشقر ينبش في

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

الرمل. لا نساء فاتنات يرضخن لنزوة شمس الظهيرة. لا شمس، ثمة، الآن.

أنا وكلوديا، وبضعة سائحين متعبين يحملون حقائبهم، وينسلون بعيداً. أنا وكلوديا، والبحر من ورائنا، نسير باتجاه المدينة.. في مطعم هادئ ندع الموسيقى تأخذنا مثل ريشتين في هواء الليل. نأكل الهمبرغر، ونشرب الصودا، ونثرثر.. ثلاثة من رجال الشرطة يدخلون، يرسلون عيونهم في الوجوه. أحدهم يطيل النظر فيّ، هو القصير بين اثنين طويلي القامة. أتحاشاه بالتحدث إلى كلوديا. أنا مرتبك إلى حد ما، غير أن كلوديا لا يبدو عليها أنها تكترث. أحس بقلبي يخفق أسرع. لا شك أن وجهي شحب قليلاً. أرفع كأس الصودا، وأقول لكلوديا؛ ماذا يريدون؟ تقول متهكمة؛ يبحثون عن أمثالك، وتضحك. أجاريها في ضحكها. تقول؛ هل تعتقد أنَّ من الممكن أنْ أدعهم يأخذونك، ببساطة هكذا، أولاد العاهرات هؤلاء؟

كلامها يشعرني بالضعف والهشاشة.. يخرج رجال الشرطة. أسحبُ سيجارة وأدخن. تقول شيئاً عن همنغواي. أقول؛ كان همنغواي يبحث عن التجربة، أما أنا فالتجارب تلاحقني. أنا، على الرغم مني، في حالة اختبار أبدي.

تسأل فيما إذا كنت مصاباً بفوبيا الشرطة. أجيبها؛ ربما

حلقات الدخان تصعد من سيجارتي المركونة على حافة المنفضة. أطفئها.. صوت مذيع متحمس يجعلني أستدير نحو جهاز التلفاز. أسأل كلوديا إن كانت تهتم بمتابعة المباريات. تقول؛ لا أحب كرة السلة، نادراً ما أتابع مباريات كرة القدم، لكني أعشق التنس.

نخرج من المقهى. تسري في جسمي قشعريرة مباغتة. الجو بارد. أفكر إن كانت كلوديا ستجيء معي. أقول؛ سأتمشى إلى الشقة فهي قريبة من هنا. تقول؛ وأنا مضطرة لتركك.

ـ وإذن؟

توقف سيارة تاكسي.

ـ ليلة سعيدة

أشعر بالأسف، فقد كنت أتمنى أن تأتي معي. أحث الخطى مواجهاً هواء البحر المالح.

* * *

تقترح كلوديا أن نذهب إلى فلورنسا. تريد أن تنقذني من نفسي (كما تقول)، من عبء الذكريات وسطوتها؛

ـ لا لكي تنسى، بل لكي تتواءم مع واقع حاصل وتتقبله، وحيث ليس بمقدور أحد تغييره. كي تروِّض في داخلك الكائن الوقح، العنيد الذي يتلبّسك وينغِّص عليك أيامك.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

أعترض على تخريجها، وأوافقها على السفر. وعند الفجر نصعد القطار الذاهب إلى هناك.

يوم آخر.. أجدني تحت سماء فلورنسا بنتف غيومها البيض. في فلورنسا تحدس بخفة التاريخ. بعشرين قرناً مختزلاً في نهار واحد. أجوب مع كلوديا الطرقات والساحات. ندخل متجراً لشراء مناديل ورقية، وأبادل كلاماً إنجليزياً لا تفهمه مع البائعة البدينة وهي تكلمني بالإيطالية كما لو أنني أفهمها، وتضحك. تقول لها كلوديا شيئاً وتضحكان.. نمر على بيت دانتي. أخاله سيطل من النافذة العلوية ويصيح؛ مرحباً يا أصدقائي.. نختلط بالسائحين ونحن نعاين متأملين تمثاله النصفي. أقول لكلوديا؛ كأنه ينهرنا كي نذهب ونقرأ كوميدياه الإلهية بدل الوقوف هكذا كالبلهاء. تقول امرأة في الأربعين، كانت تقف إلى جانبي، بالإنجليزية؛ ينتابني الإحساس نفسه.

نعبر جسراً حجرياً قديماً على نهر أرنو. نتناول غداءنا في مطعم هادئ، وبعد الظهر ندخل متحف الأوفيزي. ها أنذا في دهشتي أتشبع بعبق عصر النهضة. يتهيأ لي أنني سأفاجأ بدافنشي ومايكل أنجلو وجيوتو وبوتشللي جالسين في غرفة جانبية حول طاولة يتجاذبون أطراف الحديث عن مشاريع أعمارهم التي لم ينجزوها.

تنجذب عيناي نحو طفلين أسمرين. كأنني أعرفهما.. أقترب منهما. يحدجني الولد مع لمعة توجس في نظرته. هو في الخامسة أو السادسة. تناديه البنت بلهجة عراقية مبينة: كاظم تعال. فأفهم، في جزء من الثانية، سر الألفة التي أحس بها تجاههما. ويطيش دمي. أسألُها: ما اسمك أنت؟ تقول: زينب، اسمي.. زينب.. يا لتلك اللثغة الساحرة.. تلتفت لرجل يقترب منّا؛ بابا.. أمدُّ له يدي؛ كيف حالك؟ يصافحني، شادّاً على يدي بقوة. يحضنني ويقبِّلني. كأنه يعرفني منذ ألف سنة: أهلاً، ألف أهلاً وسهلاً (أفيش ريحة هلي). وأهلاً يقول لكلوديا، وكلوديا حائرة، تصافحه بحماس. أراه جذلاً وهو يشير إلى امرأة تقف على مبعدة وراءه، حنطية، عيناها كبيرتان، فيهما دهشة وبراءة، لا أستطيع تمييز لونهما:

ـ أم كاظم.

ـ أهلاً أم حسن، كيف حالك؟

تهز أم حسن رأسها، وعلى وجهها ظل ابتسامة خجولة.

ـ (هلة خوية).

وينفتح أبو كاظم في الكلام، يخبرني في أقل من خمس دقائق أنه من البصرة، ولاجئ في الدنمارك، وضيف، منذ بضعة أيام، على شقيق زوجته في فلورنسا. يعشق بلده ومدينته لكنه لا يستطيع العودة.. يحضنني مرة

أخرى ويصافح كلوديا ثانية بحرارة، ونحن نفترق، ويسألني إن كنت بحاجة إلى أي شيء..

تسألني كلوديا؛ أهم من معارفك؟

ـ لم أرهم قبل اليوم. هم عراقيون.

ـ بدا وكأنكم تعرفون بعضكم منذ الأزل.

ـ هكذا نحن.

بعد ساعة نألف أنفسنا في ساحة بياتسا سنيوريا. أقف ذاهلاً ويدي على كتف كلوديا، أمام صف من التماثيل في محيط الساحة. تطلب مني سائحة كورية أن ألتقط لها، مع زوجها، صورة أسفل تمثال ديفيد..

تدعوني كلوديا لنجلس ونرتاح قريباً من تمثال فارس روماني. أقول لها؛ كم أود أن أرى روما يوماً، كذلك جنوى وفينيسيا، ولا سيما فينيسيا. تقول؛ سأريك إيطاليا كلها، أوروبا كلها لو قررت البقاء.. أربت على ساعدها.

ـ كلوديا، ربما تغير مزاجي واستطعت إكمال روايتي، وأنا هنا، إذن سنسافر ونتنقل هنا وهناك من غير تردد.

أمسك يدها، أفتح كفها، وأفرك بإبهامي راحتها، وأقول؛ لو كان بإمكاني قراءة خطوط الكف.. تقول؛ سأقرأ أنا خطوط راحتك.

تكسي وجهها بمسحة جدية وهي تتأمل خطوط راحتي.. بعد ثوان تتكلم بنبرة عميقة؛ أنت ضائع يا طفلي، وخائف، ولا تعرف مم أنت

خائف. لن تلبث في مكان غير أنك ستعيش طويلاً، وستجد أخيراً ضالتك في عيون امرأة ليست من بلادك، لكنها من طينتك. هي النصف الآخر لتفاحة وجودك، ومشكلتك أنك لست متيقناً، لست متأكداً من شيء. أنت ضائع يا طفلي بإرادتك.

وانفجرتْ بالضحك، ورحتُ أضحك. احتضنتها. قبّلت شعرها، جبينها، أنفها، فمها. استغرقتني رائحتها، دحرجتني على مخمل دافئ، أغمضت عيني لأستحوذ، تماماً، على رؤياي.

ساعة الغروب، وقبل أن نعود، كنا عند السور الحديدي لتمثال بنفونوتو شيليني نضع قفلا، كما يفعل العشاق، ونمضي..

وفي شقتي، حيث جاءت لتبيت الليل عندي، أجلس قبالتها وأتحدث.

* * *

سأسر لك، كلوديا، بشيء قد تعدينه غريباً، أريد أن أضمِّنه روايتي. لمّحتُ إليه قبلاً، والآن أرغب أن أسترسل. فلطالما فكرت بالرجل الذي أطلق ذلك الصاروخ اللعين، والذي من ذراته أصيبت حنان بمرضها. كما لو أنني أراه الآن. أتخيله حتى ليكاد أن يغدو أشد حقيقية من أي من هؤلاء الذين يجلسون، في هذا المقصف، حولنا. اسمه جورج أو روبرت أو سكوت أو مايكل.. ليكن مايكل: أشقر بشعر قصير وأنف مدبب، وعينان زرقاوان ماكرتان، وجسم رشيق طويل. فوق حاجبه الأيمن أثر

من جرح قديم، كلما حدق إلى وجهه في المرآة تذكر ذلك اليوم البعيد حين سقط من دراجته على الرصيف، وضمدته العمة كارولين وهي توبخه.

مايكل، الآن، شخصية مختلقة. شخصية في رواية، ولد في أعالي برج الجدي، لذا تنطوي جديته على شيء من السخرية، وعدم الاكتراث. مات أبوه وهو في العاشرة تاركاً له قدراً معقولاً من الحرية والمال. أما أمه السيدة إليزابيث فكانت تدّعي أن دماً نبيلاً يجري في عروقها، وأنّها تتحدر من عائلة ملوك حكمت أجزاء من أوروبا طوال قرون. تلك الأم قضت أواخر أيامها في مصح وابنها ـ مايكل ـ في قاعدة عسكرية، في المحيط الهادي، بعيد عنها بآلاف الأميال.

أما نيكول، صديقة مايكل، ولنختر لها هذا الاسم، فولدت في اليوم ذاته الذي ولدت فيه حنان، في مدينة صغيرة في الغرب الأميركي. أبوها يعمل سائق شاحنة، التقى بامرأة شابة تدعى آليس في مرقص، وبعد عدة كؤوس اقتادها إلى خلوة شهوة فحملت بنيكول. بعد ولادة نيكول اختفى الأب سنتين قبل أن يرجع ثانية بضمير مثقل ويتزوج آليس.

اسمعي كلوديا، أنا بصدد تأليف رواية، والرواية كما تعلمين عمل تخييل، لذا فإن من حقي أن أصور شخصياتي بالشكل الذي أشاء، ولكن يجب أن تعرفي أن الخيال هو مقولة الواقع أيضاً، ومقولة التاريخ. لا شيء

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ينبع من العدم. سأتخيل مايكل ذاك في طائرته.. لا تضحكي كلوديا، لست ثملاً.

طائرته على ارتفاع كبير. يرى الأرض تحته بقعة متموجة عجيبة، على الرغم من أنه يميّز النهر والطرق والبنايات. إنه قريب من هدفه. يحدِّده على الشاشة. يضغط على الزر الناري فينطلق الصاروخ. يبتهج لمرأى النيران الصاعدة على خلفية من غروب فاتن، وهو يحقق دورة حول اللوحة التي رسمها.

ـ هووووووه.

يتلقى التهنئة من قائد سربه.

ـ رائع مايكل.. لقد كان ذلك مذهلاً.

ـ ذلك لا شيء.

يعود مايكل إلى قاعدته مفعماً بالرضا، غير أن الحريق ما يزال.. من وهج الحريق، من دخانه، من رماده تصعد ذرات بأعداد هائلة وتنتشر، لا يعرف عنها مايكل شيئاً، أو أنه يعرف عنها شيئاً قليلاً وبشكل غامض. ذرات مصنوعة في مختبرات غاية في التطور، بإدارة عقول ذكية، باردة وموضوعة تحت تصرف فئة لها تصوراتها الإستراتيجية عن العالم. الإدارة تعطي الأمر ومايكل ينفِّذ. مايكل الذي لا يخطر، ولن يخطر، بباله البتة أن من البدن المفتت لصاروخه العجيب ذاك ستدخل ذرات في شهيق حنان

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ودمها، لتصنع في فردوس جسدها الخراب.. كم هم قادرون، أولئك، وبارعون، في صناعة الموت؟!

* * *

قامت قوات الولايات المتحدة والقوات البريطانية خلال عملية ـ عاصفة الصحراء/ 1991 ـ بإطلاق مئات الألوف من مخترقات اليورانيوم المنضب على المعدات العراقية والقطعات العسكرية والخنادق. وعند نهاية الحرب، تناثر على الأرض أكثر من 630000 باوند من اليورانيوم المنضب على شكل غبار وشظايا خلال مناطق ساحات القتال في العربية السعودية، الكويت والعراق.

توصل مسح أجري عام 1994 من قبل 317 طبيباً لصالح الجمعية العراقية لحماية البيئة وتحسينها إلى النتائج الآتية؛ معدلات أعلى من العقم، العيوب الولادية، مرض سرطان الدم، التهاب المفاصل، الربو، التهاب القصبات، سرطان الرئة، التهاب الجيوب الأنفية، فقدان السمع، الأمراض السرطانية، وأمراض الدم بين السكان العراقيين.

دان فاهي

من كتاب (توصيف حالة التعرض لليورانيوم المنضب)

* * *

أعود إلى مايكل.. إنه الآن خارج الخدمة. تسرّح أو استقال، ولا بد من وضعه في موقف درامي مناسب. وسيكون تقليدياً أن نجعل مأزقه متجسداً في علاقته بنيكول.. حسناً، لتكن نيكول طرفاً أساسياً. سأفترض أن مايكل يجلس في شقته وحيداً بعد أن خرجت نيكول غاضبة. بيده سيجارة، وفي رأسه تتصادى كلمات نيكول؛ "غير معقول، هذا الذي تفعله غير معقول، إنك تضيع نفسك وتضيعني معك".

بقيت نيكول تنتظر ساعتين. أعدت القهوة وشربت منها فنجانين، وكرعت كأساً من الجن، ودخنت سيجارتين، وفتحت التلفاز. أخذت تقلّب القنوات (فيلم.. مسلسل درامي.. أخبار.. أخبار.. نساء شبه عاريات يرقصن.. مباراة بيسبول.. أغنية قديمة.. تقرير عن جريمة قتل.. باليه.. فلم كارتون.. صور عن إلقاء القبض على أحد قادة المافيا.. صور عن المجاعة في الصومال.. تقرير عن الطقوس البوذية في الصين). وأخيراً استقرت على برنامج مصور عن الافتراس في الغابات.. ضباع تنقض على حمار وحشي.. أسود تفتك بأيل ضخم.. ثعلب يطارد غزالاً صغيراً.

بدت نيكول منزعجة، ومتعاطفة مع الطرائد، واستمرت تتفرج على البرنامج نصف ساعة أخرى.

تغفو نيكول على إيقاع القانون الداروينى (البقاء للأقوى) حيث تجسّد أمامها على الشاشة. ترى نفسها تتحدر في غابة كثيفة الأدغال، وكائن ما

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

يطاردها ـ شبح، أو حيوان، أو وحش ـ لا تراه، غير أنها تحسه، كما لو أن أنفاسه تلفح رقبتها. تركض فتعوقها النباتات. تحاول الصراخ فيختنق صوتها في حنجرتها، وذلك الكائن يقترب أكثر فأكثر، وأنفاسه الحارة الكريهة على رقبتها.

تستيقظ مذعورة، ومايكل يحيطها بذراعه، وقد التصق بها، وزفيره المخمور يترك أثراً رطباً على رقبتها. تجلس؛ "متى جئت؟ أنت سكران".

ـ لا بأس نيكول.. اهدئي، أهو كابوس؟

ـ أين كنت؟

ـ لا شك أنه كان حلماً مزعجاً.

ـ مرة أخرى كنت تقامر وتشرب.

ـ دعك من هذا.

ـ لقد خسرت أيضاً.

ـ ذلك لا شيء.

ـ غير معقول هذا الذي تفعله.

ـ اهدئي.

ـ إنك تضيع نفسك، وتضيعني معك.

ـ اهدئي نيكول.

تلتقط نيكول حقيبتها وتخرج، فينهار مايكل جالساً على كرسي وقد أغمض عينيه.

تخرج نيكول إلى عراء المطر. مطر كالح يهطل على أعماقها الجزعة فلا تركض، وهي تدري أنها ستصاب بالأنفلونزا. تغادر دفء الشقة إلى ليل الصقيع. تقف سيارة إلى جانبها. يدعوها سائقها إلى الصعود فترفض. يلح السائق بلغة المنبه إلاّ أنها تواصل سيرها فتنطلق السيارة مسرعة فتلطمها شتيمة بذيئة ورشقة ماء يصيبها بعض رذاذها، بيد أنها لا تكترث. تدخل حانة وتطلب كأساً من الويسكي مع الصودا.

مع الكأس الثالثة يدخل مايكل غاضباً.

ـ لو تكفين عن نزواتك السخيفة هذه. منذ ساعة وأنا أبحث عنك. دخلت خمس حانات قبل أن أجدك.

ـ ولماذا تبحث عني أصلاً.

ـ لا تكوني سخيفة.. هيا.

ـ اذهب. لن أتحرك من مكاني.

يمسكها من معصمها ويقيمها، فتعيط من ألم.. يتنبه الجالسون.

ـ هيا.

تصرخ؛

ـ كلا.. دعني.

يسحبها. تشتمه.. يقف رجل ضخم ويقول لمايكل؛

ـ دعها.

يدفعه مايكل فيتلقى على حين فجأة لكمة على فكه. تقف نيكول فاغرة فمها. يتحسس مايكل فمه بأصابعه ويرى الدم فيندفع نحو الرجل ويضربه في بطنه فيباغت بكرسي يتحطم على ظهره فيقع أرضاً، وقبل أن يقوم تعالجه ركلة في صدره.. إنهم ثلاثة الآن يقفون على رأسه. يطلبون منه القيام وقبضاتهم مضمومة ومتوعدة. يحس بالألم يتغلغل في بدنه كله، ويملؤه حقد وعجز وقد فقد نصف وعيه. يغادر الرجال الثلاثة الحانة قبل مجيء الشرطة، وحين تحضر الشرطة يكون مايكل قد استعاد وعيه وشيئاً من حيويته.

ـ لا عليكم، كانوا مجموعة أوغاد.

ـ أتعرفهم؟

ـ لا.

ـ أتود تقديم شكوى.

ـ لا، هذا لا شيء.

خرجت نيكول معه ونظرات رواد الحانة المندهشة تشيعهما.

* * *

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

الكابوس نفسه يتكرر. وفي كل مرة يحاول الصراخ يتحشرج تنفسه ويختنق صوته فيستيقظ وحلقه جاف، وفي دخيلته الخوف والكدر.. هو في طائرته، منطلق نحو هدف لا يعرفه. الطائرة تخرج من نطاق سيطرته. تصير فوق مدينته، ثم في مواجهة المبنى الذي فيه شقته. يعلم أن نيكول الآن في الشقة. ينفلت الصاروخ من دون إرادته، مصوّباً ومسرعاً باتجاه نافذة الغرفة التي تنام فيها نيكول. يحاول الصراخ، ويستيقظ قبل أن يصطدم الصاروخ بالنافذة وينفجر داخل الغرفة.

هذه المرة كانت نيكول راقدة إلى جانبه. هزّته ففتح عينيه مذعوراً، وفي أحشائه المرارة والغثيان. احتضنته.

ـ ما لك؟ اهدأ. هو كابوس لا شك.. ماذا رأيت؟

ـ ذلك لا شيء. لا أتذكر.

ناولته كأساً من الماء. مشى نحو النافذة. المدينة تحت نظره لوحة من الأضواء والتكسرات المعتمة. أشعل سيجارة. أحس بجسد نيكول الساخن يلتصق به.

ـ ما بك حبيبي؟

ـ الطائرة اللعينة تلك.

صعّدت يدها إلى عنقه، ثم هبطت بها نحو ثديه فضغطت ثمة برفق، قبل أن تنزلق إلى أسفل. أمسك يدها واستدار. قرأ في عينيها الرغبة. رغبة هادئة متوسلة.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ ارجعي إلى الفراش.

ـ لن أتركك هكذا.

ـ قلت لك أن ذلك لا شيء.

ـ تعال ونم.

ـ لا أستطيع، اتركيني قليلاً.

تراجعت نيكول وبقي هو. وعبر تموجات دخان سيجارته رأى بعين مخيلته المدينة وقد غصت سماؤها بالطائرات.. يرى طائرته ويميّز نفسه. إن ذلك الطيار هو، وذلك الوجه وجهه هو، بصرامته وجديته. يضغط على زر الإطلاق بإرادته، في هذه المرة، فيقبل الصاروخ أحمر مشتعلاً وصاخباً.

ـ لماذا لا تراجع طبيباً؟

يأتيه صوت نيكول المتطلب والنعسان فلا يرد.

ـ هل سمعتني؟

ـ نامي نيكول، أرجوك.

* * *

ها أنذا ألاحق شخصياتي المبتكرة بسلطة الراوي كلي العلم. (أهناك حقاً راوٍ كلي العلم؟). أراهم يتحركون أمامي، وقد استقلوا عن إرادتي، وصارت لهم حيواتهم وأقدارهم.

في البدء فكرت في تحديدهم، ووضعهم على المسار الذي أبغي غير أنهم سرعان ما تمردوا وراحوا يسلكون على وفق ما يرغبون، وما يشاؤون.. هل أن هذا الأمر يغيظني ويربكني؟ يغيظني؟ لا.. يربكني؟ نعم. وأخشى أن تتفلت هذه الرواية وتفقد مركزها.. ها، وماذا إذا فقدته؟ ترى من يهتم بشأن المركز، في النص الأدبي، في هذه الأيام؟

مايكل ونيكول شخصيتان في رواية. في رواية مفترضة لم تكتب بعد. أو أنها تُكتب في ذهني.. أو أنها تكتبني. أو أن راوياً ما يخلقهما ويخلقني، في فضاء السرد، على الورق، أو في ذاكرة الحاسوب وعلى شاشته.. أنا ومن عرفتهم كلهم وحكيت عنهم، وأيضاً مايكل ونيكول. مايكل ونيكول، إلى أي مدى هما حقيقيان؟ ثم ما الذي أقصد في أن يكون امرؤ ما حقيقياً، ولا سيما داخل رواية؟ هل أنت يا كلوديا حقيقية؟ هل خالد وشيماء وحنان حقيقيون؟ هل أنا حقيقي؟ هل عليّ أن أؤكد أنني أصدّق هذا كله؟ وإذن، أيشاطرني الرأي قارئي اللبيب والمتعاطف؟ أم أنه يحمل في دخيلته بعض الشك، مثلي تماماً؟!

هنا، عبرك، أخاطب قارئي، كلوديا. فلنستأنف اللعبة بقلب الأدوار وقلب الأسئلة. من أنا؟ ومن أنت؟ ومن خالد وحنان وشيماء ومايكل ونيكول؟ من نحن جميعاً في هذا العالم؟ وما هو هذا العالم؟

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

تلك الرواية التي أرغب في كتابتها هي محاولة، ربما بشيء من الوقاحة والغرور. محاولة في إثارة هذه المشكلة التي لا يعرف لها أحد حلاً.

* * *

تحدثني كلوديا عن قلق طفولتها. عن أمها العائشة في الخوف والغيرة، وعن أبيها المتورط، القادر دوماً على الإفلات من قبضة الشرطة، والمتبذل في علاقاته النسائية.. تحدثني عن تلك الخلافات بين أبويها التي كانت تبدأ هامسة في غرفة النوم، ثم تحتد حتى تتحول أحياناً إلى عراك بالأيدي.. تقول؛ إنها، في الغالب، كانت إلى جانب الأب. تحب فيه قوته، روحه المرحة، وغموضه الآسر. وكانا معاً ينعمان بساعات من البهجة المفرطة في مدن الملاهي، أو عند تسلق الجبال، أو على ساحل البحر وفي عرضها، أو في أثناء الصيد. أما الأم التي تعاني التوحد والنبذ فسرعان ما شكت من ضعف أعصابها، وانهارت، ولم تفدها أسرّة الأطباء النفسانيين كثيراً، ولا حتى المصح الذي دخلته أربعة أشهر، ولم تستقر حالتها إلاّ حين انفصلت عن زوجها وغادرت إلى مسقط رأسها، روما. كانت عارضة أزياء نصف مشهورة، التقاها السيد ألبرتو مصادفة في بيت صديق له كان يقيم حفلاً خاصاً. ثرثر معها ودعاها إلى العشاء في اليوم التالي. تناولا طعامهما مفتونين أحدهما بالآخر، ثم دخلا مقصفاً للرقص وخرجا إلى شقته. وتكررت لقاءاتهما بشكل شبه يومي لمدة أسبوعين. حينها، في السرير، وهو

في حالة انتشاء كامل وسكر خفيف، ويقترب من التألق الراعش والباهر للذروة الجنسية عرض عليها الزواج فقبلت. حصل كل شيء بسرعة ورعونة.. بعد أقل من شهر سافرا إلى باريس وبرلين وفينا لقضاء شهر العسل. وهناك حملت بكلوديا. ومذ ولدت الطفلة ظهرت في سماء علاقتهما غيوم عكرة. ربما لأنه كان يخونها، وقد اكتشفت خيانته بوساطة تحرٍ خاص استأجرته لهذا الغرض، بحسب اعتقاد كلوديا. وربما لأنها، كما صرخ زوجها بوجهها في ساعة غضب، راحت تفقد كثيراً من إثارتها ورونقها بسبب عصبيتها الزائدة وشكوكها وأوهامها، حتى لم تعد (كما كانت) ممتازة في الفراش، على حد تعبيره.

تقول كلوديا أنها اختارت البقاء مع أبيها، لكن شفقة وجيعة كانت تشدها إلى الأم فتزورها بين الآونة والأخرى. كانت تقرف، كما تقول، من شكاوى تلك الأم، التي لا تنتهي.

إنها تدخن، تقول كلوديا، علبتي سجائر في اليوم وتفرط في الشراب، وترفض أن تعمل على الرغم من مؤهلها العلمي ـ تحمل شهادة عليا في الهندسة المعمارية، وتعيش مما يرسله زوجها السابق، وما زالت تملك الشقة التي أهداها لها في يوم زفافها.

كانت كلوديا في السادسة عشرة حين وجدت نفسها أكثر حرية في كنف الأب، ومبكراً عرفت الحب.. عرفت الرجل.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ كان فتى وسيماً وخجولاً. لم أستطع التواصل والاستمرار معه لتردده في اتخاذ القرارات الحاسمة. تركته غاضبة وسلمت جسدي لأول رجل قابلته بعده. كان ذلك الرجل الثاني في الأربعين. كان ذلك تهوراً، غير أنه ساعدني بطريقة ما. الرجل ذاك نقل إلي عدوى حلم الشرق. أعطاني كتابين في أدب الرحلات أثارا فيّ مشاعر مختلطة فحدست ماهية الغاية العميقة لحياتي، بعد قراءتهما. عرض عليّ فكرة مرافقته إلى الهند والصين. وافقته في أول الأمر إلاّ أننا واجهنا مشكلة صغر سني. واغتاظ أبي لّما طرحت عليه الفكرة.. على أية حال غادر هو، وانقطعت أخباره بعد رسالتين مقتضبتين. أظنه وجد ضالته هناك، أو ربما قضى نحبه لأي سبب.. درستُ التاريخ واللغات.. ذهبت إلى مصر والمغرب وتونس.

حين ركبتْ جملاً في منطقة الأهرامات، للمرة الأولى، انتابتها غبطة عارمة فجعلت تصيح، وقضت مع بعثة أثرية جنوب المغرب شهراً ونصف، وعادت بعد أن أصيبت بضربة شمس كادت تودي بحياتها. وحلمت بعبور الصحراء الكبرى على متن طائرة شراعية بعد أن قرأت رواية لأكزوبري. أما قصة (ثلوج كليمنجارو) لهمنغواي فقد جعلتها مفتونة بإفريقيا، لكنها رأت في كتاب لورنس (أعمدة الحكمة السبعة) ذروة ما تصل إليها التجربة الشجاعة.. تقول؛

ـ على الرغم من أنه كان ماكراً، لورنس ذاك، وغير أهل للثقة، واعتقادي في أنه أراد أن يخدعنا، لكن الجانب الآخر من كتابه كان إنجيلي.

* * *

للمرة الأولى وحدي، فكلوديا ستغيب أياماً عدة في روما، تزور أمها. ودّعتها في محطة القطار. قبلتني في فمي، وسحقت أنفي بأنفها. حدقت بعينيها فصاحت؛

ـ لو تتخلى عن رومانسية الصحراء يا صاح.

قلت؛

ـ وعندها من يضمن أن نبقى أصدقاء؟

كركرت؛

ـ لا أحد، ربما.. من يدري؟

ـ إذن، أية مديات من الوحشة ستتركين في صحراء روحي يا روز. كلما ناديتك روز ابتهجت روحي.

وضممتها، فراح حضورها الطافر يكهرب ذلك العصب المنسي في زاوية مجهولة من ظلمتي.

رحل القطار بكلوديا لأعود إلى البحر الرحيب إلى الحرب التي تركت فراغاتها في الذاكرة إلى الحبر أضرّج به منديل العمر إلى الحر في شرق البصرة والحرب سجال إلى الحرية التي أغوتنا بها العصافير إلى النخلة

البرحية أتسلقها من أجل حفنة تمر من أجل أمي وشيماء في بلدتي البعيدة إلى البر أطويه بصدري محاصراً بالماء إلى الرب الرحيم الكريم ينظر من نافذته السماوية بإشفاق إلى خطاياي فيأخذني البحر ومساؤه القرير إلى حر الحرب فأكتب بحبر ألمي روايتي من أجل نخلة هجرتها العصافير ليغرق البر الذي في صدري بماء الرب الرحيم الكريم بالبحر.

الخريف في جسدي، يصعد في دمي صفيراً حزيناً، وريحاً نائحة تتخللني، وسحابات خفيضة دكناء تسبح فوق بحري.

رحل القطار بكلوديا، وغادر البحر صيفه الفتي الساحر السعيد الضاج بالأسرار والقهقهات وهو يفتح ذراعين جهمتين فأدنو لتحملني وشوشته الحرون إلى مساء يعتِّم غربتي.. الماء يتململ، وتترنح الغيوم، وأنا، وحدي، يخذلني البكاء.

من المذياع يصدح صوت فيروز ((ذهب أيلول)) فأرى طرقاتي تفرشها سجادات من أوراق صفر ساقطة.. يا لروعة الأشجار العارية في الشفق. يا لبهاء هذه الساعة المتشحة بدمها النقي البارد. يا لحلاوة ذلك الشدو النبيل الذي ينبث من بين أعطاف كهولتي الزاحفة.. كم أنا سعيد في قدّاس الشجن هذا! وعلى كم تنطوي من فرح الحياة دمعتي الحبيسة المجهضة!

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

منذ يومين لم أر كلوديا، ولم أبرح شقتي، ولم أكتب حرفاً، غير أنني أحس بروايتي تنمو وتعرّش وتلتف داخل الفراغ الهائل الذي فيّ.. أراها بسلطانها المذهل، وتناغمها الفريد.

في اشتباك الواقع مع المخيلة، والتهويمات مع التاريخ، والأحياء مع الموتى، وسكان هذا العالم مع كائنات الحلم، تختمر المشاهد والصور والأحداث في رأسي. تنتزع الشخصيات حرياتها، من أجل أن تتحرك في ما بعد بتلقائية ومرونة عبر الكلمات على الورق الأبيض الفسيح المتطلب.

تلبث الورقة غارقة في بياضها كبكارة عذراء حيية. وألبث على مبعدة منها، كما لو أنني أخفق في كل مرة، في الوصول إلى وفاق مع الكلمات. الكلمات المتمنعة العسيرة التي أطاردها أبداً، ولا أمسك بها.

قاس هو هذا الطراد، في التباسه الساخر. من يلاحق من؟ ومن يهرب مِنْ مَنْ؟ قلت لكلوديا؛ لو تتخيلين مساحة المنفى الذي في داخلي بتموجاته وجدبه ووحشته وكوابيسه.

قلت لها؛ لا أدري إن كانت هذه هي الحرية. أن أنهض صباح كل يوم، من دون ارتباطات ولا مسؤوليات ولا مواعيد. لا عائلة، لا أصدقاء، لا أنداد، لا أعداء. لا أحد. وحدي، في قرفي وخوائي، مملوءاً بالشتائم والصراخ والبكاء.

* * *

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

من المطر تأتي كلوديا. شعرها مبلل، تخلله بأصابعها الرخصة الطويلة وهي تضحك، وحالاً تدخل المطبخ.

ـ سأعد القهوة.

ـ متى عدت؟

ـ البارحة.

ـ لم تتصلي؟

ـ كنت تعبة.

ترشف من فنجانها فيعلق خيط من الرغوة على شفتها العليا تمسحه بلسانها. حركتها المباغتة هذه ترعشني. تبدو فاتنة، وهي ترمقني بعينين تبسمان. هي الآن أجمل من أي يوم مضى.

ـ افتقدتكِ.

ـ ماذا فعلت؟

ـ وضعت مخططاً للرواية، ودونت ملاحظات عن بعض الشخصيات.

ـ رائع.

ـ وأنتِ، ما أخبارك؟

ـ همم.. لا شيء.. بقيت مع أمي الأيام كلها. حالتها صعبة. أتدري كيف تشعر امرأة بهذا العمر، تحس نفسها وحيدة ومهجورة؟

ـ زيارتكِ ساعدتها.

ـ فرحت مثل طفلة، وحين ودعتها توسلت أن لا أقطع زياراتي. وعدتها: حسناً. لم تستطع منع دموعها.. أوه يا سامر، دائماً هناك شيء ليس على ما يرام.

ـ وبعد؟

ـ خرجت مرة واحدة مع بعض الأصدقاء. رقصنا وسكرنا، ولا شيء آخر.

حدقت فيّ.

ـ ماذا؟ تبدلت سحنتك.

ـ لا، لماذا؟

ـ الغيرة.

ضحكت واقتربت منها. احتويت وجهها بكفيّ. كان فيه تألق غريب.

ـ أنتِ اليوم ساحرة.

ـ وأنت تشتعل رغبة، وهذا ما يجعلك تراني أكثر فتنة.

ـ أنتِ أكثر فتنة حقاً.

ـ ربما لأني مغرمة برجل.

ـ ربما؟!

ـ ربما.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

بعد ساعة تسلط عليّ هدوء غريب. جلست باسترخاء أدخن، صاعداً مع موسيقى (ماني) إلى مدار خلاب، وكلوديا ما تزال على السرير، مستلقية على بطنها، بردائها الداخلي الشفاف، تقلِّب مجلة مصورة.

ـ ألست جائعاً؟

ـ بلى.

حذّر التلفاز المحلي الصيادين من هيجان البحر ليلاً. خرجنا وكلانا يرتدي قمصلة جلدية سوداء، وكانت كلوديا تضع على رأسها قلنسوة، وفي محيطها الأسود كتابة بالإيطالية عن الشركة المنتجة أو غيرها. أردت أن أسألها إلاّ أنني لم أفعل. ها هي كلوديا تفاجئني مرة أخرى.

ـ ما هذه؟

ـ تعال.

أمسكتْ بمقود الدراجة النارية المركونة في المجاز الأرضي وأخرجتها إلى الشارع. نزعت قلنسوتها ووضعتها في الحقيبة ولبست الخوذة المزججة. امتطت الدراجة بحركة رشيقة وشغلتها.

ـ اركب.

ركبت خلفها.

ـ أمسكْ بي جيداً.

وانطلقت.. راح الهواء يجلدني ببرودته. ألصقت وجهي على ظهرها. كنا طائرين بالسرعة القصوى. خشيت أن أنبهها، فهي في هذه الحالة ستتمادى أكثر. وقفت أمام مطعم صغير. أكلنا بطاطس، وشرائح من لحم الدجاج، ونوعين من السَلَطة مع كأسي نبيذ، وخرجنا.. قالت؛

ـ سنذهب إلى الشاطئ.

قلت؛ الطقس سيئ.

قالت؛ هذا أفضل.

لم أمانع بالطبع.. دائرة الأنواء الجوية تقول؛ العاصفة البحرية على وشك الهبوب، لهذا خلا البحر من زوارق الصيد..

تقول كلوديا؛

ـ أنت لا تدري كيف هي العاصفة؟

أقول؛ لتكن كيفما تشاء.

كلوديا هادئة كما البحر قبل ساعة من احتدامه، ولا أدري كيف ستتصرف حين ستلطم جبال الماء خاصرة المرفأ.

تقول؛ مهما حصل سنبقى هنا.

في صوتها رنة إصرار وتحدٍ.. أقول بشيء من لا مبالاة متهكمة؛

ـ سنبقى كلوديا، سنبقى.

تغني كلوديا.. يسيل صوتها، في مواجهة البحر، رفيعاً دافئاً وعميقاً، فيه بحة حزن ولوعة غريبة، كأنها فاقدة لشيء ثمين لا يعوّض، أو باحثة عن شيء، تعرف أن لا وجود له البتة.. كلوديا تغني.. يخيل إلي أنها تغني. صوتها الناحل الأسيان يداهن البحر أو يشاكسه، أو لأجل أن يروض العاصفة. أي خبل جميل هذا الذي يناور ضد الموت؟

أقول لها؛ ماذا لو أغادر.

تنتفض؛ إلى أين؟

أقول؛ إلى حيث أجد نفسي.

ـ وهنا؟

تسأل فأقول؛ "هنا يا كلوديا لا شيء راسخ أو أكيد".

تقول؛ "وكيف تضمن، في أي مكان، الراسخَ والأكيد؟".

أقول؛ "ربما حيث أستطيع أن أحلم".

تقول؛ "أين، أين؟ ثم ما حاجة أي أحد للراسخ والأكيد؟".

نكف عن الكلام قليلاً. نتسمع للهدير الخفي للبحر. لحشرجة الماء المصمتة. للأنين البعيد الذي ينبث من اللامكان، أو من كهوف أرواحنا.

أقول لها؛ "يوماً ما، قبل سنوات طويلة، في سني يفاعتي، كنت متيقناً من نفسي، ومن صلابة الأرض تحت قدمي. وكان هناك وضوح أكبر. كما لو أنني، الآن، غادرت ذلك الحلم".

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

تقول مستنكرة؛ "كم تعوّل على الأحلام؟".

أقول؛ "حلمي أن أجد نفسي. أن أدرك المعنى".

تقول؛ "قد تنفق العمر كله من دون جدوى".

أقول؛ "سيكون عزائي عندئذ أنني حاولت".

* * *

يحف بنا الليل والبحر، وينطلق زعيق طائر تائه.. جالسان على الحائط الواطئ للمرفأ، نتأمل اللاشيء بلا كلام. تهمس في أذني؛ "برداني".. أحضنها.. تسأل؛ "أتحلم؟". أشدها أكثر. أثبّت نظري بنقطة مضيئة في سواد الأفق. أصيخ لنشيج الموج وهو ينهض رويداً رويداً ويقترب منا. تقول؛ "أتشعر بالوحشة؟". أقول؛ "لولا أنك معي".. رأسها على كتفي ووجهي على شعرها. تدنو نقطة الضوء، ثم تنحرف. هو زورق صيد صغير.. تقول؛ "سيهيج البحر".. أقول؛ "فليفعل".. تقول؛ "وربما سحبنا إلى أعماقه".. أقول؛ "فليفعل".. تضحك كلوديا. ضحكتها قصيرة مؤسية. أقول؛ "أتتمنين لو أنك الآن في مكان آخر؟". تصيح؛ "هذا هو المكان الآخر".. ونبقى نترقب دقيقة بعد أخرى كيف سيجن البحر.

تقترح كلوديا، مع أول نَفَس للعاصفة، أن نسبح.. أن نلج البحر على الرغم من أي شيء. أن نشاركه عبثه اللاهي. لعبته الماكرة الخطرة،

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

فأُخبرها؛ أنْ لا مانع لدي. يخلع كل منا قمصلته وحذاءه ويبقى بالبنطال والقميص.. ومع أول جيشان حافل نفضُّ اشتباك جسدينا ونقفز معاً لنسلمهما لعتمة البحر. نخوض، في لحظة جنون، مغامرة الروليت المميت، فأجدني تارة أقاوم الموج، وتارة أستسلم لهواه المتقلب الصعب. أسبح حتى تكل ذراعاي وكتفيّ، أو أتركني ليتقاذفني البحر بين أصابعه الهائلة.. كلوديا قربي.. كلوديا بعيدة.. كلوديا فوق الزبد الأسود.. كلوديا تحت العتمة اللاعبة.. كلوديا وأنا، كلانا كائن في الموت. كلانا ضائع على حافات الحياة. أترانا نبتعد، واحدنا عن الآخر، أم نتحد/ نتحد عند فوهة الهاوية؟ نروِّض الهاوية بتواطؤ مع البحر. البحر/ الطفل. البحر/ الشيخ الطائش بصيحته العالية.. ماذا لو تخاطفنا الموج؟ ماذا لو سلمتنا العاصفة لشدق الوحش، ثم لجوفه العميق الساكن؟ أية نزوة صوفية هذه التي تغري كلوديا فتدفع بي لنتحد معاً في النشوة والموت؟ وما الذي يجعلني أطاوعها في جنونها هذا؟ كأن البحر يسامرنا على طريقته. يطوقنا بمزاجه الشرس. يغوي ذلك الجزء الغافي فينا، الجزء المارق.

كم مر من الوقت؟ وإلى أي الحدود رضخنا لصوت نزقنا اللامسوّغ، الممتع، والضروري؟ وإلى أي الهاويات سحبتنا الأمواج قبل أن تلقي بنا على الساحل وتسلمنا للجدار الواطئ؟ لا أدري.. رأيتها تتشبث بالجدار لاهثة شعثاء فتشبثت بالجدار إلى جانبها لاهثاً أشعث، وكلانا واهن

القوى وبردان، والبحر يلطمنا.. قالت؛ "خشيت أن لا تخرج ثانية". قلت وأسناني تصطك؛ "وأنا هناك، بين الأمواج، كنت أفكر بنصف رأسي بوضعي ووضعك، وبالنصف الآخر بجنونك المعدي". قالت؛ "وما الذي يجعلك تطاوعني؟". قلت؛ "لعله ذلك الحس الشرقي في أن لا أخاف أمام امرأة". قالت؛ "وهل لا يخاف الشرقي النساء؟". قلت؛ "هو على الأقل يُظهر هذا".

* * *

نقف بعد أن ارتدينا ملابسنا ونحن نرتجف على الجانب الآخر من جدار المرفأ.. تهرش، الآن، العاصفة البحر، فيعيط البحر مثل طائر هائل، جريح وساخط يسوط الساحل بجناحيه الأسودين. يرشقنا برذاذه المالح فتلوذ بي كلوديا. أشدها أكثر وتشدني كما لو أننا، وقد أحاطت بنا الظلمة والصخب، سنضيع إذا ما أفلت أحدنا الآخر.

* * *

لم أخطط لمقابلة السيد ألبرتو لكنه كان هناك. كان الوقت بعد الظهر والمطر يتساقط وروحي مستوحشة.. تركت الشقة إلى الشارع، وفي الشارع فكرت أن أذهب إلى شقة كلوديا علني أجدها وفوجئت بأبيها معها وهما مستغرقان في نقاش حام بالإيطالية. وخمنت أن كثيراً من الشتائم

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

تتناثر في الفضاء. فكرت أن أنسحب غير أن الرجل أصر على بقائي. هدأ وجلس مع كأس ويسكي، وطلب مني أن أجلس.

كان لطيفاً، شديد الثقة بنفسه. فيه استعلاء من ذلك النمط الذي يميّز رجال الأعمال في كل مكان. خمّنت أنه في منتصف عقده السادس، على الرغم من أنه يبدو أصغر من ذلك بعشر سنين. تحدث وكأنه يعرفني من مدة طويلة.

ـ في صحتك.

رشف من كأس الويسكي ورمقني بابتسامة خفيفة ماكرة قال؛ "كلوديا عرّفتكَ بعبارة؛ رجل مثير للاهتمام".

ضحكتُ.. صاحت كلوديا: "بابا...".

قال: "ربما تراك مختلفاً".

خيم صمت متوتر. وأزاحت كلوديا خصلة شعر نافر وحدجتني وكأنها تعتذر.. قلت لأناكدهما:

ـ شكراً، ولكن هل أنا مختلف لأنني مَعْجَبة.. آخر.

ـ المعذرة.. آخر؟!

ـ أقصد، مِن هناك.

قهقه السيد ألبرتو، وهز رأسه؛

ـ لا، لا، لا. يظهر أنك حساس أكثر مما ينبغي إزاء هذا الأمر.

ـ لا أدري.. ربما.. لكنك بلا شك تعلم أنني موجود بشكل غير شرعي في بلدكم. لماذا أمنع من دخول هذا البلد، أو أي بلد، ما دمت لم أقترف ذنباً؟

ـ إنها ملابسات التاريخ والسياسة يا صديقي. حسناً، أخبرتني كلوديا أنك بصدد كتابة رواية.. ترى ما موضوعها؟

شعرت أنه يريد تغيير دفة الموضوع.

ـ نحن.

وأشرت إلى نفسي. ثم فتحت ذراعيّ.

ـ والآخرون... أو أنتم.

وأشرت إليه.

ـ والآخرون.

ونقرت بإصبعي على صدري.. قهقه ثانية.

ـ اعلم يا صديقي أنّ هذه معادلات عتيقة يتاجر بها بعضهم من أجل مصالح، وحروب قادمة. حروب دائمة.

ـ معادلات عتيقة.. نعم.. غير أنها ما تزال فاعلة، وهي من مبتكرات الغرب.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ ليكن.. ربما.. أجل، أوافقك نسبياً، ولكن العالم يتجه اليوم بالضد منها. سيكون عالم المستقبل واحداً. سوقاً واحدة كبيرة، للجميع فيها الفرصة ذاتها.

ـ هذه يوتوبيا، سيد ألبرتو. قد يكون العالم متجهاً نحو اتحاد أكثر، لكن هل ستعم فيه العدالة؟ هل حقاً ستكون الفرصة ذاتها متاحة للجميع؟ ألن تبقى حقائق القوة والسلطة تتحكم بأقدار الإنسانية؟

رشف من كأسه ثانية، وقال؛

ـ أنا أثق بالعلم، فهو كفيل بالإطاحة بالمعادلة اللعينة تلك بشرط أن تكونوا أنتم أيضاً قادرين على الانخراط في اللعبة؟

ـ كيف؟

ـ أنتم تتعاملون مع العالم ثوابت أكثر مما تتعاملون معه متغيرات، أما نحن فنفعل العكس، ولهذا، ربما. أو لهذا السبب ترانا أكثر مرونة وقدرة في السيطرة على مقادير الأمور.

ـ الإنسان بحاجة دائماً لبعض الثوابت، كي يستمر.

ـ بشرط أن تكون قابلة للتغيير هي الأخرى.

ضحكنا، وحاول هو أن يغير مجرى الحديث ثانية.

ـ ألا تعتقد، يا صديقي، أن زمن الرواية قد انتهى؟

ـ لا. هذا أمر آخر، عويص وملتبس. كتب الغرب روايته، وقد يكون انتهى منها، ولهذا يتحدث هنا بعضهم عن موت الرواية. إلاّ أننا هناك، ما زلنا نكتب روايتنا. روايتنا الشائكة والمتشعبة والمتسائلة والباحثة عن الإنسان وحريته وكرامته، وربما لن ننتهي منها حتى وقت طويل.

ـ لست خبيراً في مثل هذه الأمور. وأنا شخصياً لم أقرأ أية رواية منذ عشرين سنة.

ـ روز.. أقصد كلوديا تقرأ.

وتلفّتُ للمرة الأولى إلى كلوديا. كانت جالسة إلى جانبي بيدها فنجان قهوة. بدت منتشية، وقد تخلصت من عصبيتها التي أثارها نقاشها الحاد مع أبيها. وكانت غير راغبة في الحديث.

ـ كلوديا تقرأ كتب الرحلات وتحلم باكتشاف مجاهل جديدة في الشرق. إنها رومانتيكية. أقول لها، لم تعد ثمة مجاهل في أي مكان من سطح الأرض. المجاهل هناك في أعماق الأرض وفي الفضاء.

قالت كلوديا؛

ـ أريد أن أعيش متعة رحلة في الصحراء، أو في غابات إفريقيا، أو على طريق الحرير، ولا أحلم باكتشاف ما.

قلت؛

ـ تريدين اكتشاف نفسك في الرحلة. هذا ما أعتقده.

ضحك السيد ألبرتو، وقال؛

ـ هي في السادسة والعشرين. أتراها لم تكتشف نفسها بعد؟

ـ الإنسان يكتشف نفسه على الدوام. المجاهل الحقيقية هي هنا، في أعماقنا.

نظر إلى ساعته، قال:

ـ أتدري، الحديث معك ممتع. لم أحظ بعراقيين أتحدث معهم. سنلتقي مرة أخرى.. أرجوك كلوديا، هيئي لي لقاء آخر مع صديقنا المشترك.

وقام ماداً يده لمصافحتي.

ـ لا تخش السلطات كثيراً. لي نفوذ واسع هنا، وأستطيع أن أرتب لك وضعاً مناسباً.

ـ أشكرك جداً، لكني لن أمكث هنا طويلاً.

ـ في الأحوال كلها أنا مستعد لمساعدتك.

بعدما غادر السيد ألبرتو، قالت كلوديا وهي ترشف ثمالة قهوتها؛

ـ منحته انطباعاً بأنك أحد قادة المنظمات المتطرفة.

ألفيتني أقهقه قبل أن أقول؛

ـ ليس إلى هذا الحد.. ليس إلى هذا الحد. لا شك أنك تبالغين، كلوديا.

ـ ولكن الأمر لم يكن سيئاً.. بالمناسبة، قل لي، ما قضية المَعْجَبة والآخر التي تحدثت عنها؟

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ كنت أبغي نقاشاً مثيراً.

ـ كنتَ مخطئاً. ليس هذا الذي يجذبني إليك.

ـ آسف كلوديا. أعرف مشاعرك وأفكارك. قلت إنها طريقة لإثارة موضوع للنقاش.. هل ستمضين بعض الوقت معي؟

ـ كم الساعة؟ آه، سأمنحك ساعتين.. ماذا تقترح؟

ـ أي شيء يناسبك.

ـ نخرج.

جلست في الصالة أدخن حين دخلت هي لتستحم.. تناولت صحيفة التايمز بالإنكليزية. لم ألحظ تاريخ صدورها.. قرأت عناوين بعض الأخبار، واستهلال مقال عن منظمة الغات لم يثرني، وتقريراً عن أسرار علاقة غرامية بين سياسي بريطاني وممثلة من الدرجة الثالثة، عفته قبل أن أنتهي منه، وآخر عن الأزمة الاقتصادية في الأرجنتين، وأخيراً عن تعثر مسيرة السلام في الشرق الأوسط.

أقبلت كلوديا فرفعت رأسي.. كانت تضحك. وضعت الصحف جانباً وقلت لها بالعربية؛

ـ حلوة أنت، وردة، تخبلين.

ـ شكراً.

قالتها بالعربية أيضاً، وقدمت لي خدها فبسته.

قادت كلوديا سيارتها عكس اتجاه البحر.. وصلنا الضواحي، ومن ثم وجدنا نفسينا في طريق ريفي نستمع إلى موسيقى عذبة؛ كسّارة البندق لجايكوفسكي، ولا نقول شيئاً.

* * *

ريح جهمة جلدت الأشجار، واقتلعت المظلات الملونة واستفزت البحر. هكذا باغتني خريف مكفهر بارد.. احتشدت الغيوم، وسقط المطر، واختفى العشاق والأطفال والأفاقون والكهول والعجائز والأمهات السعيدات والرجال الضجرون واللصوص.. خلا، أو كاد، الساحل، والمقاهي والمقاصف.

غادر السياح فبدت طرقات المدينة أقل ازدحاماً في النهارات الكامدة، وشبه مهجورة في الليل، فصرت أشعر بالوحشة والمرض. لم أكن على ما يرام، ولم تكن كلوديا على ما يرام. قلق غامض بات يسعى في دمها وروحها. يربك حركاتها. سألتها وهي تهاتفني عمّا بها. كانت نبرة صوتها مرهقة.. قالت؛

ـ متاعب اعتيادية.

ـ كيف أستطيع أن أساعدك؟

ـ إنها أشياء تخص أبي. هناك من لا يدعك تحيا باطمئنان.

ـ أهناك أية مخاطر؟

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ لا، لا.. أخبرتك أنها متاعب اعتيادية من تلك التي تواجهه بين الحين والحين.

اقترحتُ أن تمر عليّ لنخرج معاً لأنني، كما قلت لها، سأنفجر أو أجن.

ـ أحتاج لأتكلم كلوديا، وليس هنا من أتكلم معه سواك والحيطان.

بعد ساعة كنا في مقصف شبه خال، على الساحل.. بشهية مسدودة تناولت شطيرة لحم مع كأس نبيذ، وكذلك هي.. قلت لها؛

ـ متاعب أبيك تقلقك، أما أنا فيقلقني وضع بلدي؟

ـ بلدك؟ هل من جديد؟

ـ هو الجديد القديم. حصار وأطفال يموتون في كل يوم، ولا أحد يهتم. لا الحكومة، ولا المجتمع الدولي. هناك الموت بأنواعه وأشكاله. وهناك اليورانيوم المنضب الذي ينخر في الأجساد. يقولون أن تأثيره سيبقى لآلاف السنين. وأيضاً التهديدات بحرب جديدة.. أتدرين ماذا تعني حرب جديدة، ولا سيما إذا كانت مثل سابقاتها؟

ـ ما الحل في نظرك؟

ـ من يدري يا كلوديا؟ نحن بين نارين. بين احتمالين أحدهما أكثر مرارة من الآخر، الاحتلال والديكتاتورية؟

ـ وماذا تستطيع أن تفعل؟ ماذا نستطيع أن نفعل؟

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ ليتني أعرف. في هذا الزمن، إزاء وضع مثل وضعنا لا أحد يعرف على وجه التحديد ماذا عليه أن يفعل؟

نخرج في البرد إلى الساحل. أحسني متعباً ومصدوعاً قليلاً. نجلس على مقعد خشبي في مواجهة البحر. جيشان البحر الرتيب والعتمة النازلة يشعرانني بالنعاس.. لو أغفو. أغفو على ذراع كلوديا. كأنني أخوض في بحر يتعثر. يقلّبني، كما الصلصال في يد عابثة. وحدي في اللجة، والبرد يذل جسدي. يشيلني الماء، ويقذفني. أنا في مكان آخر. أرى عمود دخان أبيض يصعد من وراء قوس البساتين. ويملأ الفضاء حولي هدير صاخب. يتهيأ لي أنني في عصر غير هذا. في زمنٍ ماضٍ قبل أن أولد. في بلدتي ربما. يخرج القطار القديم دائراً حول النخيل. عرباته تغص بالجنود. سحنهم متجهمة، يلبسون خوذاً حديدية، ويحملون بنادق عتيقة من ذلك النوع الذي يسمى

((الإنكليزي)). أحدهم يصوب نحوي غير أن خالداً في اللحظة الأخيرة يسحبني من يدي فأراني أسقط معه في الماء. من أين جاء خالد؟ الماء أكثر عتواً الآن، وخالد اختفى. وحدي مع الرعب.. تنقذني كلوديا من البحر.. ما لك؟ كابوس.. أنت ترتجف، أنت مريض.

أنا مريض، والريح تنوح.. تعيدني كلوديا إلى الشقة كي أنام.. أنا أنام.

* * *

فاجأتني بدخولها.. لم تنبئني مسبقاً عن وصولها أو عن رغبتها في الحضور. فتحت باب الشقة بالمفتاح الذي معها.. "هاي".. مشت نحو طاولة الشراب. التقطت كأساً. فتحت البراد، أخرجت دلو قطع الثلج، وضعت قطعتين في الكأس. فتحت سدادة زجاجة الويسكي وصبت. ارتشفت قليلاً، استلت علبة سجائرها من حقيبة اليد، أشعلت واحدة بقداحة حمراء اللون أخرجتها من جيب سترتها، وجلست، واضعة ساقاً على ساق، تدخن. كانت ترتدي بنطال جينز وسترة من الفراء الأسود. ألقيت المجلة التي في يدي على الطاولة وقمت لأغير ملابسي.. "سنخرج".. قالت "لا، لا رغبة لي".. قلت "حسناً"، ولم أضف.. جلست قبالتها. شربتْ كأسها وملأتها ثانية، وأبقتها في يدها.. "ما بك؟".. "لا شيء".. فكرت أن أشرب، ولم أفعل. أخبرتها أنني كتبت بضع صفحات.. لم ترد.. "أظنني وقعت على البداية الصحيحة، سأغير من مسار الرواية".. لم تنبس.. "أنا مطمئن الآن".. "حسناً"، ولم تضف.. كدت أسألها ثانية؛ "ما بك؟". لم أسأل. كرعت الكأس الثانية دفعة واحدة، تقلصت ملامحها وأغلقت عينيها، كما لو بألم، ثم زفرت.. "لستِ على ما يرام".. لم تعلق.. خلعت سترتها فبان بياض رقبتها، انشغلت لبرهة بتأمل ذلك الامتداد الباهر المفضي إلى أمكنة السحر والرواء. كان يمكن لرغبتي فيها أن تحتدم، غير أنها لم تكن حقاً بحالة

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

جيدة. دخلت الحمام.. عدت إلى مجلتي، قلبت الصفحات. توقفت عند صورة امرأة بدينة تتحدث عن زراعة الزهور في حديقة البيت. كانت تضع زهرة حمراء في شعرها، وتمسك في يدها بباقة وهي تبتسم. كانت بدينة. لا أدري إن كان لكلوديا هوس بزراعة الزهور. ليس هذا الوقت المناسب لسؤالها. لم أقرأ سوى المانشيت؛ سيدة الزهور تدعوكم.... لم تخرج كلوديا من الحمام. ربما كانت تتقيأ. هل عليّ أن أرى فيما إذا كانت بحاجة إلى مساعدة. أغلقت المجلة، ولم أتحرك نحو باب الحمام.. تأخرتْ. فتحتُ البراد وأخرجت زجاجة بيرة. إنْ لم يكن بالإمكان أن نفعل شيئاً آخر، فلم لا نسكر. أعدت الزجاجة.. الويسكي أفضل. أدرت منه قليلاً في كأس، وأسقطت قطع ثلج عليه وشربت. شعرت بالحرقة في بلعومي. ما تزال كلوديا في الحمام. اقتربت من باب الحمام من دون وعي، أو بسبب قلقي لأنها تأخرت. لم أكن أعرف فيما إذا كانت تستحم أو تقضي حاجتها أو تتقيأ. لم أسمع شيئاً. مشيت نحو باب الشرفة ولم أفتحه. لا بد أن الطقس سيئ في الخارج. هذا ما كان عليه الأمر منذ الصباح.. أزحت الستارة.. الليل هبط مبكراً.. إنها تمطر.. خرجت كلوديا من الحمام. "هل سمعت شيئاً؟".. قلت؛ "ماذا؟".. "اللعنة، أمعائي مضطربة".. قلت؛ "اطمئني، لم أسمع شيئاً".. "شيء مريع".. "ألستِ بحاجة إلى دواء، إلى علاج، في البراد دواء للإسهال".. "لا، ليس إسهالاً، اضطرابات في

المعدة".. أدارت كمية أكبر من الويسكي في كأسها، مع قطع ثلج.. "سيؤذيكِ الشراب".. "هو علاج جيد".. "اجلسي".. لم ترد ولم تجلس.. جلستُ وبدأتُ أقلّب صفحات المجلة.. "هل من اللياقة أن تفعل هذا".. "آسف".. وضعتُ المجلة ثانية.. "إنك لستِ على ما يرام، ولا أخالك تتحدثين".. "قذارة، قذارة، ما يحصل قذارة ليس إلاّ".. "عم تتكلمين؟".. "أبي وأمي".. "ما بهما؟".. "جاءت أمي وتشاجرا، هددها بطريقة قذرة وقالت إنها ستنتحر".. سكتت وارتشفت جرعة صغيرة.. "ربما عدت إلى الحمام".. "أواثقة أنك لست بحاجة إلى دواء".. "قذارة".. دخلت الحمام ولم تتأخر مثل المرة السابقة.. حاولت أن أقول شيئاً، وشعرت بالعجز. لم أكن متعاطفاً معها في مشكلتها هذه. لم تكن تعنيني. هكذا أحسست. عجبت لحالة اللامبالاة هذه التي تلبستني.. قالت؛ "كاد يضربها، كلاهما مجنون".. "وأين أمك الآن".. "عادت إلى روما، رجوتها أن تترك السيارة وتذهب بالقطار".. جلست كلوديا، جلستُ.. رفضتْ، "يا لها من...".. "هوني عليك، هذا يحصل".. "ولماذا يحصل؟ قذارة".. "أنت ترددين كلمة لم أسمعها منك قبلاً؟".. "سمعتها من إيرلندي صباح اليوم، والتصقت في مكان ما في رأسي". ضحكتُ من غير سرور.. "ألسنا بحاجة إلى بعض التسلية؟".. "من أي نوع؟، أخشى أنك تفكر...".. "كيف أفكر؟".. "بقذارة".. ضحكتْ

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

من غير سرور، أيضاً؛ "لست مستعدة".. "لم أكن أفكر بقذارة".. "يبدو أنها في رأسي المريض فقط".. "هيا".. "ماذا؟".. "نخرج".. "الطقس سيئ".. دخلت الحمام مرة أخرى.. "لست على ما يرام".. "دعك".. خرجت، شربت ما تبقى في كأسها.. "كفاك، ستسكرين".. "أليس من الأفضل أن نثمل هنا".. "ليكن، لكني لا أريدك تتأذين".. "على العكس، هذا سيساعدني".. "ليكن".. التقطتُ قطعتي ثلج ووضعتها في الكأس وأدرت السائل الذهبي من الزجاجة.. "يا لك من مبتدئ تعيس في الشرب".. رن جرس الباب.. "من يكون".. "وكيف ستعرف إن لم تفتح".. "هل يعرف أبوك العنوان".. "قذارة".. فتحت الباب.. دخل والدها بهياج مخمور.. تحدث معها. دخلا في سجال حاد بالإيطالية. لم أفهم شيئاً. قلت؛ "أرجوك سيد ألبرتو اجلس".. أشار بيده بعصبية رافضاً.. انسحبت، وكأسي في يدي. جلست قريباً من الشرفة وشربت السائل اللاذع.. اللغط يرتفع. تقذف كلوديا بكأسها فتتهشم على الجدار، ويتناثر قليل السائل الذي فيها.. وقبل أن يخرج الرجل يركل طاولة في طريقه فتسقط آنية الأزهار الاصطناعية. الآنية لا تنكسر. تتفكك باقة الزهور وتتناثر. يغلق الباب بقوة من دون أن يقول كلمة. لا أفقد الإحساس بالراحة مثلما ينبغي أن يحصل، كما لو أن كل شيء يحدث على مسرح، أو على شاشة التلفاز. كأن المشهد يمتعني. تقول؛ "أمي عادت

وهددته، آسفة سامر".. "أنت مجنونة، ما كنت أتوقع كل هذا الجنون الذي فيك، إنك تفاجئينني".. "يبدو أنه خائف فعلاً، أمي تحدثت عن قاتل مأجور".. "هراء".. "هو لا يقتنع".. "وأين أمك الآن؟".. "من يدري، عند الشيطان".. "أفهم شعورك، كنت طفلاً حين كان أبي وأمي يتشاجران، ولو عاشا حتى الساعة لفعلا الأمر نفسه".. "أتراك محظوظاً لأنهما متوفيان".. "لا يحق لي أن أفكر هكذا".. "سارتر قال أن أباه فعل حسناً بموته المبكر".. "ذلك سارتر".. "هو أقل نفاقاً".. "المعذرة".. "لا تهتم، لست أفضل منك في هذا".. "لا ألومك".. لملمت سيقان الزهور الاصطناعية ودستها في الزهرية. أعادت الطاولة إلى مكانها وسوت المفرش الصغير عليها ووضعت الزهرية. تنبهت إلى شظايا زجاج كأسها. قرفصت وراحت تلتقطها. قلت؛ "غداً ستنظفها الخادمة".. "الآسيوية".. "ستجرحين أصابعك".. "بعض الدم لا يهم".. "احترسي".. "موعدها غداً".. "من؟".. "الخادمة الآسيوية".. "أجل غداً".. "عاهرة صغيرة".. "أنت تغارين".. "لست أفعل، ولِمَ أفعل، أنت مغرور".. "أنا لا أعرف أحداً في هذه المدينة، أنت أتيت بها".. ضحكت بعصبية.. "قذارة".. "مسكينة".. "من؟".. "الخادمة الآسيوية".. "لماذا تلبس هذا الشيء الداعر دائماً".. "ما شأننا نحن".. "أين تراها الآن؟".. حدقت فيها باستغراب..

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

"أقصد أمي، أخشى أن تسبب حادثاً".. سكبت مرة أخرى الشراب في كأسها، واحتست قليلاً. فعلت الشيء ذاته.. "سيطيح بنا السكر الليلة".. "وهل لنا شيء آخر نفعله؟".. رن جرس الهاتف قامت إليه.. ظننت أنه والدها، وإلاّ من يكون؟ صاحت؛ "خراء"، وأقفلت الخط.. "إنها هناك، في شقتي".. أردت أن أسأل؛ "كيف دخلت، وكيف عرفت أنها موجودة هنا في شقتي؟". كان يمكن أن يكون سؤالاً غبياً. للحظة فكرت أن الأمر لا يعدو كونه مشهداً في فيلم كوميدي، أو كما لو أنه حلم معجون ببعض الكوميديا. وبدا أن ما يجري برمته ليس إلا مناسبة لإخراجي من هذا الملل القاتل. وخطر لي أنني بحاجة إلى مثل هذا التغير والفوضى اللامعقولة، فانفجرت بالضحك. لم أضحك بإرادتي الكاملة.. شيطان الضحك استيقظ وراح يشاكس مصداتي. جلست على الأريكة وأنا أثني إحدى ساقيّ تحتي، وكدت أنقلب على قفاي. راحت تحدق بي باستغراب وإنكار.. "ما هذا؟". استمررت بالضحك. كنت أقهقه بمرح مخمور وهي واقفة وكأسها الفارغة في يدها. شفتاها تفتران عن تعبير غامض، لا أعرف إن كانت سترميني بالكأس الثانية التي التقطتها، أو تترك الشقة وتذهب، أو تقوم بأي فعل أخرق آخر.. حاولت أن أصمت، أن أنهي هذه القهقهة العالية، ولم أقدر. جلست كلوديا وابتسمت. في البدء كانت ابتسامة فاترة، تفصح عن دهشة أكثر مما تفصح

عن غضب أو انزعاج. اتسعت ابتسامتها. وضعت كأسها على الطاولة. راحت تنظر إلى لوحة رينوار غير الأصلية كأنها تتهرب من مواجهتي، وحتى مواجهة نفسها. إن شيطان الضحك يباغتها. يمد أصابعه الخفية إلى روحها فاتحاً أفقاً لرؤيا هزلية، لعبث فاتن تجلى في لحظة على شكل ضحك عارم، عصبي، تهيأ لي أنه ينقّي جزءاً كدراً فيها. كلانا بات يتطهر في كرنفال الضحك هذا.. "اللعنة عليك".. دقائق مرت قبل أن تسترخي منا الأعصاب والعضلات. رأيت الدموع تملأ عينيها فأخذت تمسحها بأصابعها.. "إنك لا تبكين".. "قطعاً لا".. أمسكت كأسها الفارغة ومشت نحو طاولة الشراب.. "ألا يكفي هذا؟".. "وماذا بقي غير هذا، سأملأ لك كأسك".. "لم أعترض".. وهي تناولني كأسي قبلتني من فمي وجلست إلى جانبي.. "هذه أمور تحصل، لي صديق يقول حين تواجهه مشكلة، فكر بالعالم كيف هو بعد ألف سنة، ستبدو لك مشكلتك تافهة".. "قذارة".. "نعم، قذارة".. اتصلتْ بالهاتف.. لا شك أنها تريد التحدث إلى أمها.. استغرقت المحادثة دقائق قليلة. عادت وقالت أنها غير مستعدة للذهاب إلى شقتها والدخول في معترك سخيف آخر.. "أمي لا تطاق، مجنونة، كلاهما أحمق".. "عودتها تجعلك تطمئنين".. "هي جبانة في نهاية الأمر، لن تنتحر، ولن تؤجر قاتلاً".. "الخوف أعادها إذن في هذه الليلة الممطرة".. "أجل".. شربت قليلاً، وفعلت

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

مثلها.. أشعلت سيجارة أخرى.. أشعلت أنا بدوري أيضاً سيجارة من علبتها.. كنت تحت طائلة سكر خفيف، منتشياً، وراغباً بجسدها. أنظر إليها عبر حلقات الدخان.. "لا تنظر هكذا".. "أموت عليك".. "كذّاب"، تقولها بالعربية.. "والله".. "تريد إغوائي".. "وماذا في هذا؟".. "في هذه اللحظة عقلك وروحك يجيشان في خصيتيك".. "وما أدراك".. "أرى من وراء الحجب".. "لا أرغمك".. "لست جارية أو زوجة شرقية لترغمني".. "وإذن؟".. "المريخ أقرب إليك".. "لا أتوسل إليك".. "إن توسلت هجرتك".. "لست شبقاً جداً كما تتصورين".. "لم أتصورك شبقاً قط".. تشرب فأشرب. تقوم إلى حقيبتها.. تستل فوطة نسائية، وتحدجني.. أنفجر بالضحك.. تغمز وتضحك.. "أحبك".. تقول كلمة (أحبك) بغير جدية، أو تصميم رومانسي.. "كذابة".. تخرج لسانها لي وتمشي نحو الحمام.. تغيب في الحمام بعض الوقت.. أقوم وأزيح الستارة.. أضواء المدينة متشنجة في المطر.. لمّا أقبلت كنت لا أزال أراقب تشنج أضواء المدينة تحت المطر. التصقت بي من الخلف، وأحاطت بطني بذراعيها. شعرت بدبيب حرارتها تتسرب فيّ وتزيدني سكراً. أغلقت عينيّ لأتمثل هذا الفيض الغسقي العجيب يغمر مني كل خلية، ويكاد يغيبني. أفتح عينيّ. حرارة أنفاسها المخمورة على رقبتي، والمطر يسيل على زجاج النافذة، يهشم الأضواء، بيد أنه يرمم فيّ

صدعاً، كما لو أنه هناك منذ مئات الأعوام. قريبة هي مني الآن قرباً باهراً، كأننا نتلاشى في عدم عذب، أو نتوحد على تخوم فردوس مستعاد. كأنني لست أنا. كأنها ليست هي.. "سأنام، أريد أن أنام بين ذراعيك".. "دعيني أذهب قليلاً".. "لتبول".. "لأبول".. أعود فتذهب هي.. "لتبولي".. "لأبول".. تعود وتقودني إلى السرير. تضمني إليها. أضمها، تقبّلني. تسحق أنفي بأنفها، تلثم رقبتي.. "خبيثة أنت روز".. "روز، أيضاً، أحب هذه الكلمة، لماذا أنا خبيثة؟".. "تثيرينني".. تضحك.. "نم يا صغيري".. أضحك.. ضحكتي خافتة مثل ضحكتها، ذائبة في السكر والتعب.. "آسفة سامر".. "نامي صغيرتي".. "ضمّني".. "ألست أضمك".. "اسحقني".. أشدها.. "أقوى".. أشدها؛ "نامي زهرتي".. "أنا روز".. "أنت زهرة برية تؤنس وحشة البدوي".. "أريد حرارة أكبر".. "شمس".. "لتكن شمسي".. "أنت مداري".. "أرغب بالتلاشي".. "تلاشي فيّ".. "تلاش فيّ".. تغفو، تغفو كلوديا.. ورويداً أهبط إلى القرارة الناعمة.. كلوديا. كلوديا نائمة. الأصوات تتطامن، والصور. صور هاربة.. أنا أغفو. ربما أحلم.. أنا وكلوديا في الدفء.. روز.. روز نائمة. أنا نائم، أو على وشك.. أصوات. صور. وجوه. مد وجزر. بحر. وشيش البحر.. روز.. على وشك....

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ولا أدري بعد كم من الوقت اختضت كلوديا. جلستْ تلهث، وجلستُ.. "ما بك".. "شقتي احترقت، هذه الحمقاء".. كلوديا، هو حلم مزعج، نامي".. أدارت قرص الهاتف.. وهي تنتظر مطت جذعها بنفاذ صبر: "لا ترد، المجنونة السافلة لا ترد، سأذهب، تراها أفرطت في الشرب".. "أوتدرين كم الساعة؟".. "لا، هل تدري أنت؟".. أحمل الساعة المنضدية المذهبة على طرف السرير.. "الرابعة والربع".. تنهض واقفة. أتبعها.. "انتظري، سأبدل ملابسي".. على عجل أخلع منامتي وألبس قميصاً وبنطالاً وقمصلة جلدية. أبحث عن حذائي.. "سأتركك"..."لا".. "للحذاء مكانه، متى ستتعلم".. أجد حذائي. تُخرج سيارتها من مرآب العمارة. نخرج إلى الليل والمطر. ما زال فيّ شيء من النعاس.. لا تسرعي.. الشوارع خالية.. المطر ناعم ومصمم، والأضواء مستكينة. العالم غاف، ومنكفئ على نفسه، وأنا وهي مجنونان في الليل الإيطالي هذا. تقود كلوديا بسرعة. أكاد أقول؛ "ستلاحقنا سيارة الشرطة"، غير أنني أخشى عنادها.. تلاحقنا سيارة الشرطة. تقف كلوديا.. يقبل الشرطي في المطر.. تفتح نافذة السيارة.. يتجادلان.. يطلب شيئاً ما، رخصة القيادة قطعاً.. تناوله رخصة القيادة.. الشرطي صامت، يكتب في دفتر محاولاً تحاشي المطر، وكلوديا لا تكف عن الكلام، وأنا إلى جانبها منكفئ في قعدتي. يتفرس الشرطي في وجهي، يحييني. أرفع له

أصابعي. يتركنا.. كلوديا ترفع زجاج النافذة من غير أن تكف عن الثرثرة. إنها تشتم بالتأكيد.. "ما لك؟".. "ابن العاهرة هذا".. أضحك خفية.. نصل إلى مكان ما. توقف السيارة تميل برأسها وترفع ناظريها، ثم تسترخي في جلستها بصمت.. "لا شيء".. "لنصعد إلى الشقة".. "دعها، لست في مزاج لأسمع هذرها".. "كي تطمئني".. "لا شيء، لا أعرف ماذا حصل لي".. تنطلق بالسيارة مرة أخرى، وبالسرعة ذاتها.. "إلى أين".. "نحو البحر".. "مجنونة أنت".. "كالبحر".. "ألست نعسانة؟".. "لست نعسانة، وأنت؟".. "سأغفو في السيارة".. نسير في محاذاة البحر. بيننا وبينه سياج حجري عتيق. المطر يهمي على البحر، البحر يتقلّب بغنج وانفعال.. "لم تنم".. "أخشى أن ترمينا في البحر".. يصعد الطريق في المسيل الشاحب للضوء والمطر. يصعد مع أعمدة النور القزمة والأشجار. الأشجار ترقص عند كتف التلال في الجهة الأخرى.. "إلى أين أنت ذاهبة؟".. "إلى أصدقائي".. كلوديا بالله عليك، الوقت هو الفجر".. "سنوقظهم".. "لماذا؟".. "هكذا".. "من هم؟".. "لا عليك".. "أنت تفرضين عليّ أشياء".. "كانوا في حفلة، ربما ما زالوا".. ندخل حياً بفيلات حديثة باذخة. يكاد المطر ينقطع. توقف سيارتها عند الرصيف وندلف حديقة دار منيفة. تتناهى أصوات لغط وموسيقى. تبتهج كلوديا.. "ما زالوا".. يستقبلوننا بالصياح. سكارى

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

متعبون. الفتيان يحضنون كلوديا ويقبّلونها، يصافحني بعضهم، ويقبّلني واحد منهم. الصبايا يحطن بي. جميعهم يثرثرون بصخب ومرح وهم يسترقون النظر إليّ. إنهم يتحدثون عني. أية ورطة يا كلوديا. وكلوديا تبدأ الرقص. كلهم يرقصون وأنا أجلس. يأتيني أحدهم بكأس شمبانيا. يتمايلون والإعياء على وجوههم. وعلب وزجاجات الشراب الفارغة في كل مكان، وكذلك قشور المكسرات والبرتقال، وتفاحات معضوضة، وفي الصحون بقايا أطعمة ومقبلات. أنقل ناظري نحو الستائر الرمّانية الباذخة بحوافها من الدانتلا وشراشبها، إلى لوحة على الحائط تصور غابة كثيفة من أشجار البتولا على أغصانها ندف الثلج. تسحبني الغابة بعمقها الغامض إلى شبه الغيبوبة. كأنني لست هنا. كأنني بعيد، وضائع في الوحشة. كأنه حلم سائب. لست متأكداً من أنه الحلم أو الواقع. أغمض عيني وأفتحهما. ما زالوا يرقصون. دقائق قليلة أخرى يستمر الرقص ثم يجلسون. كلوديا معهم، وأنا وحدي. أومئ لها. تهز رأسها. نخرج، ويكون المطر قد توقف والهواء الهاب حاد البرودة. تستقل السيارة معنا ثلاث فتيات وشاب. تدفعني واحدة إلى المقعد الخلفي. تحصرني مع واحدة أخرى فأكون بينهن، والشاب يجلس إلى النافذة، بينما تجلس واحدة إلى جانب كلوديا. يضيق عليّ اللحم الأنثوي ورائحة الخمر والعرق. عرق الأجساد المضنية في معمعة الرقص. ألتقط رائحة بقايا الماكياج الحلوة

مختلطة برائحة الدخان. روائح عالقة في الشعور والملابس. روائح تنبعث من المسامات، وطيات الأجسام. من الزوايا الشهيّة. روائح مدوخة تفضي إلى النعاس وإلى غثيان خفيف. يغمرني الدفء. سأنام بين عمودي شهوة، ممتثلاً للتأين العالي يقدح الحجر الغامض ذو العروق السريّة الحساسة. أنا مكدود ومكهرب، متوتر وراغب. أنا محلق ومضغوط عليه وخلاياي تسخن. حُر في فسحة لا تُرى، ومرهون لاشتراطات الجسد المنفلتة والفاسدة. أريد أن أضاجع، أو أن أنام، أو أن أفعل كلا الأمرين معاً. تعيط إحداهن. تعيط كلوديا . يعيط الشاب. تعيط المرأة الجالسة في المقعد الأمامي. تعيط المرأة الجالسة إلى جانبي. تدهمني رائحة فمها المخمورة، الثقيلة، فتعيط هذه الكتلة المحتدمة بين فخذي. أعيط. يجن جنونهم. كما لو أنني أيقظتهم من فاصلة تعقل ليست لهم، كما لو أنني نبهتهم إلى خبلهم وسكرهم. فكرت أنه لا يجوز أن أشتط هكذا، كما لو أنني أخون كلوديا. قلت في سري؛ "ستقبض علينا الشرطة". وكلوديا تريد أن تطير. تطير بنا إلى الهلاك والعدم. من يهتم. تعيط السيارة فنعيط دفعة واحدة، أنا والخمسة المهابيل الذين معي. تعيط السيارة، تدور، تختض، وتتوقف. ينزل الشاب والمرأة الجالسة إلى النافذة. تنطلق السيارة بعياط، تنبثق من تحتها رشقة ماء يلطم الشاب والمرأة فيلحقان بالسيارة. الشاب يمد ذراعه بإيماءة بذيئة، بينما تدير المرأة مؤخرتها وتحركها استنكاراً.. أنا والمرأة التي

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

إلى جانبي نراقبهما من خلال الزجاج الخلفي للسيارة ونضحك. تقول لي كلوديا؛ ها أنني أخرجتك من ضجرك وبلادتك.. شكراً كلوديا.. كان توتري الجنسي قد خف، وبلغ مني التعب أقصاه. قالت لي الفتاة التي دفعتني لأجلس إلى جانبها شيئاً لم أفهمه، وضحكت المرأة الثانية الجالسة إلى جانب كلوديا. قهقهت كلوديا وردت بحدة مرحة على المرأة. دخلتا في سجال سريع وهما تفتعلان الغضب ثم تضحكان. كنت الآن، في هذه اللحظة، موضوع حديث لا أفقه منه حرفاً. قالت كلوديا؛ "تريد استئجارك".. "ماذا؟".. "لفعل خسيس".. تقف السيارة والفجر يبين من خلل الغيوم التي راحت تتمزق. تنزل المرأتان.. تقبّلني التي أرادت استئجاري. تقبلني الأخرى وأنا أهبط لأعود إلى جانب كلوديا. أغفو.. توقظني كلوديا.. "انزل".. في شقتي ننام حتى الثانية بعد الظهر.

* * *

تحتويني مشاعر عنيفة، تتركني في مزاج سيئ فأدخن كثيراً، وأشرب أكثر، وأفكر طوال الوقت، وأخرج قليلاً، ولا أكتب شيئاً. أقضي ساعات أمام شاشة التلفاز، أفرغ توتري بالتنقل بين القنوات الفضائية من دون أن أستقر على واحدة بعينها، وأدخل، بالمزاج ذاته على مواقع الصحف والمجلات في الإنترنت. أتشبع بنتف من أخبار الحروب والمجاعات والزلازل والفيضانات والتصحر والتلوث والتهديدات إلى حد أحسني

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

فيه متخماً بالقيح والصراخ. ضئيلاً وعاجزاً ودائخاً وفاقداً للتوازن، وغير قادر على الاسترخاء، أو التمتع بأي شيء. حتى كلوديا لم أعد أشتهي جسدها ذا الكمال الرباني، مثلما كنت في البدء.

تأتيني بلطافتها وسحرها وبذخ روحها، وبفائض الإثارة التي تشاكس عصب الحرمان في تاريخي. تاريخي الذي تعيد كلوديا ترتيبه، أو تحاول، وأحاول. لا جدوى إن لم يُعد النظر في أمر ذلك التاريخ الهاجع فيّ إذ يتعرى في حضور كلوديا، ويوشك على التفتت كلما مس دفئها صقيعي.. تأتيني وأناكدها.

تدرك بعد نقاش عويص إلى أية منطقة شائكة سحبتها فتقاطعني؛

ـ تباً سامر.. هكذا دائماً.. كأننا المسؤولان عن السفالات والرذائل كلها في هذا العالم الملعون.

ـ لا شك أننا مسؤولان.

يستعر غضبها.. تقوم.. تقلب كرسيها، وتقذف بكتاب لي موضوع على إحدى الطاولات.. تقلب الطاولة.. أقوم وأمسك بها؛

ـ لا عليك روز، أنا آسف.

ـ لا تناديني روز، اللعنة، اللعنة.

تخطف حقيبتها.. تتجه نحو الباب مسرعة.. تفتحه.. تخرج وتصفقه بشدة.

أتهالك على المقعد ذاهلاً حائراً.. أقول لنفسي؛ "ماذا دهاني؟ ولِمَ أفعل هذا الذي أفعله؟ ما ذنبها هي إذا كان العالم من حولنا يفقد يوماً بعد يوم النكهة التي يمكن أن تغرينا بالاستمرار والبقاء؟". أشعل سيجارة، وقبل أن أدخن نصفها أسحقها، ثم أشعل سيجارة أخرى.. أملأ كأساً بالويسكي ثم أسكبه في حوض المغسلة.. أمشي إلى الشرفة وأعود راكلاً الطاولة المقلوبة.

أفكر أن أغادر، وأحاول التفكير بذلك، غير أني أراني مشوشاً. أجلس مرة أخرى وأغمض عينيّ.. سأغادر.. سأعود.. لو أغادر.

أسمع حركة المفتاح بالباب.. كلوديا ثانية! تدخل..

ـ كلوديا.

ـ اللعنة، سمّني روز.

وتقذفني بحقيبتها التي أتحاشاها في اللحظة الأخيرة.. تقبل وترتمي عليّ، وتضربني في صدري بقبضة يدها.. أضحك.. تضحك هي الأخرى.. نغرق في الضحك.. ضحكنا عصبي ومتشنج.

كلوديا هذه، أفهمها ولا أفهمها.. تفهمني ولا تفهمني، بيد أن شيئاً ما، سرياً، آسراً، معتّقاً يصلني بها في العمق.. شيء هو، ربما ما أبحث عنه في ليل عينيها الساطع. ووراء ذلك الأفق المهتاج بالسواد واللانهائية

والغموض. ليس هو غواية الأنثى المجردة، لكنه شيء حميم، دافق وجدّ إنساني، له سطوته.

أختلس النظر لخطّي الدمع على وجنتيها، وقبل أن أنطق تضع إصبعها على فمي.

ـ لا تتكلم أرجوك.. دعنا نسترد أنفاسنا ونهدأ.

أقبّل أصابعها.

ـ أجل.. معظم مشاكل البشرية مصدرها الكلام، ومشكلة المشاكل أننا غير قادرين على السكوت.

تصيح بي، وهي تهز رأسها؛

ـ اسكت، اسكت.

ابتسم وأسكت.

* * *

أستيقظ لاهثاً، في صدري شرخ قاتم، وفي رأسي طنين وانشداه. تقدم لي كلوديا كأس ماء.. أشرب قليلاً.. هي إلى جانبي إذن.. على سريري.. تضع يدها على جبيني، وتقترح أن أراجع طبيباً نفسياً.. أي طبيب باستطاعته أن يكشف عن الكهوف المعتمة التي منها تنط كائنات كوابيسي؟ وكيف له أن يغلق منافذها التي لا تحصى؟ أقول لها؛

ـ لا بأس.

أدخن سيجاراً، وأطلب منها أن تنام.. تشعل هي الأخرى سيجاراً وتبقى مستيقظة.

ـ كنت فظيعاً.

ـ صحراء مديدة من الجثث يا روز، وكلها منكفئة على رؤوسها. قلبت جثة فتلبسني الرعب.. قلبت أخرى فصرخت. قلبت ثالثة، اختنق الصراخ في حنجرتي. قلبت جثثاً كثيرة ورعبي يكبر، ويكاد يميتني. الوجوه كلها متشابهة. هو الوجه ذاته.. وجهي أنا يا كلوديا.

ـ ياه، شيء مريع، لا يصدق.

ـ رحت ألوم نفسي.. ما الذي جاء بي إلى هنا.. أحسستني قصياً غريباً، منفصلاً ومحاصراً بجثثي/ ضحاياي في صحراء، هي ربما في كوكب آخر.. أو ربما في زمان آخر.

لم ننم حتى شقشقة الفجر.. ثرثرت طويلاً.. تحدثت عن أبي وخالد وحنان والحرب، والصوت يخرج مني مشروخاً، نائياً، بنبرة هي ليست نبرتي.

ـ كم أنت صبورة يا كلوديا؟ تستمعين من دون أي احتجاج إلى هذري هذا.. أتساءل؛ لماذا تراك تتحملينني إلى هذا الحد؟

تضحك وتقبلني.

ـ أنت مرهق ونعسان، وكذلك أنا. دعنا ننمْ.

* * *

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

كأن ألف هوّة بيني وبين كلوديا. كأن صفوفاً لا تنتهي من قبور بصلبان، وأخرى محفورة عليها سورة الفاتحة تسعى أن تقف بيننا. كأن قروناً من سوء الفهم تحاول فصل روحي عن روحها. جسدي عن جسدها. كأن صقيع القطب، ممزوجاً بعواصف دكناء رملية يروم، على الرغم منا، تكفين قلبينا. كأنها ليست معي. كأنني لست معها.

كيف لي أن أفك هذا اللغز العنيد.. هذا الانجذاب المدمر، وهذا التنافر المموه بيني وبين كلوديا؟ كما لو أنني أريدها ولا أريدها. أرغب فيها ولا أرغب. أبحث عن الموت في بحرها وعن الحياة. أقول لها؛

ـ مثل البحر عيناك كلوديا، أرى فيهما السحر أحياناً، وأحياناً أرى الهول. زرقة متألقة لكنها منذرة وغامضة تغري بالمغامرة، وتخبئ المفاجآت، وتذكّر بملابسات الوجود.. اسمعي، إنك تمسكين بالمتناقضات كلها بين أصابعك الجميلة هذه. أصابعك التي تشعل اللذة، وتبعث الرعب والألم.

ـ أنت مجنون يا سامر.. تريد أن ترى تاريخ الغرب فيّ.. هذا ظلم.. إنك بدل أن تصنع جسراً تحرق المراكب، وتعلن الحرب.

ـ الحرب؟ أنا الذي أعلن الحرب؟ أنا؟ أنا الذي تباغتني الحروب دائماً، وتحرق مخطوطات رواياتي، وتقتل حبيباتي، وتعرِّض بلادي للخراب؟ أنا أعلن الحرب يا كلوديا؟

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ هذا غير معقول.. لماذا لا ترى في العالم غير الأبيض والأسود؟

ـ يا ليت.. ليت خيارنا كان بين الأبيض والأسود، إذن لم تكن لتوجد هناك مشكلة ولكان بإمكاننا أن نختار، غير أن الرمادي الذي هو بآلاف الدرجات يغطي وجه هذا العالم الآن، والرمادي ملتبس يا كلوديا، وخدّاع.

ـ لكنه الواقع.

ـ لسوء الحظ، هذا صحيح. وأنت لست مسؤولة، لكن حنان ماتت.. ماتت في التباس الرمادي..

ـ أتريدني أن أموت أنا الأخرى؟

ـ على العكس، كلوديا، على العكس.. يبدو أنك لم تفهميني جيداً.. على العكس.. أريدك أن تعيشي وحنان في ضميرك.

ـ كأنني قتلتها.

ـ لا.. خطأ ما في نظام الكون هو الذي قتلها.. ينبغي أن لا يكون هناك هذا الخطأ، لكي لا تُقتلي أنت أيضاً، وأُقتل أنا. ولهذا علينا أن نفعل شيئاً.

ـ سامر، ما أكبر وهمك.. لستُ سوى امرأة، في عالم يتحكم به الرجال. ولستَ سوى رجل من ذلك العالم الثالث. ما الذي نستطيع أن نفعله؟

ـ أشياء كثيرة كلوديا..

ـ مثل أي شيء؟

ـ أي شيء.

ـ حالم، حالم أنت يا سامر، ومجنون.

ـ الحلم هو البدء، وجنونا سيستفزهم.. سيسخر منهم.

ـ ممن؟

ـ منهم.. هم، هم.

ـ شربت كثيراً.

ـ أنا صاح يا كلوديا.. أنا صاح تماماً، ووعيي مثل حجر الكريستال شفاف وفي ذروة تألقه.. أتدرين، إلى جانب مميزاتها الرائعة.. هذه الحضارة حاذقة في صناعة الموت.. لقد فاقت في حذاقتها أية حضارة أخرى.

انتفضت كلوديا؛

ـ تباً سامر.. أنت تضجرني.. خلتك مختلفاً.. أنتم الشرقيون مصابون بمرضين مزمنين لا شفاء منهما.. الهيام بالماضي والسياسة.. لا تكفون عن الحديث فيهما.

ـ كلوديا.. السياسة لأنها تعيش معنا وتقلّب أحوالنا.. أما الماضي فهو عبئنا الذي لا فرار منه.

ـ وأخطاؤكم؟ وخطاياكم؟

ـ إنها لا تعد ولا تحصى، لكننا ضحايا أيضاً لألف ألف...

وقفت كلوديا، قاطعة حديثي، ولوحت لأحدهم صائحة؛

ـ روبرت.

أقبل هذا المدعو روبرت، بقامته المديدة، واحتضن كلوديا، وقبّلها.

ـ أوه، كلوديا.

ـ روبرت، افتقدتك.. أية مفاجأة؟

بقيت جالساً أتملى وجه روبرت، فمه الهش، شعره السبط الأشقر، وعينيه الزرقاوين، وقد تولاني شعور هو مزيج من الانزعاج والغيرة. ومن لهجته عرفت أنه أمريكي.. كان ثمة نوع من العجرفة في وقفته ونظرته.. بعد حديث قصير التفتت إليّ كلوديا؛

ـ روبرت.. أقدم لك المستر سامر.. عربي.

ـ عراقي.

قلتها وأنا أقف، وتصافحنا.. قالت كلوديا؛

ـ روبرت.. طبيب أمريكي.

ـ أهلاً مستر روبرت.

ـ أهلاً مستر سامر. والآن أترككما، سعدت بلقائكما..

ـ اجلس رجاءً.

ـ آسف، في مرة قادمة.. أنا مرتبط بموعد.. باي.

ـ سأراك روبرت.

ـ أكيد، كلوديا.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ولأنها أرادت تغيير مجرى الحديث قالت؛

ـ والمستقبل سامر.. ماذا بشأن مستقبلك؟ هل فكرت قط ماذا سيكون عليه وضعك بعد شهر أو سنة؟ بعد عشر سنين؟ هل فكرت في هذا؟ تباً.

ـ أريد أن أفهم وضعي الآن.. وضعي الحقيقي، تماماً مثل بطل رواية القصر لكافكا.. لماذا أنا الآن/ هنا/ هكذا؟

ـ أي قصر هذا الذي تسعى للوصول إليه، وتعتقد أن فيه الجواب؟

ـ ربما هو في داخلي، أو ربما هو هناك..

ـ أعيد عليك اقتراحي القديم: أن نجد لك عملا هنا، أو أن تكمل دراستك.

ـ لم يخطر ببالي أن أستقر هنا.

ـ هل تفكر بالعودة؟

ـ لا شك، كلوديا.

ـ وما الذي يمنعك؟

ـ هذا ما لا أعرفه.. ربما أنت.. ربما لأنني فقدت بوصلتي الداخلية.. ربما من أجل أن أكمل روايتي.. روايتي التي..

قاطعتني؛

ـ التي لم تبدأ بكتابتها بعد.

ـ بل بدأت.. هي الآن حية تماماً في داخلي.

تنهدت وأشارت للنادل.

ـ كأسان من البيرة.

ـ شربنا كثيراً.

ـ ليس كثيراً.

ـ كيف ستقودين؟

ـ أخائف أنت؟

ـ خائف عليك.

ضحكت.. رنين ضحكتها الحلو جعلني أمسك كفها وأضغط عليها.

ـ أنت محيّر يا سامر.. عاطفي ومغرم بالحزن.. شرقي من طراز رفيع.

ـ وهذا زادي الآن يا كلوديا، من أجل الرواية؟

ـ الرواية ثانية.. قل لي؛ هل سأكون أنا أيضاً في روايتك؟

ـ طبعاً، بلا أدنى شك.. سأبدأ بك.

ـ حقاً؟ وبمن ستنتهي؟

ـ هذا ما لم أحسمه بعد.. ربما بك كذلك.. أتراك تسخرين، كلوديا؟ لا بأس.

ـ أنت سكران، مثلي تماماً.

واستغرقت بالضحك.

* * *

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

بعد يومين جاءت كلوديا وابتسامتها مثل نسمة خفية تهز شجرة روحي المتوحدة، المستوحشة.

ـ آسفة سامر.. كنت في المرة الأخيرة سخيفة معك، ولكن ينبغي أن تفهم بأني أتكلم من أجل مصلحتك.

ـ لا بأس كلوديا، يبدو أنني أغالي أحياناً.

ـ عليك أن تغير نمط حياتك بشكل أعمق، أن تخرج من قوقعتك.

ـ هل عليّ أن أخطط لانقلاب عسكري مثلا في بلادي، أو أتزوج، أو أدور حول العالم في ثمانين يوماً وأعود؟

ضحكت واحتضنتني.

ـ غداً سنخرج في رحلة بحرية قصيرة إلى جزيرة رائعة، وستكون معنا.

ـ من أنتم؟

ـ أنا، وبعض الأصدقاء.

في الغد، وعلى رصيف المرفأ، كان هناك إيطاليون وفرنسيون وأميركان.. أقبل روبرت باسماً وصافحني، وقدّم لي امرأة كانت معه.

ـ مس كاترين.. مستر سامر.

مدت كاترين ذراعها السمراء العارية نحوي.

ـ هلو مستر سامر.

ـ هلو مس كاترين.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ابتسمت وأزاحت بيدها الأخرى خصلات شعرها الذهبي الطويل عن وجهها، وما تزال أصابعها الدافئة في كفي.. كانت الريح تعابثها.. قال روبرت؛

ـ مستر سامر عربي.. عراقي.

ـ آه، لي صديقة من أصل عراقي اسمها ليلى تسكن ديترويت.

قالت كلوديا؛ "ألا نصعد؟".

قال روبرت؛ "ننتظر بعض الأصدقاء".

سألتني كاترين؛ "منذ متى غادرت العراق؟".

ـ "منذ أكثر من ثلاث سنوات.. أعمل مدرسا لمادة الأدب الإنكليزي في ليبيا، في جامعة طرابلس".

* * *

بقوة المخيلة وسلطتها، أو على وفق مقتضيات اللعب الروائي سأجيء بمايكل ونيكول إلى هنا/ ها هنا، مفترضاً أنهما صديقان لروبرت وكاترين.. صديقان قديمان.. هكذا ستتخذ الرواية مساراً مختلفاً، نوعاً ما.. إنهما قريبان.. سيأتيان لينضما إلى شلّة اليخت الذي هو ملك عائلة السيد ألبرتو ـ والد كلوديا ـ سأجعل روبرت وكاترين في موقف انتظار لصديقيهما.. ستتهمونني بالتلفيق.. حسناً، أليس العمل الروائي برمته، في

نهاية المطاف، محض تلفيق طالما هو وليد المخيلة؟ والمخيلة، أليست، مهما اشتطت، ابنة الواقع؟

ستقولون أنني أمارس فعل خداع.. ليكن.. أنا مخادع، ويعجبني أن ألعب قليلاً، أو لعلني أرمي إلى التخلص من ورطة تقنية، أو ربما أبغي تسليتكم.. إنني أسلي نفسي، ولا شك أنني ألعب، وألفق، وأخادع.، وما أريده، في النهاية، هو أن أجرح الواقع.. أن أنزع عنه القناع لأرى ماذا وراءه.. قد أخفق، لكنني أحاول، فلتحاولوا معي.

صعدت كاترين، وفي أعقابها روبرت، وفي هذه الآونة أقبل زورق سريع من بعيد.. صاح روبرت؛

ـ لقد جاءا.

سألت كلوديا؛

ـ من؟

ـ مايكل وصديقته نيكول.

ها هما، إنهما في طريقهما إلينا كما قلت لكم. ليكن كما لو أن ما حدث هو من تخريجات خيال واحد من أولئك الذين أبدعوا قصص ألف ليلة وليلة. إن اسم هذا الرجل واسم صديقته، وملامحهما، بعد أن أراهما، يطابق أسمي وملامح بطلي روايتي، كما ابتكرتهما، وهذه ليست مصادفة محضة، بل فعل ابتكار وتخليق، سمّوها ما شئتم، وها هو روبرت يكمل الصورة؛

ـ مايكل مسكين، شارك في حرب الخليج، وعاد بمرض غامض يبدد شيئاً فشيئاً قواه الحيوية.

أحسست بالبرد يسري في شراييني.. إن ما يحصل يثيرني حقاً.. سألته بشيء من التلعثم؛

ـ أكان طياراً؟

رمقني بدهشة؛

ـ نعم، كان طياراً برتبة كابتن.

قلت؛ "إذن، ربما هو اليورانيوم المنضب الذي استخدمه".

ابتسم روبرت بشيء من الارتباك وقد تقلصت عضلات وجهه من الحيرة، ولم يعلّق، أما أنا فكنت منجذباً نحو الدائرة المسحورة؛

ـ وصديقته نيكول.. أجل.. قلت أن أسمها نيكول.. هل حصل بينهما مشاكل.. أقصد من نوع أن مايكل، ومع استفحال مرضه أدمن الشراب والقمار؟

ـ ماذا؟!.

قالت كلوديا؛

ـ سامر روائي وخياله شغّال.

ـ ولكن ما يقوله حقيقي!

ثم التفت إليّ؛ "أتعرفهما؟".

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ من المؤكد أنني لم ألتقهما قبل اليوم.

ضحكت كاترين، وقالت؛ "غير معقول.. يا إلهي".

تصافحنا أنا ومايكل، أنا ونيكول، وقبّل مايكل كلوديا وكاترين، وقبّل روبرت نيكول.

وراء إشراقة نيكول اختفت موجة ملولة، قاتمة، أراها في تلك الرعشة المباغتة على طرف فمها الوردي الدقيق.

قالت كلوديا، ونحن نصعد اليخت؛

ـ أخبرني روبرت أن نيكول خرجت لتوِّها من المصح.

وأردفت وهي تضحك؛ "أكنت تعرف هذا؟!".

ـ أنا لا أعرف أشياء كثيرة، بل أخمن.. أي نوع من المصحات؟

ـ أظنها كانت تعاني من اضطرابات عصبية.

ـ إذن علينا أن نكون رفيقين بها.

ـ بدأت تهتم.

ـ أنت غيورة كلوديا!!

قهقهت كلوديا وهي تقول؛ سأطعنك مثلما فعل عطيل بدزدمونة.

* * *

((قادت تحرياتنا إلى الاستنتاج أن وزارة دفاع الولايات المتحدة قد انهمكت في محاولة مقصودة لتجنيب المسؤولين الشعور بالإثم نتيجة

السماح بتعرض مئات الألوف من جنود الولايات المتحدة والدول المتحالفة معها *من الرجال والنساء إلى أكثر من 630000 باوند من اليورانيوم المنضب المطلق من دبابات وطائرات الولايات المتحدة خلال حرب الخليج الثانية)).*

((استناداً إلى المعلومات المتوفرة، ربما استنشق أو ابتلع أو تلوثت الجروح باليورانيوم المنضب، لما لا يقل عن 400000 من المحاربين القدماء لحرب الخليج خلال عمليات القتال، وعمليات إنقاذ المعدات، وزيارات ساحات المعارك بعد انتهاء الحرب)).

((ظهرت حالياً أعراض التسمم باليورانيوم المنضب لدى العديد من المحاربين القدماء في حرب الخليج وعوائلهم، تتضمن مشاكل الكلية والكبد، قصور نظام المناعة، ومشاكل تناسلية، وتتضمن الآثار الصحية بعيدة المدى لليورانيوم المنضب، الأمراض السرطانية التي ربما لا تظهر بصورة ثابتة في المحاربين القدماء المتعرضين أو عائلاتهم في الوقت الحاضر)).

دان فاني

من كتاب (توصيف حالة التعرض لليورانيوم المنضب)

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

مكر الرواية

منذ الآن ستنزاح الرواية 90°، وستتخذ اللعبة سياقاً دراماتيكياًمختلفاً، أو هكذا أتمنى، وسيكون مطلوباً مني التنبه إلى المسارات المتشابكة، تلك التي ستعطي الرواية زخمها وتعقيدها الجديد، الضروري.. كنت أعرف من أين البدء، لكنني لا أعرف حقاً، على الأقل في الوقت الحالي، كيف سيكون المنتهى.. لا تصوّر واضحاً لدي عمّا سيحدث، وقد افترضت وقائع متخيلة.. ما أبغيه، عند هذا المفترق، لغة مطواعة ذات مرونة عالية، تحملني وأحملها، تسير بي وأسير بها، تتلبسني وأتلبسها، تكونني وأكونها، ونكون معاً الرواية.

انساب اليخت في قوس هائل من الزرقة، وكانت الريح الخفيفة باردة تحت الشمس الساطعة، والساحل يبتعد.. اختلست النظر إلى وجه كلوديا المتألق بقوة الريح والشمس ونشوة الحياة فأحسستني وقد امتلأت بالنشوة والألق، وتساءلت للحظة؛ أتراني أحبها؟ وعجبت كيف أني لم أطرح على نفسي هذا السؤال مذ التقيتها هناك، على حافة الأبيض المتوسط في تونس، بمصادفة قدرية، كما لو أنها محض امرأة عابرة مثل نساء كثيرات يمكن أن يصادفهن المرء في حياته، يمضي معهن بعض الوقت الممتع قبل أن يطويهن

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

النسيان. أيمكن أن أنسى كلوديا، وتجربة العبور إلى هذا المكان الذي نتمناه ونخشاه، نحبه ونقلق منه، نخاله حيناً غاية في الألفة وحيناً طاعنة في العداء؟ أقول نخاله، لأن لا شيء من الممكن التأكد منه بعد. كأنها تجربة ناقصة، مستمرة، توشك أن تنتهي ولا تنتهي أبداً!

جلسنا إلى طاولة واحدة، أنا وكلوديا وروبرت وكاترين ومايكل ونيكول.. خليط غريب، غير أنه حقيقي. هكذا أتينا من جهات عديدة، يحمل كل منا في دمه جرثومة تاريخه ويجد نفسه في مواجهة مرتقبة، حامية، غير ضرورية ربما، مربكة.. تاريخ ليس بالمقدور التخلي عنه أو نسيانه. ألم نتحدث، في ذلك اليوم، أنا والسيد ألبرتو عن عبء التاريخ وسوء الفهم؟ قلت في دخيلتي؛ ألستُ، الآن، بأفكاري هذه، أسيرَ منطق أخرق سببه اختلال من نوع ما، أو تصوّر تشوبه ألف شائبة؟ تنبهت إلى كلوديا وهي ترمقني بمزيج من الود والحيرة، كأنها تتساءل؛ ما الذي يدور في خلدي؟ طبعاً لن أخبرها وإلاّ لفقدتْ صوابها.. ضحكتُ.. قالت بالعربية؛ "مرتاح". قلت؛ "مرتاح". وفي حقيقة الأمر، لم أكن منزعجاً بأي قدر، وحتى تلك الخواطر لم تخلّف في نفسي إلاّ قليلاً من اللامبالاة.

قال مايكل؛ إنه بحاجة إلى قليل من البراندي.. قالت نيكول؛ إنها تفضل أن يشرب قهوة بالحليب.. استاء مايكل وقال إنه يعرف ما الذي هو بحاجة إليه.. صمتت نيكول.. قال روبرت إنه يتوقع يوماً مدهشاً لا

ينسى.. قالت كلوديا؛ "ستتفاجأون.. تلك الجزيرة تبدو وكأنها سقطت من الفردوس".. سأل مايكل؛ إن كانت كلوديا تؤمن بالفردوس حقاً؟ قالت كلوديا؛ "الفردوس من مخترعات البشر، وهو موجود في دواخلهم، ويستطيع المرء إن امتلك الإرادة أن يكتشفه في نفسه".. قال مايكل؛ "هراء، ليس في نفوس البشر سوى الجحيم".. قالت كاترين؛ "لو نغير الموضوع".. قالت نيكول؛ "لقد جئنا لنتمتع".

وقف نادل إلى جانبنا ليسجل ما نطلب.. طلبت قهوة مرّة، وكذلك طلب روبرت وكلوديا، وطلبت كاترين ونيكول قهوة بالحليب، وطلب مايكل كأس براندي.. لا أدري ما الذي جعلني ألتفت لأنظر إلى وجه نيكول.. كانت ممتعضة.. قال مايكل؛ "إن كأساً واحدة لا تضر".. قالت نيكول؛ "لو تحدد وقت الشرب، المساء هو أفضل وقت، ثم أنك ...."..

صاح مايكل؛ "لا تذكّريني بذلك المرض اللعين".. جاء النادل بكأس البراندي أولاً.. سحبت نيكول حقيبتها الموضوعة على المنضدة فمست الكأس التي سقطت واندلق السائل.. صاح مايكل؛ "اللعنة". وأردفها بكلام بذيء.. وضعت نيكول يدها على فمها؛ "أوه، آسفة".. كان الغضب في عيني مايكل شرارة مظلمة؛ "لقد تعمدتِ ذلك".. "أوه، كلا".. قال النادل وهو يمسح الطاولة؛ "لا بأس يا سيدي، سآتيك بكأس أخرى".. قال مايكل وهو يحدج نيكول بغضب؛ "في المرة القادمة

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

سأقذفك في البحر".. قال روبرت؛ "اهدأ يا صديقي، هذه الأمور تحصل".

زم مايكل شفتيه، وراح يحدق في البحر، وامتقع وجه نيكول وبقيت صامتة.. قال روبرت؛ "مايكل أنت لست على ما يرام".. قال مايكل؛ "ذلك لا شيء". واستل سيجارة. أشعلها وراح يدخن.. قامت نيكول وقالت إنها ذاهبة إلى الحمام.. سألتها كلوديا إن كانت تشكو من شيء، وأبدت كلوديا استعدادها للمساعدة.. قالت نيكول؛ "ليس في الأمر ما هو غير اعتيادي، مجرد غثيان بسيط".. قالت كاترين؛ "لعلك حامل يا عزيزتي!".. هزت نيكول رأسها وقالت؛ "لا، مستحيل، لعله البرد".

أحضر الخادم كأس البراندي الثانية، ومعها فناجين القهوة والقهوة بالحليب.. قالت كلوديا؛ إنها ذاهبة لترى ماذا تفعل نيكول. وبعد لحظات جاءتا معا. كان سطوع الشمس وقمصلتها الجلدية الحمراء يموِّهان على شحوب وجه نيكول.

ران صمت متوتر وجعلنا نشرب عدا مايكل الذي لم يقرب كأسه.. قالت كلوديا؛ "إن السباحة تغدو خطرة أحيانا في الجوار لوجود سمك القرش".. قال روبرت؛ إنه ذات مرة تعرض لهجمة سمك قرش شرسة ونجا بأعجوبة، حين كان يخدم في المارينز".. قال مايكل؛ إنه يرغب في السباحة، وإنه سيدخل البحر حالما ينزل على ساحل الجزيرة. وسأل بشيء

من التحدي؛ "من يسبح معي؟". فكرت؛ لو كانت حنان هنا لقالت؛ "أنا".. قلت؛ "أنا".. تنبه مايكل لي وكأنه فوجئ بوجودي.. قال روبرت؛ "أعتقد أن مستر سامر يعرفك جيداً مايكل، ويعرف نيكول".. بان الاستغراب على وجهيهما. قالت كلوديا؛ "لقد تخيلكما.. إنه روائي".. سألت نيكول؛ "كيف؟". قلت؛ "أظن صديقيّ هذان يبالغان قليلاً". قال روبرت؛ "ولكنك قلت أشياء عنهما، وهي صحيحة".. قلت؛ "لعلها المصادفة، ليست هي قراءة الغيب بالتأكيد، لست متنبئاً".. قالت كلوديا؛ "خياله خصب".. قلت؛ "يقول ماركيز؛ آجلاً أو عاجلاً سيثبت الواقع أن المخيلة على حق".. قال مايكل؛ "هراء ما يقوله ماركيز ذاك".. ساد الوجوم لثوان ووجدتني أقهقه.. قهقهتي كانت ملء القلب. شاركتني كلوديا بضحكة رنانة وهي تخلل أصابعها في شعرها. وفي لحظات كنا جميعاً نضحك، حتى مايكل كان يضحك وهو يهز رأسه كأنه ينكر ما يحصل ولا يستطيع أن يفعل ما يوقف هذا الأمر. واختلج الدم في وجنات نيكول.

لاحت الجزيرة فوقفنا جميعاً نتطلع إلى تكوينها الآسر الخلاب.. صخورها ومرتفعاتها وأشجارها ومياهها، والبنايات التي أقيمت عليها إذ يتناظر فعل الإنسان الخلاق مع بهاء الطبيعة. إنها موسيقى أشكال وتكوينات وألوان.

على أرض الجزيرة سألني مايكل إن كنت جاداً حقاً في رغبتي بالسباحة.. قلت؛ "أنا جاد".. قالت كلوديا؛ "لنرجئ السباحة إلى وقت الظهيرة".. وافقها الجميع بصيحة جعلت مايكل يشتم. فتفرقنا في جماعات صغيرة.. همست في أذن كلوديا؛ "لنترك الأمريكان وشأنهم وننفرد معاً"..

انفردنا معاً.. كانت الهدأة بين الأشجار باردة.. سألتني؛ "والآن ماذا تريد؟". قلت؛ "وجودك معي يشعرني بالأمان، وبأن هناك أشياء صحيحة ما تزال في العالم".. وقبّلتها.. التصقت بي.. كنا نروم الدفء، وكانت شفتاها دافئتين وكان في عينيها الدفء.. قلت؛ "أية مفارقة في أن أكون هارباً من صحرائي إلى جنتك الدافئة". قالت؛ "وأين هي المفارقة؟". قلت؛ "في أن يجتاح روحي أنا ابن الشمس الحارقة الصقيع، وأن أعثر على الدفء عندك أنت ابنة الشمال".. قالت؛ "لا تنس، كلانا ينتمي إلى حضارة الأبيض المتوسط". ثم انفجرتْ ضاحكة وأطلقتْ شتيمة؛ "مرة أخرى تسحبني إلى مثل هذا النقاش غير المناسب، في الوقت غير المناسب".

انتفض هواء قارص ونحن بين الأشجار، نصعد ربوة صغيرة.. خضتني قشعريرة.. غيوم بيض ورمادية تتفرق وتلتم.. قلت؛ "ربما أمطرت". قالت كلوديا وكأنها تردد كلماتي من غير أن تعير معناها أية

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

أهمية؛ "ربما أمطرت".. "فلتمطر"، قلت.. "وماذا في ذلك؟".

وحدثتها عن مطر قَصي.. عن خالد وهو يُغضب طفولتنا في عتمة المطر والعاصفة ويتحدى جرأتنا، يركض وقد خلع حذاءه، ويتركنا في خوفنا وذهولنا.. وحدثتني كلوديا عن ليلة أشباح.. عن غرفة طفولتها وقد انفتحت النافذة بفعل الريح التي تصرخ وتأتي بالمطر إلى فراشها، وتبلله، وصراخها وهي مبللة، حتى إذا استيقظت المربية وهرعت إليها كانت هي قد أصيبت بالإغماء والحمى.. "كنت خائفة"، تقول، "ومع الريح دخلت الأشباح".. "هل كنتِ تحت تأثير فلم رعب سبق لك مشاهدته؟".. "ربما هو كذلك، يُفترض ألاّ يشاهد الأطفال مثل هذه الأفلام".. "والآن، هل تعاودك كوابيس تلك الليلة".. "لا، ذلك شيء نسيته، طويته في القاع المظلم من الذاكرة".. "أما أنا فكوابيس طفولتي تلاحقني؟".. "أنت لا تقتنع بمراجعة طبيب نفساني".. "لا أعاني من العصاب".. "لعلك تعاني، هذا أمر يقدّره الطبيب".. "جئنا لنتمتع، لا لنحكي عن الأشباح والكوابيس".. تلكمني على كتفي؛ "من الذي بدأ، قل لي من الذي بدأ؟".

خلف الربوة شباب وشابات، بملابس ملونة زاهية، وسحنات مختلفة، يرقصون. يحرّكون أطرافهم وجذوعهم وكأنهم مصابون بمس، والموسيقى، المنبعثة من آلة تسجيل كبيرة، صاخبة مدوية.. شاب أسمر

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

يقترب منا من غير أن يكف عن الرقص ويمسك يد كلوديا ويسحبها إلى الحلقة فلا تمانع، وتقترب مني شابة ذات سمرة أفريقية قاتمة، وهي تحاكي حركة قرد وتسحبني.. أرى كلوديا جذلة تضحك فأجاريها في الرقص والضحك.. نرقص دقائق قبل أن ننسل ولا أحد يأبه لنا. إنهم مستغرقون في لعبة الحياة؛ أفكر. أجل، تلك وسيلة لمواجهة رعب العالم.. أفكر، ولا أخبر كلوديا بما أفكر به.

لم يكن قد مضى أكثر من ساعتين على هبوطنا إلى الجزيرة حين علا صراخ نيكول.. ركضنا باتجاههم.. كانت نيكول جالسة، متقنفذة، تغطي وجهها بكفيها، وتبكي بتشنج وألم، وكاترين معها تواسيها، بينما راح روبرت يتحدث إلى مايكل على مبعدة بسخط واضح، ووقفت بقية الجماعة من الإيطاليين والفرنسيين تتفرج. قالت لي كلوديا؛ "لقد أفسد هذا المايكل اللعين متعتنا".

في طريق عودتنا قال لي روبرت؛ "آسف مستر سامر، عليك أن تعذره، كنا نتمنى تعارفاً أحسن".. قلت؛ "أنا أتفهم وضعه".

كان الاستياء والوجوم على الوجوه.. وكان الصمت.

ألست أصوّر كل شيء بطريقة فجة وخرقاء؟ ألا يعكس هذا اضطراب وتشوش ما فيَّ؟ لست على ما يرام، وأخشى أن تسوقني مخيلتي المنفلتة إلى ما هو سمج ومخلخل، ولا معنى له.

اشتريت علبة سجائر وقطعة علك.. صعدت درجات مقهى على الساحل.. تحت قدمي انسحقت أوراق يابسة.. كانت الريح باردة، وعلى الرغم من ذلك جلس بعضهم في الخارج مأخوذين بالرعشة اللازوردية للبحر، وبطيور النوارس في صعودها وهبوطها إذ باتت تكثر بحرّية مع مغادرة البشر للساحل.

فوجئت بمايكل يجلس، وحده، على كرسي واطئ، ماداً ساقيه وهو يحركهما بضجر بيّن.. عرفته على الرغم من أنه كان يخفي نصف رأسه بقبعة كاوبوي عريضة.. مررت من أمامه من دون أن أنظر إليه.

ـ مستر سامر.

بدا صوته الأجش واضحاً، فلم أقدر على تجاهله.. رفع قبعته وهمَّ بالقيام.

ـ ألست المستر سامر؟

ـ أهلاً مستر مايكل.

تصافحنا.. دهشت لأنه تذكرني، فلم نكن قد تحدثنا معاً.. كنت أتذكره لأنه كما أفترض خرج من السلة السحرية لخيالي، واستوى كائناً من لحم ودم.

ـ تلك الرحلة كانت ممتعة لولا ما حصل.. تعال نشرب شيئاً إن لم يكن لديك مانع.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

قلت؛ "لا مانع لدي".

قادني إلى الداخل.. طلب كأس مارتيني، وطلبت كأس جن مع زجاجة صودا... ناولته سيجارة.

ـ شكراً أدخن المارلبورو.

أخذها، قلت؛ "تعودت أن أدخن أي شيء".

قال؛ "ذلك أمر سيئ".

قلت؛ "أجل، التدخين كله سيئ".

ضحك؛ "أجل، الأمر سيان".

نفث دخان سيجارته، وقال؛

ـ حسناً، في ذلك اليوم تمنيت أن أكلمك طويلاً، ولكن تعرف ما حصل.. أثرت انتباهي.

ـ ألأني عراقي؟

ـ لأن بيننا أشياء مشتركة كثيرة.

ـ أحقاً ترى هذا؟

ـ على الأقل خضنا حرباً مشتركة.. حرباً لعينة مشتركة.

ـ كنتَ طياراً.

غص بالدخان وراح يسعل.

ـ آسف لأني لم أعطك سيجارتك المفضلة.

ـ لا بأس، الأمر سيّان.. سألت عني إذن؟

هززت رأسي، وقلت؛

ـ روبرت أخبرك.

ـ روبرت، أجل.. كنا ننفذ الأوامر.. يحددون الأهداف ويقولون لـك، أطلق.

ـ ويموت البشر.

ـ آسف مستر سامر.. إنها الحرب بقوانينها الغبية، أن تقتل أو يقتلك من لا تعرفه، هل حاربت يوماً؟

ـ نعم، في الجبهة مع إيران.

ـ عمّال في مصنع الموت، وفقط هناك تلـك المقولـة الـسخيفة، المـصالح العليا للأمة.

ـ والمغفلون يدفعون الثمن.

ـ أفكارنـا متـشابهة، أو بعـضها.. أجـل، وهنـاك مـن لـه القـدرة عـلى استدراج المغفلين.

ـ كل حرب هي حرب بالإنابة.

ضحك مايكل، لا أدري لِمَ؟ وضـحكت، اسـتغرقنا بالـضحك. وبـدا كأننا تواطأنا على تغيير مجرى الحديث بوساطة الضحك. كـما لـو أن هـذا

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

الضحك المثقل بالمرارة استعاضة عن عجزنا، كلانا، أنا وهو ، أنا ومايكل، عن الاستمرار في الكلام.. نصمت فجأة.. نخرج إلى الرواق.

سيصرخ البحر، ومطر سيسقط.. يجيل مايكل النظر في السماء المختنقـة بالغيوم، وبالطيور التـي تـترنح في الـريح.. تتـضبب عينـاه.. يغمـضهما، ويمسك بالحاجز الخشبي لرواق المقهى الخارجي.. أمسكه من ساعده.

ـ لا شيء مستر سامر.. أشعر بدوخة خفيفة.

ـ كيف لي أن أساعدك.

ـ هذا لا شيء، أشكرك.

ـ هل تريدني أن أتصل بنيكول.

ـ نيكول غادرت.

ـ أنا آسف، أتريدني أن أرافقك لمكان سكنك؟

ـ لا بأس، لندخل.

في الصالة الضاجة بالثرثرة والدخان، يقول لي؛

ـ أشعر بالضعف والغثيان، وهناك ذلك الصداع اللعين.

ـ ونيكول، متى ستعود؟

ـ لن تعود.. غادرت إلى أمريكا.

لم أعلّق، وبقي هو صامتاً ينظر عبر زجاج النافذة.

ـ لا بد من أن يكون هناك من يعتني بك.. روبرت...

ـ ذهب مع كاترين إلى روما.. أستطيع الاعتناء بنفسي.

ـ هل أذهب بك إلى طبيب.

ـ المعذرة مستر سامر.. إنهم أغبياء.. لا أحد منهم بمقدوره أن يعرف على وجه الدقة ممَّ أعاني.

* * *

أعرف أنها تجربة مراوغة، زلقة غير مضمونة النتائج، وأن لحظة التوتر بين الواقع والمتخيل، بين الوجوه وأقنعتها، بين مظاهر سلوك الشخصيات، وما تعتمل في دواخلها، بين الدوافع، ولا سيما اللامرئية، والغايات التي من الصعب تحديدها.. أقول أن لحظة التوتر هذه تودي بي إلى فوضى مغرية، أو تبقيني في وسط الدوامة، طوال الوقت. فكيف لي أن أقع على النظام الخفي الذي أخاله يمسك بحركة الأشياء والوجود في هذه الرواية، ويحكم منطقها في عالم، وفي عصر، يبدوان لا منطقيين؟!

أعترف لمايكل بأنني أخلق الآن عالماً مكافئاً في جسد الرواية، أكتبها، أو قل أعيشها. ويعجب حين أخبره عن مايكله الآخر.. قرينه وقد حدد مصائر شتى داخل روايتي، فيتساءل في قلق عمّا إذا لم يكن تمثيلي لمايكل/ الرواية سيئاً ومغيضاً طالما أن دوره لن يتعدى الضغط بأعصاب باردة على زر لونه أحمر يصنع الرعب والموت والعذاب؟

أقول له؛ "قد تكون أنت، مايكل، هذا الذي أمامي، جيداً وطيباً، تحب الكلاب والخيول والأطفال، وتعشق امرأة جميلة، وتحلم ببيت حديقته واسعة في مكان هادئ، أو أنت كذلك بالفعل، لكنك، كما ملايين البشر في هذا العالم.. وأنا أيضاً. كلنا ضحايا نظام يرسم أقدارنا، في مؤسسات مدارة بكفاءة جهنمية لمصلحة أقليات محظوظة، ويدفعنا إلى الامتثال والذل، وإلى الموت والجنون".

أطلب كأساً أخرى من الجن.

ـ يقال أنكم أمة مغرمة بإلقاء تبعة خيباتها على الآخرين، وتتخيلون سيناريوهات ومؤامرات تحاك ضدكم، وكأن لا شغل للغرب سوى التفكير بتدميركم.

ـ ما تقوله صحيح إلى حد ما، ما نفتقر إليه هو التعلم من التاريخ ومراجعة النفس، وروح النقد الذاتي. لكن الغرب، كذلك، ليس بريئاً.

ـ أشعر أن ثمة انقطاعاً في التواصل بيننا وبينكم.. كما لو أن أحدنا لا يفهم الآخر، كأن اختلافاً محزناً بين الجهتين في طريقة التفكير ورؤية العالم.. أتراه سوء فهم مزمن لا سبيل إلى تخطيه؟

ـ الصدع يبدأ من اللحظة التي يشرع فيها أحدنا بتمييز الآخر أو إعادة خلقه في تصور ما، في قولبته والحكم عليه مسبقاً.

ـ لا أفهمك..

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ الشرق الذي في ذهنك، صناعة غربية خالصة.. أتعـرف البروفيـسور إدوارد سعيد؟

ـ لم أسمع به.

ـ أتمنى أن تقرأ كتبه.

يضحك.

ـ أقرأ؟!

ـ علينا أن نقرأ.. أن يقرأ أحدنا الآخر.. عليك أن تقرأني لتثبت براءتك إن كنت بريئاً حقاً.

ـ أعلم أنني لست بريئاً، ولكن هل أنت متأكد من براءتك؟

ـ لم أقل أنني بريء تماماً.. منذ زمن بعيد فقدت البشرية براءتهـا.. هـذا العالم مركّب بطريقة خاطئة، ولا أعلم كيف يمكن إعادة صياغته وتركيبه، ومن بإمكانه أن يفعل ذلك، وإن كان هناك حل حقا، في مكان مـا أو عنـد أحد ما، يمكن العثور عليه.. لا أريد أن أشكو.. فقط أتساءل.. ماذا تبقى لنا غير التساؤل.

ـ الذي يقود إلى الاضطراب والموت.

ـ أو الذي ينقذنا منهما، أو على الأقل يجعلنا حاضرين.

ـ وما الفائدة؟

ـ لنثبت شيئاً لأنفسنا.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ وهل يجعلك هذا سعيداً؟

ـ ربما يجعلني حراً بطريقة ما.

ـ الحرية والسعادة!

ـ إنهما توأمان.. كلاهما واحد.

ـ أحياناً لا.

ـ بالنسبة لي على الأقل..

ـ الشعور بالحرية!

ـ ألست حراً؟

ـ مع وحش الموت المتربص لا يمكن أن تكون حراً. وأنـت، هـل أنـت حر الآن؟

ـ لا حرية مع الهرب.

ـ أكنت حراً في بلدك؟

أضحك بصخب.. يبتسم.

ـ مم أنت هارب؟

ـ من أشياء كثيرة، أحدها الموت.

ـ بيننا قاسم مشترك إذن.. أتخاف الموت؟

ـ أخشـى الموت المجاني، الموت الذي لا معنـى له، المـوت الـذي يصنعه الآخرون بأنانية وسفالة.

ـ وهل هناك شكل للموت له معنى؟

ـ الجواب صعب. ربما نعم، حين تستطيع اختيار زمان ومكان موتك.

ـ تنتحر؟

ـ لم أقصد الانتحار، وإنما بعد أن تشبع من الحياة، وتقول؛ كفى.

ـ من المحظوظ الذي يستطيع؟

ـ لا أدري؟، من يدري؟ ربما لا أحد.

ـ ها أننا وصلنا إلى طريق مسدود.

وشرب ما تبقى في كأسه دفعة واحدة.

ـ أنت تسرف في الشرب.

ـ لأخدع الموت.

ـ الموت هو الشيء الوحيد في الوجود الذي لا يمكن خداعه.

ـ يمكن نسيانه.

ـ هو لا ينسى.

ـ إذن لنشرب.. اشرب يا صديقي.

شراب الجن يحلق بي.. أطلب كأساً أخرى. أقول لمايكل؛

ـ كيف أنت الآن؟

ـ أظنني أحسن حالاً.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

نشرب ونشرب، ويستمر حوارنا، وتتبدل الأدوار، يومئ لي مايكل أنه مندهش من قدرتي على التفكير هكذا.

ـ ربما لم تكن تتصور أنني أفكر أصلاً.. أو إن كان العراقي يفكر أصلاً.

ـ لم أفكر بهذا يا صديقي.. لم أفكر إن كنتم تفكرون.

ـ أو كنا بشراً حقاً.

ـ أنا آسف.. أنت تغالي أحياناً في الحكم.

ـ لا أدري.. أقترح لو نتوقف عن الشرب.

ـ أنت لم تشرب كثيراً.

ـ أنا سكرت تقريباً، أما أنت فقد سكرت.

ـ هذا لا شيء.. لا تقلق.. سأغادر؟

ـ وحدك، ليس من اللائق أن أتركك.

ـ أرجوك.. أستطيع الاعتناء بنفسي.

أعطيه رقم هاتفي، وعنوان بريدي الإلكتروني.. يلوح بحركة من أصابعه ويخرج.

ألبث جالساً نصف ساعة أخرى.. يسألني النادل إن كنت سأعاود الشرب.. أقول؛ "لا". وبغتة أحسني وقد قُذفت إلى جهة مغايرة.. الحال أشبه ما تكون بعملية سقوط سريعة في واد مملوء بالقطن.. أتقلب، ثم أجدني وعيوني في مواجهة سماء مكفهرة، فوقي. أسأل فيما إذا كان مايكل

قد جلس معي هنا، حقاً، ثم غادر قبل نصف ساعة.. أفكر أن أسأل النادل لأتأكد غير أنني لا أفعل. ما الفائدة؟ كما قال مايكل.

* * *

قضيت ساعات أبحث عن أخبار جديدة على مواقع الأخبار في شبكة الإنترنت.. عن تفاصيل أزمات وحروب وكوارث، تدور أو تنتظرنا ونحن على عتبة هذه الألفية الثالثة، مع أشياء مسلية قليلة.. قرأت تقريراً عن الحرب الاقتصادية بين أميركا وأوروبا واليابان، وآخر عن تجارة الرقيق الأبيض، وحواراً مع الروائي الكولومبي غابريل غارسيا ماركيز، وتحقيقاً عن تأثير الفضائيات على السلوك الاجتماعي، ثم وجدت دراسة موسعة صادرة عن معهد أميركي عن احتمالات حرب جديدة ضد العراق.

أحسست بألم في ظهري وهممت بإطفاء الجهاز، وفقط أردت أن أعرف قبل ذلك إن كانت ثمة أية رسالة متروكة لي على بريدي الإلكتروني من كلوديا.. فوجئت برسالة طويلة موجهة لي، موقّعة باسم مايكل.. عدت وجلست ثانية وقرأت الرسالة.. قرأتها مرات عديدة.

السيد سامر..

اضطررت للمغادرة، ويؤسفني أنني لم أودعك، وربما لن نلتقي أبداً، وها أنذا أخاطر بالكتابة إليك في دخول حقل ألغام لا أعرف كيف

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

أجتازه، وعلى الرغم من قصر المدة التي عرفتك خلالها فقد جعلتني أشعر بالقلق، فبعدما جئت من أجل الاستجمام والراحة إلى الساحل الإيطالي الجميل، ولو متأخراً وجدتك أمامي كأن القدر ساقك إليّ لتثير في رأسي أسئلة وأفكاراً طالما حاولت أن أصرف النظر عنها، وأن أدعها بعيداً، كي لا أنهار.

في بدء الحرب كنا نتصوّر عمليات التحليق والقصف لعباً نتسلى بها، وكان تفكيرنا ينصب على شيء واحد هو أن يثبت كل منا كفاءته ومقدرته في إصابة الأهداف، حتى كان ذلك اليوم حين ضُرب ملجأ العامرية ليحترق فيه أكثر من أربعمائة من البشر، معظمهم، كما عرفنا في ما بعد، نساء وأطفال. قيل أن هناك مركزاً لقيادة العدو.. وأعتقد أن تلك القيادة أفلحت في نصب فخ لنا لغاية دعائية وإعلامية، لا غير.. أظنك توافقني أنهم لا يتورعون عن فعل شيء مثل هذا، ومع ذلك ترك الحادث المروع بعضاً منا عصبيين مرتبكين.. ساعتها انزوى بي أحد زملائي، وهمس؛ هل سيغفر لنا الرب؟ لا أدري إن كنت أبحث عن العزاء أو الغفران.. لم لا؟ غير أنني قلت له؛ إنها الأوامر يا صاح..

والآن من المذنب ومن البريء؟

لست فيلسوفاً، وقد لا أمتلك ثقافة واسعة، ولا تعنيني السياسة في شيء، ولا يهمني من سيحكم في البيت الأبيض بعد الانتخابات القادمة،

التي لن أصوّت فيها قطعاً. ولكن تلك الحرب صيرتني كائناً آخر.. مريضاً وهشاً، ومشروخاً في الداخل، ومملوءاً بالرؤى المخيفة.. بالكوابيس.. هل أنت صحيح النفس والروح وخال من الكوابيس؟ لا أظن.

كنت أريد أن أجد لنفسي منفذاً، غير أنك ومن دون أن تقصد صرت حاجزاً يمنعني من الخروج.. لم نتكلم كثيراً، لكن وجودك هناك، على طريقي، بالمصادفة المحضة، أفهمني أن الأمر أعقد وأقسى مما أتصور.

يبدو لي أن لقاءنا ذاك كان محتماً، فأي منا كان لا بد من أن يجد الآخر في طريقه. بيد أن شيئاً ما كان يعيق تواصلنا.. شيء لم أصنعه أنا ولا أنت، ولكنه موجود بحكم طبيعة الأشياء، هل تفهمني؟ بالمناسبة، أريد أن أسرَّ لك بشيء؛ أحياناً أشعر أن خيطاً ما مقطوع بيننا، كما لو أن كلاً منا يفكر بطريقة مختلفة.. أهو اختلاف الرؤية أو اختلاف التجربة أو اختلاف المعايير والقيم، أو هذا كله؟ من يدري..

هكذا ترى أنني انسللت من زاوية ما من مخيلتك الروائية، وجئتك ممروراً بخواطري وعقدي.. لقد تخيلتني.. هذا ما قالته لي كلوديا وأكدته أنت بعد لقاء المقهى، فكنت إلى حد ما على صواب، وكذلك تخيلتَ نيكول، وكنت بشأنها على صواب، نسبياً أيضاً.. وربما لم تقل أنها أنبل وأروع من أن يستحقها رجل مثلي، ولقد عانت كثيراً، وتحملت نزواتي

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

وطيش سلوكي.. نيكول تلك أحبت الرجل الخطأ. وأنا، هل أحببتها؟ نعم، بصراحة؛ نعم، ولكن بكيفية خاطئة، وفي الزمن الخطأ، وهذا ما أثبتته الوقائع. وكانت على حق في رحيلها، ولا أرى طريقة لاستعادتها، بعدما تطاولت عليها بالضرب.. لستم أنتم الشرقيون وحدكم تضربون النساء.. لم أعترف لأحد، ولا حتى لروبرت بهذا الأمر، وأعترف أيضاً أنني بحاجة إليها الآن أكثر من أي وقت مضى.. لست عاطفياً، غير أنني أعتقد أن نيكول هي الشيء الوحيد في هذا العالم، الشيء الوحيد في العالم الذي يمكنه أن يعطيني العزاء، والقدرة على الاستمرار. وعليّ الآن أن أستردها، على الرغم من ضآلة احتمالات نجاحي في إقناعها.

كانت الحرب قد انتهت لتوِّها حين التقيت نيكول، كنا في مقصف ليلي والرقص في ذروته المجنونة.. رأيتها أمامي.. كانت رائعة تحت الأضواء الملونة، يزيدها اهتياجها رونقاً وعذوبة.. مددت لها يدي فمدت يدها.. كان ذلك هو البدء.. بعد أسبوع حملت حقيبتها وأشياءها وودّعت بيت والدتها لتعيش معي.. كانت علاقتنا قد توطدت كثيراً لما أخذت علامات المرض تظهر فيّ، وإذ ذاك أخبرتني بتوجس وفرح خفي أنها حامل، وأنها لن تسقط جنينها حتى لو أردت.. قلت لها؛ بل ستسقطينه، واعترفت لها بمرضي، وبما يمكن أن تكون تلك الحرب البغيضة قد خلفته في جسدي، والذي قد يصيب الجنين البريء في أحشائها.. صرخت وبكت وقالت

أنني كذاب، ففقدت أعصابي وضربتها.. كانت تلك هي المرة الأولى التي أضربها فيها، وكان من الصعب يوم ذاك أن أقنعها برأيي.. اقتنعت في النهاية، لكن علاقتنا تعرضت منذ ذلك الحين لصدعٍ لا سبيل لرأبه.

استيقظت ذات صباح لأجد أنها عادت بحقيبتها وأشيائها إلى بيت والدتها، وأنها تركت رسالة لي.

لم أقل أنني، في هذه الآونة شرعت بارتياد نوادي القمار، وصرت أفرط في الشراب.. حاولت نيكول منعي من دون جدوى.. لم أكن مستعداً للتخلي عنهما ـ أقصد الشراب والقمار ـ إذ ماذا يمكنني أن أفعل في جحيم الرتابة تلك. وعرفت نيكول أنني استدنت مالاً وخسرته أيضاً. ذهبت إليها في مكان عملها ـ لا أدري إن كنت تعلم أنها تعمل سكرتيرة في شركة تجارية ـ ورجوتها أن تقابلني في المساء.. قلت لها أنها لا يجب أن تتركني هكذا وإلاّ سأضيع.. قالت لي أنك في طريقك إلى الضياع فعلاً، وأنا ماذا يمكنني أن أفعله من أجلك إذا كنت مصمما؟ وعدتها أن أحاول إن عادت هي.. عادت غير أنني لم أستطع الإيفاء بوعدي.. كان الأمر يزداد سوءاً يوماً بعد آخر، ومعه داهمتني الكوابيس. ودائماً أراني في الطائرة تقودني إلى حيث لا أرغب، وتطلق النار على من هم قريبون مني، ولا أريد لهم الموت، وكان هذا يفاقم من حالتي، ويدفعني للجنون.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

أقترح روبرت، وهو صديق قديم، أن نذهب إلى أوروبا.. قلت؛ لم يعد الوقت ملائماً.. قال؛ ولكن هذا أفضل من البقاء حيث أنت.. ذهبنا أولاً إلى فرنسا ومكثنا أسبوعين، تخاصمت فيهما مرات عديدة مع نيكول، ولّما جئنا إلى إيطاليا رأيت أنت جانباً من الذي حصل.

لا أدري لم أختارك أنت بالذات لأعترف لك بهذا؟ وما هو ذلك الشيء المبهم الذي أستشعره في داخلي، ولا أقدر على وصفه أو كبحه. ذلك الشيء الذي يجذبني إليك، ويصلني بك، كما لو أنك كاهن بمستطاعك أن تمنحني السلوى والغفران. أو كما لو أنك تعرف، على وجه الدقة من أكون أنا. أو لأن بيننا شيئاً مشتركاً خلقه قدر الحرب من دون إرادتنا: الحرب التي نكرهها، مثلما أظن، كلانا. في مقابل شيء آخر، أقل قوة، ينفرني منك.

ها هو الواقع يتهاوى أمام سطوة المخيلة/ مخيلتك.. وأنا أجد أن بناء مخيلتك هو من صلصال الواقع وروحه.. هذا يعني كم اكتويت أنت في اللحظة التي كنت فيها أنا ألعب وأتسلى؟ وكم رأيت أنت، بينما كنت أنا أعيش ذلك العمى؟ وأي جرح ذاك الذي اسمه حنان ـ بعدما حدثتني عنها كلوديا ـ وقد أحدثته أنا.. ربما أنا، مع آخرين، بعضهم من بني جلدتك، في قلبك.

هكذا التقينا، من دون إرادتنا، في ذلك الملتقى/ المفترق الحرج.. في ذلك الأتون الذي صنعه الآخرون.

لست بريئاً من تهمة القتل، ولا أبحث الآن عن مسوّغات لجريرتي، لكنها الحرب، كما قلت لك في ذلك المقهى.. الحرب بقوانينها الغبية، والأطماع والمصالح والأهواء المريضة التي كنت ذرة في كتلتها الهائلة الملعونة، أو بيدقاً مغفلاً على رقعتها المرعبة، كما كنت أنت.. وأنا، في هذه الساعة، لا أعلم على أي مربع أقف، وإلى أين سيمضون بي، أو يمضي بي قدري. وكذلك لا تعرف أنت على أي مربع تقف، وإلى أين سيمضون بك أو يمضي بك قدرك، إذ ما زلنا جزءاً من برامج مغامراتهم شئنا أو أبينا.

وأنت، كذلك، لست بريئا كما قلت لك في المقهى، ولابد من أنك، في الحرب التي اشتركت فيها، مثلما حدثتني، قد أطلقت النار وقتلت.. لا تجزع، إنها الحرب، بكل ما تنطوي عليه من شرٍّ يا صاحبي. وضعفك أيضاً ليس دليل براءة، بل دعني أقول لك أنني أرى العكس تماماً.. الضعف في البشر حالة مدانة. والضعفاء عليهم إما أن يخرجوا من سلبية ضعفهم أو أن يموتوا.. المعذرة، هذا هو قانون الطبيعة، وقانون التاريخ حسبما أفهم.. كلانا له نقطة ضعفه القاتلة، وكلانا معرّض للموت، وافترض أن كلينا، أيضاً، يمتلك الفرصة التي قد تكون الأخيرة.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

أعتذر منك لأني أفسدت عليك متعة الرحلة إلى تلك الجزيرة، وقد كنت مثلي بحاجة نفسية إليها. وأعتذر منك لأني شغلتك في ذلك المقهى، وقد أخجلني اهتمامك بي. وأعتذر منك لأنني أطلقت صواريخ وقنابل على بلدك، وتسببت في قتل أناس من أبناء شعبك، ومنهم، ربما، أقرباء لك.. ولا تنس أنك، أيضاً، مسؤول عمّا حصل. وأنت، أيضاً، بحاجة إلى العزاء والغفران.

فلتغفر لي..

وليغفر لي ولك الرب.

هل ستغفر أنت؟ وهل سيغفر هو؟!

مايكل.

* * *

أحدث هذا حقيقة؟ أتراني حقاً التقيت مايكل، على أرض الواقع، وليس في فضاء المخيلة؟ هل تحدثنا معاً وكتب لي تلك الرسالة؟ أي خيط رفيع، قابل للانقطاع في أية لحظة، بين ما يجري لنا في العالم، وما نتصوره عنه في أوهامنا؟

أعود، بعد أيام، إلى تلك الرسالة، لكني لا أجدها.. ربما صارت هباءً بفعل كبسة زر خاطئة.. ربما هي من تخريجات مخيلتي المضطربة.. ربما بهذا التلفيق أحاول التعويض عن خسارات تتراكم بالرغم مني.. من يدري؟

لست أنا بلدي.. لست رمزاً.. لا أمثل إلا نفسي.. ليس مايكل أميركا.. وليس رمزاً بأي حال، ولا يمثل إلاّ مايكل، هذا المخترَع في رواية أكتبها. وإلاّ أكون قد ظلمته وظلمت نفسي.

* * *

كلما لمسني حد الليل، كلوديا، وأنت لست معي، يخرج شيء ما، كما حشرات الصيف، يخمش ذاكرتي.. يترك جرحاً، ونزيفاً وبيلاً.. تنداح صور وأفكار ورؤى ممزقة، وكلها آتية من أحلام نسيتها، أو من أمكنة سحيقة، فتداهمني طفولتي.. أسراري الصغيرة وفضائحي.. أصدقائي في الطرقات المفتوحة إذ نتحرش بما ليس لنا، وندعُ، مع سبق الإصرار، مخيلتنا تنكِّل بالبراءة.

كنا نجلس في ستر الظلام، نتهامس، مفتونين بالتآمر على نصائح الكبار فيأخذنا، ألعننا، خالد في الكلام إلى الدهشة المحرّمة.

كان خالد، في كل مرة، ينتزع قشرة عن جلودنا.. يرينا بعضاً من مضمراتنا الخطيرة الدفينة. فخالد أول من علمنا أبجدية مراهقتنا، وأول من كشف لنا لغز الأنثى، وأول من دلّنا إلى الطرق التي بها نفتق بالونات لذائذنا، ووسوس في آذاننا كيف نستدرج، بقوة المخيلة، أحلى البنات إلى مصائد شبقنا الناهض.

حدث ذلك في زمن بعيد؛ نسير منكمشين بخطى سريعة، والحشيش اليابس تحت أقدامنا مغطى بالثلج، ومياه المجاري الظاهرة جليد.. كم كان بارداً ذلك الشتاء؟ نركض عند اقترابنا من المدرسة طلباً للحرارة، وفي المدرسة يأمرنا المدير، في الاصطفاف الصباحي، أن نفرك أكفنا، ثم يروح يصفع فخذيه صفعات متلاحقة مع اهتزازات رجليه فنقلده.. بعد عشر دقائق ندخل الصف، وقد حصلنا على بعض الدفء.. يجيء الأستاذ (اس).. كان يمد حرف السين كلما انتهت كلمة بهذا الحرف فسميناه (اس).. الأستاذ (اس) يكتب بالطباشير على اللوحة وظهره إلينا كلمة (العلوم) ثم يخط جملة (تجربة الأواني المستطر...) فتمرق قطعة صغيرة من الثلج بموازاة أذنه.. ترتطم باللوحة وتسقط عند قدميه وتتهشم.. يلتفت إلينا غاضباً، فيرى ثلاثين وجهاً ضاحكا.. يستعر غضبه أكثر ويصيح؛ (حيوانات، سأعلّمكم بالعصا.. من كان ذلك الحيوان؟).. يقوم خالد سلمان (مراقبنا) ويشير إلى النافذة الزجاجية.

ـ أستاذ، أحدهم قذف الثلج من الخارج.

ـ ها.. ولكن الشبابيك مغلقة.

ـ هو فتح الشباك، وقذف الثلج، ثم أغلقه.

ـ كيف إذا كان يغلق ويفتح من الداخل، أيها الشاطر؟

يطلق خالد سلمان ضحكة صاخبة، ويقول؛

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ والله، أستاذ، ما أدري.

كان خالد أول الضحايا.. تلقى عشر ضربات من عود الرمان الرطب على باطن كفه وظاهرها، وجاء المدير.. لم يش أحد بمن فعل ذلك.. قال المدير؛

ـ طيب، عشرون عصا لكل واحد منكم.

وقفت وقلت؛ "أستاذ، أنا من قذف الثلج".

ران سكون مفزع.. أمرني المدير أن أتبعه إلى غرفته، ولحسن الحظ، أو لسوء الحظ، لمحت الباب الخارجي للمدرسة مفتوحاً.. لم أفكر كثيراً، وبوغت المدير وهو يراني أنسل من جانبه راكضاً، هارباً إلى البيت، لا ألوي على شيء.. كان يجب أن أبقى وأتقبل العشرين أو الثلاثين عصا على جسمي في ذلك الزمهرير، ولكني هربت.. كانت عقوبة أبي أقسى.. شدني إلى حديد الشباك من الخارج بالحبل.. بقيت في الباحة على هذه الحال طوال الليل، ولم تستطع أمي أن تفعل شيئاً سوى البكاء.. كانت ليلة مرعبة، ولأول مرة في حياتي فكرت بالموت.. أصبت بأنفلونزا حادة، وأوشكت على الموت فعلاً.. أتدرين من ذهب بي إلى الطبيب وتكفل بعلاجي. الأستاذ (اس) نفسه.. انقطعت عن الدوام لما تبقى من السنة ورسبت. ولكن سأسر لك بشيء.. لست أنا من قذف بقطعة الثلج تلك.. كان خالد سلمان.. ذهب إلى المدير في اليوم التالي واعترف بذنبه، وتلقى

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

العشرين أو الثلاثين عصا على جسمه.. كان خالد يجلس في الصفوف الأخيرة.. كان يبغي ضرب رأس الولد هشام الجالس في الصف الأمامي، غير أنه أخطأ الهدف.

بعد خروجه من المدرسة، في ذلك اليوم، جاء يزورني.. جلس واستغرق في الضحك، وبقينا نضحك لأكثر من نصف ساعة، حتى علّقت أمي؛ "أنتما مثل الشجرة التي تكركر". سأل خالد عن الشجرة التي تكركر وإن كانت أمي قد رأتها حقاً. ضحكت أمي وقالت؛ "هذا ما يقولونه لأمثالكما".. في تلك السنة رسب خالد سلمان أيضاً.. قال؛ "أعطيت دفاتر الامتحانات فارغة. لم أكتب فيها حرفاً".

صار خالد منذ ذلك اليوم صديقي، وتولاني نحوه ود هادئ وراسخ.. علمني فضيلة اللعب (تلعب .. نلعب .. نروح نلعب) كان يردد وقد فهم ، من دون أن يفلسف ذلك في عبارات منمقة؛ إن الحياة لعبة واحدة كبيرة وأن على الإنسان ، حتى وإن كان بنتيجتها (لفي خُسر)، أن يواصل اللعبة حتى نهايتها بنبل وثقة، وألاّ يقر بالهزيمة أبداً

في المرة الأولى التي دعاني فيها إلى بيته عبرنا أزقة عديدة .. وقف أمام باب أسود كبير وقرعه بقوة قبل أن يطلق ساقيه للريح .. تسمرت للحظات ثم رحت أجري في أعقابه لألحق به، وكنت حانقاً لأنه أراد أن يورطني. ولم نتوقف إلا بعد أن اجتزنا أزقة ثلاثة أو أربعة.. قلت:

ـ ذلك لم يكن بيتكم.

قال:

ـ لا.. ذلك بيت مأمور مركز الشرطة.

صرخت بوجهه؛

ـ ولماذا فعلت ذلك؟

قال؛

ـ لنضحك

وراح يضحك، ورحت أضحك. وفي بيته قدّمني لأمه؛

ـ هذا سامر صديقي.. ولد طيب وأمه الخالة (فاطمة) امرأة طيبة. أما أبوه (عمو شاكر) فلا يُجرع حتى مع كيس من السكر.

يستحوذ خالد على خرائط طفولتي ومراهقتي ويلوِّنها، فهو من أعانني على استكشاف التضاريس من حولي. وما يزال حتى هذه الساعة، بمستطاعه أن يعيدني إلى داخلي.. إنه الآن يشعل في دمي الحنين..

سأحكي لك حكاية أخرى..

خرجنا من المدرسة، والوقت عصر، والسماء مكفهرة. وبدأت قطرات ثقيلة من المطر تسقط هنا وهناك.. ثم، دفعة واحدة، هطل مطر مهول.. احتمينا بمظلات المحلات على جانب الطريق ريثما ينتهي المطر. وعلى

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

الرغم من صخبنا وضحكنا فإن شيئاً من القلق بدأ ينتابنا، لاسيما بعد أن ردد بعضنا كلمة (فيضان).

مطر ثقيل مكفهر بات يقربنا من ظلمة الليل.. نتسمع إلى شخيره المتصل المكتوم، ونرى الماء يسيل ليخفي إسفلت الشارع ودكة الرصيف، ويغمر أحذيتنا، ويصل الكاحل.. قال خالد؛

ـ لنذهب

صحت به:

ـ أمجنون أنت؟ كيف؟

كان اللغط قد خف، وفي عيوننا بان الخوف.. وحده خالد لم يكن قلقاً أو خائفاً. أو هكذا بدا لنا، على الأقل.. خلع حذاءَه وجوربه وضمها إلى صدره، مع حقيبته، وأطلق صوتاً عاتياً يشبه الصهيل، وركض، والماء يطرطش، ويتطاير من تحته، ليخلّف في نفوسنا الدهشة، وشعوراً بالعجز والغضب.

ضحى اليوم التالي، وكان يوم جمعة.. تلك الجمعة كانت مشمسة.. الزرقة نقية، والهواء بارد بعدما انقطع المطر وانحدر ماؤه إلى النهر ومضى. اقتعد خالد كرسياً لصق الحائط، في باحة البيت، في مواجهة الشمس.. كان هادئاً، مريضاً.. تلك هي المرة الوحيدة التي أذكره فيها مريضاً. كان يرتدي معطفاً عسكرياً قديماً، ورأسه مشدود بغترة جدّه العتيقة.

جلست إلى جانبه على كرسي أحضرته لي أمه.. قال إن حرارته ارتفعت في الليل فجـــاءوا له بممرضة أعطته حقنة مؤلمة، ولكـن دهمـه الزكـام، وهذا يحتاج إلى يـومين أو ثلاثـة مـن الراحـة والـدفء. ولـساعة أو أكثـر طفـــق يحدثني عـــن النخلـــة (البرحية) التي تتوسـط الباحـة.. عـن تاريخها وحكايات عنهـا غريبـة.. الأفعـى التـي سـكنتها سـنين طويلـة، وكلبهم الصغير الذي كان يصعد إليها ويقذفهم بالتمر. وأبوه الذي كـان يتسلق على عكس عادة الناس ـ رأسه إلى الأسفل ورجلاه إلى الأعلى ـ ثـم تمادى وقص لي حكاية الجني الساكن في لب النخلة، وكيف أنه إذا ما وقف يكون أعلى من النخلة، وإذا ما دخل بيته يصير أصغر من فأرة.

في هدوء نبرته، واتزان صوته كان يشي بالهذيان، فهل كان يهذي؟ لا، لم يكن يهذي.. كان مغرماً كعادته في إبهاري.. لم أقاطعه، كـما في كـل مـرة.. كنت مسحوراً بكلامه الذي حسبت أنه يخترعه في ظرف تلك اللحظـات. وبين الفينة والفينة كان يعطس أو يخمط.. شربت معه الـشاي وخرجـت، من دون أن أكون غاضباً، أو مستغرقاً بالضحك، وعرفت أنني معجب به وأوده.. لقد اكتشفت أنني أحبه.

وفي مرة قطعت صلتي به لشهور طويلة، ولم تفد مـساعي أصـدقائنا في رأب الصدع الذي حصل بيني وبينه. والصدع حصل في يوم بارد بعيـد..

في الرابع الإعدادي كنا، نحمـل حقائبنـا، ونحـن في طريقنـا إلى المدرسـة لنلحق بالسيارات التي ستنطلق بنا فجراً إلى مدينة الحلة في سفرة مدرسية.

كانت البلدة، لا تزال غافية، والظلمة تنفث آخر زفراتها حين راح خالد يضرب بقوة الدف الصغير الذي اشتراه خصيصاً لهذه المناسبة.. حذرته؛

ـ نحن أمام بيت مدير الناحية.

فلم يرعو.... على العكس، كلامي هذا جعله أكثر جنوناً.. رمى حقيبته أرضاً وبدأ يرقص وهو يهز الدف، تارة، مطلقاً رنينه الخارق، وضارباً على حافته بعنف تارة أخرى باطشاً بهدأة الصباح الباكر، كأنه يقصد أن يسرق من مدير الناحية لذة نومه. ويجبره على إيداعنا الحبس.

في هذه الأثناء وقفت أمامنا شاحنة الشرطة.. نزل أربعة مـنهم، وألقـوا بنا ـ وكنا أربعة أيضاً ـ في جوف الـشاحنة لتأخـذنا إلى المخفـر القريـب.. لاشك أن مدير الناحية اتـصل بهـم هاتفيـاً وأمـرهم بتوقيفنـا، ولم يُطلـق سراحنا إلاّ بعد عودة الطلاب من سفرتهم، في العاشرة مساءً.

في غرفة التوقيف كدنا نشتبك بالأيدي، لولا أن صديقينا كانا يتدخلان ليمنعانا، أو ليمنعاني، فأنا لم أكف طوال الوقت عن لومه وتأنيبـه، وهـو لم يكف عن تعليقاته وبعثرة نكاته، منادياً الـشرطي العجـوز (رأس عرفـاء جاسم) بين دقيقة وأخرى، والذي كان يخف لتلبية طلبات خالد المعقولة، وليوبخه على طلباته اللامعقولة، لأنه صديق أبيه.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

(ـ ريس شاي.. ريس شطيرة.. ريس ماء.. ريس أريد أبول.. ريس من فضلك اشتر لي نستلة، أو بسكويت، أو برتقال).

وأحياناً كان يطلب أشياء غير معقولة، فقط لكي يضحك؛

(ـ ريس راديو.. ريس تلفزيون.. ريس تلفون.. ريس مدفأة.. ريس المفتاح كي نفتح الباب ونهرب).

والرأس عرفاء جاسم يضحك معه حيناً، ويشتمه حيناً، لكنه لا يتجاهله أبداً.

وأخيراً قال لنا؛

ـ هذه مناسبة مثيرة ستذكرونها طوال أعماركم، وقد منحتها لكم، أما أولئك فلن يذكروا من سفرتهم إلاّ ما هو عابر وتافه.

كان خالد بهذا على حق، ففي الأيام التالية تحدث الطلاب عن حكاية توقيفنا أكثر مما تحدثوا عن سفرتهم.

خالد، بحدسه الغريب.. بفطرته التي قلّما تخطئ.. بمجس المغامرة الذي يملك، أتقن فن مراوغة المرآة.. كان عصياً على الرصد، ومن الصعب أن تخمِّن ماذا سيفعل في أي موقف.. أذكر عجوزاً ماتت في جائحة مطر آخر.. لنهار كامل ظل ماء السماء ينهمر، ولا أحد يسعى لحفر قبر.. قالوا، انتظروا ريثما يتوقف المطر.. لم يتوقف حتى في صبيحة

اليوم التالي. وإذ ذاك حمل مجرفة ومضى وحده.. قال؛ لعله الطوفان الثاني، ماذا تأملون؟ وجاء قبل الظهر منقوعاً بالماء والطين، يرتجف.

ـ أسرعوا لئلا يمتلئ القبر بالماء.

فخرج الناس ليدفنوها، لأنه بدا من العار إذ ذاك، ألاّ يفعلوا. ولمّا وصلوا المقبرة كف المطر عن الهطول.

* * *

كان بإمكاني البقاء، غير أن شعوري بالغبن والعطالة، وسفر خالد، وموت حنان، هذا كله جعلني لا أطيق نفسي.. اقترحت شيماء أن أغادر إلى ليبيا لسنتين أو ثلاث، وأجمع بعض المال وأعود لأتزوج.. لم يكن لي هدف محدد، ولكني لم أتردد طويلاً.. حملت جواز سفري، وحقيبتي الصغيرة، وركبت حافلة إلى الأردن، وهناك من دون عناء حصلت على عقد عمل في ليبيا.

في جامعة طرابلس وجدتني أدرِّس مادة الأدب الإنكليزي، وبقيت لشهرين أو أكثر أسأل عن خالد، وأخيراً علمت أنه في مدينة (البيضاء).. أرسلت إليه خطاباً فجاءني بعد أسابيع.. كان في هذه الآونة ذابلاً، وكثير التهكم.. حدثني عن رحلته على ظهر مركب غير آمن من ميناء العقبة، وحتى مرفأ أفريقي قديم، ومن ثم مكوثه في ذلك الخان العجائبي على تخوم

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

الصحراء، وانتظار الشاحنة التي ستقله مع آخرين في طريق رملي، بلا علامات دالة، لثمانية أيام، إلى واحة في جنوب ليبيا.

الخان الذي لبث فيه لأيام، والشاحنة التي ركبها مع آخرين لأيام أُخر يرتسمان الآن في ذهني فأكاد أشهد تفاصيل تلك الحكاية المقتطعة من تراجيديا حياته. فلقد حلمت، ذات مرة، أنني في الخان ذاك، وحدي؛ الريح تصفر، والرمل يسفع وجهي، وأنا أصيح؛ خالد، بينما الخان محاصر بوحوش غريبة، لا أدري ماذا تبغي؟

يفرض المتخيل منطقه، وما عليّ إلا أن أطوّع اللغة لأعود بخالد إلى صحرائه، وأورطه بالمغامرة، كرّة أخرى، وهذه المرة، في نسيج روايتي.

* * *

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

خالد في الصحراء

كأن ما جرى لا يمت إلى الواقع والمعقول بصلة. لعله لم يكن واقعاً. أنفتح شرخ مفاجئ، وجذبته الهوّة. لم يستغرق الأمر إلاّ ثواني معدودة، فوجد نفسه في زمن آخر. في القرون الوسطى ربما. خان عتيق، في جهة ما من الصحراء، كأنها تنتمي لبلاد تختلف عن أي بلاد. وبشر يرتدون على جلودهم شديدة السمرة، وبعضها بلون الأبنوس اللامع، ملابس بيض غريبة.

الألوان، هاهنا، قليلة، محتقنة، غبراء. وحده الأفق، وهو يحتضن الغروب الأرجواني يمنح إحساساً بالحياة. لكنه إحساس موحش، ناء وكئيب. فباستثناء بضع شجيرات صحراوية، غير مثمرة ربما، لم تكن هناك أشجار باسقة أو حدائق. أما البيوت فكانت بلون التراب، هلامية، بلا ملامح. وليس لدى من يسكنون هنا سوى أن يبيعوا الماء واللبن والتمر والفاكهة المجففة للمسافرين الذاهبين إلى المجهول، وأن يقضوا بقية وقتهم الطويل في القعود بصمت، أو الثرثرة، أو التزاوج. وقد تكون تلك متعتهم الوحيدة في هذا الصقع المنسي.

* * *

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

أكثر ما أثار انتباه خالد في هذه الزاوية المهملة من العالم هو شعارات التحذير المكتوبة على أوراق المقوى بخط رديء، والموقّعة بعناوين مؤسسات راسخة؛

{ احذروا الإيدز }.

عشرات الأوراق، وقد ألصقت على جدران الخان من الخارج، ومن الداخل.. تساءل خالد في سرّه؛ ترى ماذا يجري؟

{ احذروا الإيدز }.

وخيل إليه أن لا أحد، هاهنا، يعنيه الأمر.. ولن يقرأ هذا الشعار أحد، سوى عابري السبيل من أمثاله.

كانوا يدخلون جذلين.. أسنانهم العاجية ترجّع صدى صليل الشهوة في الدم.. أسنانهم المكشرة عن ابتسامة فرح طارئ ـ مرتقب.. ويخرجون، وشفاههم الغليظة مزمومة، وفي عيونهم متاهة الصحراء، وانكسارها اليائس.

سأل خالد رجلاً عجوزاً كان يجلس إلى جانبه في الفناء عمّا يحدث حقاً.

تأوه الرجل فبانت خرائب أسنانه.. قال؛

ـ هذه هي جهنم الحمراء.

انتفض رجل آخر، كان قريباً. ملامحه غريبة كأنه لا ينتمي لسكان الأرض.

ـ أتريد؟

ـ ماذا؟

ـ أية واحدة. عليك أن تؤشر فقط، وتدفع.

ـ والإيدز؟

ضحك الرجل. لم يكن ضحكاً اعتيادياً. كان شيئاً كالنقيق.

ـ الإيدز؟ أتصدق هذا الهراء؟ منذ آلاف السنين وأجدادنا يفعلون هذا الشيء، ولم يكن هناك إيدز..

قال خالد متهكماً؛

ـ وهل لك أجداد؟

ابتسم العجوز. وقهقه الرجل الذي سرعان ما علّق؛

ـ قل لي بالله عليك، من أين يكون قد جاء هذا الإيدز؟

لم يشأ خالد أن يناقشه، غير أن الرجل ألح.

ـ أتريد؟

ردّ خالد وهو يحدق في: { احذروا الإيدز } .

ـ لا.. لا أريد.

فقام الرجل وغادر.

* * *

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ها هو خالد جالس يترصد شكل الإثم في القتامة المضيئة. في الحلقات الصفر المنهالة، والواجة جوف العالم الملوث. المتدفقة من الأصل المعتم المرعب القصي. من لانهائية الزمان الخارقة للجسد. الجسد الحاضر على السراط دوماً، والمهدد بأن يُقذف إلى الهاوية المحرقة.

أتراه يختفي (هذا الإيدز) في ما وراء طاحونة الرغبة؟ أهو أمر يتجاوز ممكنات الجسد، ويتصل بالكينونة الخفية للإنسان. للإنسان الذي يواجه معضلات الوجود بما لا يكفي قطعاً من الوسائل، أو يعبر الطريق الطويل بقليل من الزاد؟ والأيدز، ما هو؟ ما هو؟ لماذا يلوح مثل شيء مقدّس يعرفونه متسربلاً في غلالة غامضة ويخشونه، ويحملون ضده بعضاً من ازدراء خفي أيضاً، كأنه موجود وغير موجود في الوقت عينه؟

هذا ما دار في خَلد خالد، في تلك الساعة (على ما أظن. أو يُفترض أن يكون الأمر كذلك؟). من يدري؟

للحظة، دب في دخيلته إحساس بالأسى. بلا اكتراث سار، كما لو أن صِلاته كلها انقطعت بالعالم.. إنه الآن في هذا الملكوت الضائع، العقيم، المعطّل وحده ـ وللمرة الأولى في حياته يتذوق المرارة الصافية المسكرة للوحدة. فلا يهم، الآن، إن تأخرت الشاحنة أسبوعا أو شهراً أو سنين. ولا يهم الآن إن سقط الثلج أو المطر، أو هبت العاصفة، أو ضرب الأرض الزلزال. ولا يهم الآن، الإيدز. بيد أنه في ذروة تجلي هذه اللحظة ما كان يشتهي امرأة؛ أية امرأة.. كان خالد مكتفياً بذاته إلى حد مريع. وكان

يعرف أن هذه لحظة منقضية مهما حاول الإمساك بها واحتواءَها. وما كانت رغبته سوى أن يغور في الصمت ولا يتكلم. وحين جاء الرجل ثانية، قام ليبتعد.

ـ هوه.. أنت؟

وقف خالد.. صاح الرجل:

ـ ثمة واحدة جديدة لم تمس..

قال خالد ساخراً:

ـ وهذه مشكلة أيضاً. أخشى أن أصيبها أنا بالإيدز.

وقف الرجل حائراً، وأطلق العجوز ضحكة كالنقيق، بينما مضى خالد إلى غرفته.

* * *

ستصر أمه على أن يحمل معه البطانية ـ بطانية ثخينة كاكية هي من مخلفات الحرب.. سيطويها ويقنع نفسه بأنها متشربة برائحتها: رائحة الأم.. سيعبر ببطانيته القديمة وسط دهشة انضباطية سيطرات التفتيش من بلدته/ السعدية وحتى الحدود الأردنية. وسيشك الضابط المسؤول في طريبيل، بسبب البطانية أيضاً، باتزان قواه العقلية. وسيركب البحر من ميناء العقبة وحتى المرفأ الأفريقي. ولسوف يرفض أن يقذف ببطانيته في البحر الأحمر بناءً على اقتراح أحد أصدقائه العابرين.

* * *

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

في ليلته الأولى، وكان ثمة في الخان مصريون وسوريون ولبنانيون وسودانيون وأفارقة، وغيرهم فكر خالد بالإيدز. بذلك الشيء المبهم العدائي، المحجوب، المتربص الذي لا يفصح عن كنهه بوضوح. إنه موجود وغير موجود. لا كالخرافة. لا كالجن، بل كاحتمال من احتمالات اختراع الموت، كما العواصف. كما متاه الصحراء. كما الطلقات الطائشة في الحروب..

تدثر خالد ببطانية أمه. تسلل إليه ذلك الدفء العبق، الدفء البعيد.. تهيأ له أنه ماضٍ ـ وقد أغمض عينيه ـ في تعاريج حلم غابر، ينتظر امرأة وراء دالية كثيفة الأشجار، في غبش رائق، مستسلماً لرنين الأجراس ينبث من أعماق نهر ديالى. كان يتفرس في الأمواج اللاعبة، والانتظار يشحنه بقلق عذب.. ما كان يومها يهجس بالإيدز.. لم يكن قد سمع به قط.

آلاف الأميال تفصل الآن خالداً عن تضاريس حلمه القديم. عن نسائه اللواتي ابتكرهن بعبثه وألعابه، وبالخمر، وبثرثرات آخر الليل. ثم ضاع في ضباب نزواتهن. ليجد نفسه أخيراً مقذوفاً في صحراء مصيره، يتهدده الإيدز والعواصف والتيه والمجهول.

* * *

أمضى خالد ليلته الأولى ـ كما سيمضي لياليه الثلاث أو الأربع التالية، في غرفة صغيرة مع أربعة مصريين، تحدثوا عن الإيدز والنساء والفقر والموت

جنوب الصحراء الأفريقية. وحين ستأتي الشاحنة بعد أيام تكون صداقته قد تعمقت بهم جميعاً.

قال فريد إنه لولا الإيدز اللعين هذا لكانوا الآن يعيشون ليلة عسل وحلاوة وهز يا وز.

قال إسماعيل شحاتة؛ "يا إخوانا، هذا الخوف من الإيدز وتهويل الأمر فيه مبالغة كبيرة، ولكن يجب الاحتراس".

قال فريد؛ "أنا سأضاجع المرأة التي تهوّش عقلي حتى لو عرفت أنها مصابة".

علّق حنفي؛ "يعني فلسفة حضرتك أن مضاجعة معتبرة تساوي حياتك كلها".

والتفت إلى خالد:

ـ ماذا يقول الأخ العراقي؟

قال خالد:

ـ أليس العالم كله مصاباً بالإيدز.

سأل فريد:

ـ إزاي يعني؟

قال شحاتة:

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ أنا حفهمك يا فهيم.. دي فلسفة.. حضرته يعني أن العالم فقد قوة الحياة والإرادة واستسلم.. كلامي صح؟

قال خالد:

ـ نعم، هو شيء قريب من هذا.

سأل حنفي:

ـ وبرأيك، من المسؤول عن ذلك؟

قال خالد:

ـ ليست قرود إفريقيا المسكينة قطعاً.

ضحكوا.. قال فريد:

ـ دول بتاع البنتاغون، ولاّ إيه؟

وامتد النقاش وفاض، واختنقت الغرفة بالدخان. وكان الرابع واسمه محمد مرزوق ساكتاً، يقرأ في مجلد ضخم، في ضوء فانوس معلق عند رأسه، ويرمقهم بين الحين والحين وهو يمسّد لحيته.. وأخيراً، لمّا تعرج الحديث ثانية إلى حكايات النساء والمضاجعة، خرج عن صمته، وقال:

ـ اتقوا الله.

قال فريد:

ـ أيوه.. تكلم أخيراً الوكيل بتاع عزرائيل.

فانفجروا بالضحك، وضحك خالد أيضاً.. لم يأبه الشاب الملتحي، وتركهم حتى سكتوا فقال:

ـ بتعرفوا الحقيقة وتعموا عنها.. الإيدز ده لعنة من رب العالمين على الفاسدين والفاسقين من أمثالكم. طبعاً الكلام ده يخصكم انتو التلاته بس.. مش أخينا العراقي.

قال فريد:

ـ اسكت أنت يا عم وخليك في كتبك.

أراد خالد أن يغير مجرى الحديث فسأل:

ـ لماذا تذهبون إلى ليبيا من هذا الطريق؟

ضحكوا.. قال حنفي:

ـ آه، هذه حكاية أخرى، وإذا عُرف السبب بطل العجب.

* * *

خرج خالد إلى الظلمة، وريح الصحراء.. مشى على الرمل المتململ وقد أحس أن كل شيء أمامه مفتوح له . كانت الغواية همساً رفيقاً يستدرجه، غير أن الوحشة راحت تكبر في أعطافه. وحشة لاذعة كما لو أنه لن يلتقي بأشيائه الحميمة ثانية، فراحت دموعه تنحدر. دموعه التي سيتركها للظلمة والصمت.

غادر خالد غرفته بحقيبة ملابسه. غادر بيت أمه ببطانية كاكية. غادر بلدته بحلم مجدور. أما وهو على حافة الصحراء العجيبة هذه فقد اكتشف أنه غادر نفسه أيضاً ـ طفولته اللاهية وصباه البهيج . غادرها منذ زمن بعيد.

كان من الممكن أن يوغل أعمق وأعمق لولا عواء حيوان برّي بعيد أعاده إلى صوابه فقفل راجعاً إلى غرفته. كان محمد مرزوق وحده صاحياً، ما يزال على ضوء الفانوس الشحيح يقرأ في مجلّده السميك.

بين القداسة والدنس ينبض الليل، وتولد، لوهلة، الرعشة المبهمة. الرعشة المدنّسة، علامة الحياة . تولد في العصب القصي الذي يخص الروح. ففي افتراض متأخر يدهم خالداً تهويم امرأة أبنوسية يسكنها بين جنحيه وهو قائم، يتقد عند الحافة الناتئة للإيدز..

هذا ما طيّر النوم من عينيه لساعات.

* * *

أقبلت الشاحنة بعد بضعة أيام تحمل صناديق وبشراً من كل صنف وفج. سأل خالد في ما إذا كانت الشاحنة ستحمل هؤلاء كلهم في حوضها: مَن جاءوا ، ومَن ينتظرون في الخان.. قال له السائق البدين؛

ـ هات ضعف هذا العدد وسأعبر بهم جهنم الحمراء.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

أفهمه السائق أن شاحنته قرينة سفينة سيدنا نوح عليه السلام، من تخلّف عنها سيغرق لا محالة.

قال خالد:

ـ وإن غرقنا في الصحراء؟

قال الرجل بتهكم مرح؛

ـ الله غالب.

أقبلت في هذه اللحظة، امرأة بأنوثة متفجرة، صيّاحة، تضحك. اقتادها السائق الذي بدا أنه يعرفها جيداً إلى واحدة من غرف الخان الكثيرة، وقبل أن يرد الباب نظر إلى خالد وأطلق كلمة لم يميزها خالد، لكنه حدس أنها كلمة بذيئة.

* * *

ها هنا، ما كان ثمة شيء يمكن أن يغري خالداً بالعودة، وكان يعرف أنه لن يعود إلى هذا المكان مرة أخرى أبداً.. وعلى الرغم من ذلك تملكه حزن صاف، وهو يصعد الشاحنة مع حقيبته وبطانية أمه.. ها هنا مكان، إذا ما مر به امرؤ، في أي يوم، فإنه لن ينساه، فهو مكان لا يشبه أي مكان آخر في العالم.

تركت الشاحنة البلدة، والخان، لتخوض في ملابسات الصحراء.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

سكن الرمل تحت لهاث الضوء الفاتر، وتحشرجت الشمس قبل أن تغوص كرة صمّاء خلف حد الرؤية، وسرعان ما جثم ليل كثيف، وحلقت زنابير البرد.. كانوا ثلاثة وعشرين رجلاً سلّموا مصائرهم لنزق سائق جشع، ولكف عفريت التيه، ومضوا في اللغو؛

ـ كثيراً ما تاهت الشاحنات، أو تعطلت.

ـ وجدوا هياكل عظمية.

ـ هناك قطاع طرق أيضاً.

خالد، الناجي من حربين طاحنتين، وعشرات المصائد يجد الآن نفسه وجهاً لوجه أمام قدر معتم وثقيل؛ قدر الصحراء.

في فجاج الطنين واللغط وهدير السيارة والبرد القارس تدثر خالد بالبطانية، وفكر؛ "كم كانت أمي على حق".. وتولته إغفاءة رقيقة.

* * *

فتح خالد عينيه على أثر أنين وحشي، وفحيح مكتوم.. كانا أمامه.. تملكه رعب أسود.. فتح فاه لينطق غير أنه وجد رأسه خاوياً ، فلم ينبس. وما كان متأكداً من أن هناك يقظان آخر غيره يشهد الآن هذا الهول.

تنبه أقربهم للعينين المذعورتين اللتين تراقبانه فلاح في وجهه، كما تهيأ لخالد، تعبير حيوان بري في قفص. وظل صامتاً سوى ذلك الأنين الخارج من بين شفاهه الغليظة المغلقة.

أما الآخر الذي كان خالد يرى رأسه بقعة أشد سواداً من هـذا الليـل، وهو يتحرك بإيقاع صارم، فقد قال من بين أسنانه، بلكنة إنكليزية ثقيلـة، وهو يحدق في وجه خالد بثقة:

ـ الإيدز.. أكذوبة الإيدز لا تـصدقها.. يريـدون ـ أولئـك الأجانـب ـ سلبنا آخر حقوقنا.

حين استيقظ خالد أخيراً ما كان موقناً مما رآه في ذلك الهزيع الهارب من ليل المتاه.. هل كان يحلم، أم أنه كان إزاء واقعـة دامغـة؟ نقّـل عينيـه بـين الوجوه، ولم يستطع أن يميـز أيـاً مـن الـرجلين، وقـال في سره: إن الأمـر سيكون في هذه الحالة سواء.

توقفت الشاحنة، ونزل السائق وهو يلعن.

ـ تعطلت.

فكر خالد أنه سيحدّث أصدقاءه، في ما بعـد ، إذا مـا نجـا، عـن تلـك النظرات الجامدة. نظرات الرجال الثلاثـة والعـشرين. نظـراتهم الخرسـاء المعلّقة بالحافة البعيدة، المعتمة، للموت.

هبطوا من الشاحنة، بينما الشمس تحرق الرمـل تحـت أقـدامهم.. فـتح السائق غطاء المحرك، ودس رأسه هناك.

* * *

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

بالضحك واجه خالد لا أبالية الصحراء، وبرودها وسخريتها.. هكذا، على حين غرة، كسر حاجز الرعب بالضحك. لم يكن ضـحكاً مجنونـاً، ولم يكن مفتعلاً. كان صادقاً وصميمياً، وخارجاً من القلب، ومتحدياً وبـاتراً وحاسماً، ربما ترك في نفوس بعـضهم الاشـمئزاز والغـضب، وفي نفـوس بعضهم الآخر الخوف، وأعطـى لـبعض ثالـث القـوة والثقـة.. وأخـذت عدوى الضحك تسري من شخص إلى شخص فطفقوا جميعاً يضحكون. حتى إذا استرخت أجسادهم، وأحسوا بالفراغ، وهذه المـرة في دخـائلهم، سأل خالد صديقه المصري إسـماعيل شـحاتة هامـساً؛ في مـا إذا كـان قـد لاحظ أمراً غريباً حدث في الليلة الفائتة.

قال إسماعيل متهكماً، كما لو أنه كان في انتظار هذا السؤال:

ـ لا يا عم . لا غرابة ولا هم يحزنون. دي حاجـة طبيعيـة.. قـصدي أن الطبيعة تعبّر عن ميولها العميقة بطرق مختلفة. حتقول الشاذة. أقـول لـك، المسائل دي احنا البشر حددناها ووصفناها بالشاذة. يعنـي الحاجـات دي تخص عالم ما وراء الحضارة. فهمت ولاّ أعيد .

ضحك خالد بخفوت، والتعب باد على وجهـه، وقـال مقلـداً اللهجـة المصرية:

ـ ابن الإيه... كل حاجة واضحة.

وراح المحرك يدور مرة أخرى.

* * *

والشاحنة تهدهدهم، في الليلة الخامسة، وهي تقعقع تحت ملايين النجوم، سأل خالد، إسماعيل شحاتة:

ـ لماذا الجميع صامتون؟

ـ ربما لأنهم خائفون.

ـ مم؟

ـ بالله عليك يا خالد.

ـ أنت الآخر تفضل الصمت.

ـ هذا الليل يشعرني كم أنا ضئيل.

ـ لو كان معنا قليل من الويسكي.

ـ أششش .. سيطعنك محمد مرزوق بخنجره لو سمعك.

ـ أيحمل معه خنجراً؟

ـ هو شيء أكبر من الخنجر.

ـ لا؟!!

تباطأت الشاحنة، ثم توقفت. سمعوا رغاء جمال. مدّوا أعناقهم. كان بضعة رجال ملثمين على جمالهم بملابس دكناء فضفاضة يحملون بنادق، أحاطوا بالشاحنة.. نزل السائق والرجل الذي يجلس إلى جانبه، ودار حديث مغمغم، لم يسمع خالد منه شيئاً، فهمس بتهكم؛

ـ هل سيذبحوننا؟

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

قال إسماعيل:

ـ لو تسكت أنت.

التفت السائق إليهم، وأفهمهم أن الرجال بحاجة إلى تبغ وعلب ثقاب وشموع وسكر.. سأل خالد بصوت خافت:

ـ هل هم قطاع طرق؟

ـ يا رجل .. هؤلاء أصدقاء لا يغدرون.

أخرج خالد علبتي سجائر من حقيبته، مع علبتي ثقاب كبيرة وناولها للسائق، وقال:

ـ الأصدقاء يستأهلون، ولكن لا شمع لدي ولا سكر.

تشجع الآخرون، وخلال دقائق جمع السائق علب سجائر وثقاب، وعدداً من الشموع، وأخرج هو لفافة كبيرة، مغلفة، وناولها لأحد الملثمين الذي بدا أنه شيخهم، والذي رفع يديه لتحيتهم، وربما قال شيئاً، فرفع من في السيارة أيديهم.

صاح خالد بينما السيارة تبتعد.

ـ انتظرونا غداً.. في هذا المكان نفسه.

قال حنفي وهو يضحك:

ـ يا ابن اللئيمة، لماذا لم تذهب معهم؟

قال خالد:

ـ لو كنت أملك جملاً ولثاماً وجلابية أرتديها.

هز شيخ سوداني رأسه وراح يضحك، وانزلقت السيارة على الطريق الرملي غير المعلّم، واختفى الملثمون مع جمالهم في ليل الصحراء.

* * *

همهمة غامضة، أولى، هرّبتها الصحراء.. همهمة سرية تناهت إليهم. كان ذلك في اليوم السادس لرحلتهم العجائبية.. أداروا عيوناً قلقة، وقد فهم كل واحد منهم أن أمراً ما، مكدِّراً، على وشك الحصول.

اجتاحهم صفير عات، ولطمتهم الرمال. رمال كأنها طريدة وحوش ضارية. ومعها تخلخل كل شيء، ودمدمت الطبول. كانت طبولاً تدوي في الرأس. في الفراغات التي باتت تتسع، حيث تدب الفيروسات وتطيح بالمزيد من القلاع.. مثل هذا الرمل لا يسعك إلا القعود والاستسلام له، فقد يستمر ألف سنة، كما تهيأ لخالد الذي انفصل عنه كائن، هو توأمه، ووقف على مبعدة يراقبه؛ هو الملتم على نفسه، والمحتمي ببطانية أمه التي هي بلون الصحراء. وبدا الموت قريباً جداً.. قريباً إلى حد أن خالداً أسف لأنه لم يمض مع نساء الأبنوس ساعة تهتك أخيرة، يواجه نفسه فيها عارياً، وقد تحرر تماماً من كل شيء. وفكر؛ لا شك أنها كانت فرصة

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

الحرية الأخيرة وقد تلاشت في ذلك الخان الحلمي. وخطر له أن ذلك الخان ما كان قط. كان وهماً، ربما. مشهداً خاطفاً في حلم عابر.

هكذا استيقظت مردة الصحراء. أقبلت في سحابات سود، حانقة، من الرمل. أو مثل جبال تتحرك وتدفن كل ما في طريقها. ولساعات طويلة لبث خالد مع العشرين أو الثلاثين الآخرين. يخفون رؤوسهم بين أذرعهم مثل قنافذ خائفة. واستحوذ عليه إحساس طاغ بأنه وحيد. لا قوة في الوجود يمكن أن تنجده سوى المصادفة. المصادفة ذاتها التي أيقظت المردة يمكنها أن تنيمهم أيضاً حتى تصل الشاحنة إلى تلك الواحة الجنوبية من ليبيا.

ـ هناك ستطمئن من أنك وصلت.

ـ لم تبق من المسافة أكثر من يومين، أو ثلاثة.

ـ وربما هي أربعة.

* * *

المردة تعوي بجنون. عواء وجنون عابثان، لا جدوى منهما. وأيقن خالد كم هي الطبيعة حيادية ولا أبالية ومتهكمة.. وشيئاً فشيئاً استحوذت العتمة. عتمة مقبضة تخرقها بين الفينة والفينة أشرطة شاحبة من الضوء توحي بأن النهار ما يزال. ومن خلل جموح الريح تسمّع خالد لبسملة

البشر هؤلاء وحوقلتهم وأدعيتهم، وربما بكاء بعضهم كذلك. وصار بمقدوره أن يدرك البؤس الإنساني بلا جدواه، وبلا معناه، العميقين.

ما يجري حولهم ، وضدهم، وعلى الرغم منهم هائل وصارم ومعذب ولا إنساني.. إنه شيء لا يلامس جلودهم فقط، بل ينخر دخائلهم، ويخلّف فيها حالة من الإذعان الذليل.. من اللا مقاومة.. إنه يفتك بنقاط التصدي فيهم، ويصعد بلا هوادة، ويجعل ما هو حي نضر ذابلاً ومريضاً، ويتركهم خاوين، ومهيئين تماماً للنشور. إنه إيدز يبغي الروح. إيدز يداهم الوجود الصميم للإنسان، جاعلاً إياه هامشاً ضالاً في القفر، وثرثرة فارغة تتبدد أبداً. وعجب كيف أن الصحراء المديدة الهائجة تُقلص الأحلام إلى انزواء في غرفته/ في بلدته، مع صديق يحتسي معه الشاي ويثرثر.

ثم، رويداً رويداً هبط ذلك السكون الفاتر وتوامضت النجوم. حشود من نجوم قديمة، لا تهتم. كانت النجوم هي الأخرى غير مهتمة.. في رأس خالد كان صداع خفيف. في عينيه كانت حرقة واخزة. وفي فمه كان الطين.. كانوا واقفين جميعاً، في هذه الساعة، وعلى وجوههم بقع صدفية من الملح، وخطوط سود غائرة، ونظراتهم فارغة كما المومياءات.

وتساءل خالد: ماذا يمكن أن يكون الآن دائراً في رأس كل واحد منهم؟

* * *

جال ذهن خالد بين حيل الذاكرة وممرات النسيان.. فكر؛ "أمامهم جنتهم الموعودة، واحة اعتباطية في متاهة الصحراء. وخلفهم تواريخ عائمة مملوءة بالثغرات".

جاءه إسماعيل شحاتة وهو يضحك وعانقه. قال؛ بقي أقل من عُشر الطريق.

قال خالد؛ أنت تجعلني أبكي.

مشى إسماعيل شحاتة باتجاه أصدقائه، ويمم خالد وجهه شطر الصحراء الممتدة الساكنة وقد غمره إحساس جياش بالشفقة على نفسه وعلى من يرافقونه.

* * *

أكان خالد/ الحكاية هو خالد ذاته الذي أمضى تجربته الحقيقية هناك، في الصحراء؟ أم كنت، أنا، وقد جعلت خالداً في إهابي، أو جعلتُني في إهابه، متورطاً في خوض تجربتي الروحية عبره، ولكن بعيداً، عن المكان ذاك، بضعة آلاف من الأميال، وأنا في شقة وثيرة دافئة في شمال الأرض، وبوساطة اللغة على الورق؟

أيّنا كان الحقيقي، وأيّنا كان القناع؟ وما المسافة بيني وبين خالد الحقيقي، وبيننا، نحن الاثنين وبين الآخر/ المتخيل؟

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

خالد هو جرحي الآخر. لو تدرين يا كلوديا كم أفتقده؟ حتى هو، ربما، لم يدرك ماذا كان يعني لي؟ وماذا تعني صداقته؟ تلقيت رسالة من رجل لا أعرفه، ولا أعلم كيف حصل على عنواني. أخبرني عبر جمل قصيرة باردة أن خالداً قد غرق قريباً من الساحل الأسترالي، في مركب تهريب، ولم يُعثر على جثته.

بقيت ذاهلاً لأيام، قلقاً تسكنني الشكوك.. لا أريد أن أصدق أن خالداً قد مات حقاً، غير أن حدساً واخزاً في ظلَّ يلح بأنني لن أراه مرة أخرى، أبداً. وحين تسلمت رسالة ثانية، بعد شهر، من صديق قديم، يؤكد الحدث، تيقنت من حدسي ذاك. عندها انفجرت ببكاء حارق.

أوَتعلمين كيف تبكي نسوة العراق موتاهن؟ كيف يكشفن عن صدورهن، وينتفن شعورهن، ويلطمن ويعولن ويندبن، ليتشحن بعدها بحزن قاهر، طويل، وسواد لا يخلعنه أحياناً طوال العمر؟ كلوديا، أعترف لك؛ هذا المنظر كان يثير فيّ مشاعر مختلطة، ولم أكن أرتاح إليه، غير أنني أراه الآن بعين أخرى. الموت والحب نقيضان متكاملان. لست متأكداً تماماً، بيد أنني اكتشفت على أي قدر من الحب العميق الفاجع تنطوي جوانح أولئك النسوة؟ ستقولين؛ أنتم عاطفيون.. أجل، وماذا في ذلك؟ حين استبعد الغرب العاطفة، واعتمد العقل الموضوعي التقني المجرد، البارد، وحده، ماذا فعل بروح العالم؟ لقد أمضيت ساعات أبكي خالداً

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ليس مثل أي امرأة عراقية تفجر بركان حزنها دفعة واحدة، ولكن بألم وأنين مكتومين.

ترى لماذا تمادى خالد في اللعب، والاعتماد على الحظ إلى هذا الحد؟ ومم كان هارباً؟ وأية جنة حقيقية أو موهومة كانت تلك التي في رأسه؟ كان بإمكانه البقاء في ليبيا، أو العودة إلى العراق على الرغم من الخراب كله الذي هناك؟ لكنه فجأة، أرسل خطاباً مبتسراً مبهماً يخبرني فيه أنه مغادر، وسيكتب لي حالما يستقر. والآن، ها هو قد استقر في مجهوله اليائس، فكيف له أن يكتب لي؟ وماذا سيكتب؟

من يعرف خالداً بشكل جيد قد يستطيع أن يفسّر لماذا فعل ما فعل. فخالد لا يحتاج إلى المنطق على الدوام، ولا يحسب حساب الاحتمالات كلها، وهنا مكمن روعته ومأساته.. كم كان يعشق المجهول، وكم كان مغرماً بالمغامرة في مكان لا يلائم المغامرين؟ كان يكره السياسة، ولاسيما مدّعي السياسة الجهلة، وهم كثر للأسف في بلادنا. وفي وقت مبكر أوجد ألقاباً تهكمية لأشخاص مازالوا يعرفون بألقابهم تلك.. فذلك محمود ستالين، وهذا جميل ديغول، وتلك حسنية غاندي، وهذا قاسم كيسنجر، الخ.. وعلى الرغم من أنه لم يدخل حزباً ما، ولم يتعاط قط مع السياسة إلاّ أنه قال لي ذات مرة أنه إنْ هرب في يوم ما فإنما سيهرب من السياسة والسياسيين العراقيين.. وما شأنك بهم، أنت اللا سياسي؟ لقد أفسدوا

عليّ حياتي.. "يمعود خالد دير بالك".. إذن سأخرج لأني لا أعرف كيف أدير بالي.. هل هرب من السياسة أم من شيء آخر؟

حين كان أحد لاعبي المنتخب الوطني يخطئ في التهديف كان خالد يصرخ ويشتم، ويقول أنه لو كان في الموقف عينه إذن لمزق الشباك العاهرة التي أمامه شر تمزيق. وكنت أضحك، وأضحك طويلاً فيفهم سبب ضحكي ويقول؛ نعم، هذه من تبجحات الخائبين.

هل أخبرتكِ أن خالداً في مرحلة ما من سني مراهقته كان يحلم أن يكون لاعباً في المنتخب الوطني، ومن أجل هذه الغاية بذل جهداً مضنياً.. تمرن وخاض مباريات عديدة في الفرق الشعبية، وكان يجبرني على حضور مبارياته ويناقش في تفاصيل المباريات، وكنت أضيق ذرعاً به، وتخاصمنا لهذا مرات ومرات. حتى أدرك في وقت مبكر أنه يفتقر للمؤهلات الكافية ليصبح لاعباً دولياً فترك اللعب.

* * *

غادر ولم يعلمني عن الجهة التي يقصدها. لأول مرة لم يدعني أشاركه مغامرته كما لو أنه أراد إبعادي عن المصير الذي، ربما، تهيأ له بشكل غامض. غير أنني رأيته كلوديا. كنت معه. كان يقودني في البرد والضباب، وحولنا كانت أنصاب ثلجية بأشكال غريبة.. كنت خائفاً لكنني لم أقل له ذلك. وأخيراً توقف وقال؛ أما الآن فعليك أن تعود. كان الضباب أمامنا

أشد كثافة وهولاً. سألته؛ إلى أين أنت ذاهب. قال؛ لا عليك سأمضي وحدي. قلت له على الرغم من رعبي؛ دعني أرافقك. هز رأسه وقال؛ لا. وكان جاداً وقد خلع عنه قناع السخرية، أو تقنع بهذا القناع الصارم الواجم، كأنه ليس هو، ولكنه كان هو. لا يمكن أن أخطئه. مشى ولم يلتفت إلي.. ولم يقل كلمة، أية كلمة.. ولج الضباب واختفى.. لم أتبعه.. كان خاطر ما يبهظني، ويجعلني متسمراً في مكاني. ناديته. صحت بصوت مخنوق، ثم رحت أتقهقر وأنا خائف، مرعوب.

استيقظت. كنت متعرقاً، وكنت أرتعش، وألهث، ودقات قلبي في تسارع، وحلقي جاف.

في اللحظة ذاتها، ربما، كان خالد يموت.

* * *

إنه يباغتني في مشهده الأخير، واقفاً فوق سطح السفينة العتيقة.. أراه في لحظته اليائسة تلك، على شفتيه شبح ابتسامة ساخرة، مؤسية. يحدجهم بهدوء كدر.

منذ ساعات اختفت الطيور. أقبلت سحب عكرة خفيضة، واضطرب البحر. الماء يصعد ويدوّم. تهبط الغيوم. البحر يخمش السماء بأذرعه الأخطبوطية ويزمجر. السماء تضغط براحتها القوية الهائلة وترعد. يعتمُّ

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

كبد السماء. يظلمُّ قلب البحر، ويلوح القلق في عيون الربان وبحارته..

يسأل خالد أحد البحارة؛

ـ ماذا تتوقع؟

يقول البحار، وهو يرسم علامة الصليب؛

ـ ليرحمنا الرب.

ـ ألن ننجو؟

ـ نعم، إذا وصلنا الجزيرة قبل أن يبتلعنا البحر.

ـ وإن لم نصل؟

يرسم البحار علامة الصليب مرة أخرى، تاركاً خالداً في ذهوله وحيرته.

((لا، لا ينبغي أن تكون النهاية هنا/ هكذا..))

كلهم في هياج ورعب، وهو الوحيد الذي يحاول إظهار رباطة جأشه، والسفينة تتضعضع بين الأصابع العملاقة للموج.. لا أحد باستطاعته أن يفعل شيئاً.. بعضهم أخرسه الخوف.. كلمات من لغات شتى تتناثر حوله.. لغات لا يفقه منها حرفاً، لكنه يفهم كل ما يقال.. يفهم اللغة الكونية التي يعرفها كل إنسان، وهو يواجه موتاً عبثياً مثل هذا! ثلاثة أفغان يجلسون بعد أن انتهوا من صلاة طويلة.. كوري، لعله كوري مع امرأته.. تايلنديون.. صينيون.. عراقيون، وعرب.. فيتناميون.. هنود،

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ورجل بملامح أوربية، يخمِّن خالد أنه نيوزلندي هارب من قبضة العدالة.

موجة جبارة تلطم السفينة. ترش رذاذها المالح، الأدكن على الوجوه..

يسأل أحدهم بحاراً آخر؛

ـ لماذا لا تطلقون نداء استغاثة؟

ـ أطلقنا أكثر من نداء. يبدو أنهم لا يكترثون.

الغيوم تنخفض، تطبق على البحر وتثيره، والسفينة تترنح بلا حول.

تسأل امرأة والذعر بعينيها. يظنها خالد تايلندية؛

ـ ونحن ماذا علينا أن نفعل؟

ـ صلّوا.

يقول البحّار فتفقد المرأة صوابها وتهجم عليه فيتدخل خالد ويحتويها بذراعيه؛

ـ اهدئي. لن يفيدك الغضب بشيء. لعل هناك حلاً.

تستكين المرأة، وما يزال الذعر يصلّب ملامحها.. أربعة، يظنهّم صينيين يتجادلون مع بعضهم بصوت عال، نافد الصبر، وكأنهم بصدد تسوية قضية قديمة. ويقبل نحوه عراقيان، يخبرانه بأنهما خرجا من بغداد منذ ثلاث سنوات حتى وصلا هنا، وها هما يواجهان النهاية.. يقول أحدهما؛ هذا حظنا، حظ العراقيين، أينما ذهبنا جعلناها سخاماً.

الصواري تتكسر، مع اندفاعة موجة تبتلع السفينة لهنيهة قبل أن تتركها في حالة يرثى لها.. يصرخ الرجل الكوري فيفهم خالد أن الموجة قد مضت بزوجه إلى الأعماق المميتة.

أي شريط ذاك الذي تسارع في ذهن خالد، في ذاكرته المترعة؟ ومن رأى؟ لا شك أنه تذكر أمه التي عافها في بلدته البعيدة، وتذكر ساحة كرة القدم محاذاة بساتين النخيل. تذكر تلك المباراة الحاسمة حين كان فريقه فائزاً، والغروب يهبط، وليست هناك بطبيعة الحال أضواء كاشفة، ولم يبق من وقت المباراة إلاّ خمس دقائق، والفارق هدفان. بغتة حلقت الكرة عالياً، واختفت بنيّة مقصودة في دغل بستان مجاور، ولم تكن هناك كرة أخرى.. قال الحكم؛ إن لم تجلبوا الكرة فسأضطر لتأجيل المباراة. ستعاد المباراة كاملة.

ركض خالد نحو السياج. اجتاز الجزء العلوي منه حيث الأسلاك الشائكة. تجرّح جسمه في أكثر من موضع قبل أن يختفي في الجانب الآخر. كان الجمهور واللاعبون يترقبون بقلق، وهاجوا وماجوا لمّا أقبلت الكرة، ولم يلحظ أحد أن عليها قطرات دم.. أكمل فريقه المباراة بعشرة لاعبين لأن خالداً لم يستطع عبور السياج ثانية.. في تلك الليلة، في المركز الصحي خاطوا له جروحه الأربعة.

يكشف خالد عن ذراعه، ويمرر إصبعه على ندبة باقية من مأثرته القديمة تلك. ماذا بمقدوره أن يصنع الآن؟ وإلى أين يقفز؟ أإلى البحر؟!.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

يصرخ البحر.. يتصادى الصراخ لوعةً معذبة في دخيلة خالد فتطفر دمعة من عينه.. لم أر خالداً يبكي قط، حتى لمّا كان المعلم يلهب يديه بعصاه. كان يصيح ((آه)) ثم يضحك.. خالد، الآن، على وشك البكاء.

يوغل البحر سادراً في هياجه.. يقترب خالد من القبطان.. يقول له بإنكليزيته المفككة؛

ـ لا بد أن تفعل شيئاً. ألم تواجه مشكلة مثل هذه من قبل؟

يطيل القبطان النظر في وجهه، وينطق ببضع كلمات عامية، يحدس خالد أنها شتائم، أو ربما تجديف فيرد عليه بالعامية العراقية، بذلك الشريط السريع البذيء والساخر، بادئاً به، ومنتهياً بسنسفيل أجداده، ودائراً بحبله على عماته وخالاته وبناتهن وحفيداتهن، وجداتهن حتى سابع ظهر. يلتوي فم القبطان بتعبير هو بين الابتسامة والمرارة، وكأنه فهم الرد. يقول؛ اهدأ يا صاح، وتقبّل مصيرك.

ويبتعد.. جبال الموج تشيل المركب عالياً ثم تهوي به فيترنح. تنكسر الصارية الكبيرة، وتتمزق الأشرعة. السماء كالحة. ترعد وتعيط.. يتواصل الاضطراب العظيم للموج بسلسلة من الدوي يذكّر خالداً بحربته البعيدة؛ القنابل تتساقط تباعاً في قوس يتشكل وهاداً من دخان أسود، وخالد يمسك ببندقيته وهو بين الصخور، إثر تعرض واسع شنه الإيرانيون، ومعه أصدقاؤه الجنود، ينتظرون، وربما سيكون قتال. قال لهم خالد؛ أموت ولا أدخل معسكر أسر. كان متوجساً وغير خائف، كان

معه جنـــــــدي خائـــــــف. قال له خالد؛ سنبقى هنا ولن نخرج، ثم ننسل خفية في الظلام. علّهم يتجاوزوننا، أما أنت فتستطيع المغادرة والبقاء وحدك في أي مكان آخر، ومن ثم الاستسلام، لكني لا أضمن أنهم لن يطلقوا عليك النار.. قال الجندي؛ سأبقى، لست خائفاً.. خالد، الآن، خائف. الخوف شعور لم يجربه كثيراً.. إن ما يثقله حقاً هو أنه يموت بعيداً عن مائه وسمائه.. تمنى لو أنه، الساعة، مستسلم لغيظ نهر ديالى في فيضانه، يمنح أنفاسه الأخيرة للمياه المشبعة بالطمي، لينتهي معانقاً نخلة عالية عند كتف النهر.

يأتيه القبطان ثانية.. يجيب على سؤاله، وهو يصرخ؛

ـ في كل مرة أخدع حرس السواحل، ولا أدري أي سوء حظ جاء بهم إلى طريقي اليوم.. أجبروني على العودة، وكنت أعرف ما سيحصل. قلت لهم، إلاّ أن أولاد العاهرات أولئك لم يبالوا. هم جالسون الآن يحتسون الشراب، ويتخيلون كيف نغرق.

يزم خالد فمه. تفاجئه لطمة ماء فيتطوح. يفكر بأولئك الذين ينجون، في نهاية المطاف، كما كان يراهم في السينما.. سيتشبث بقطعة خشب تطفو به، وتدفعه إلى ساحل هادئ. ساحل جزيرة تزدحم بالقرود والأرانب والطيور، وربما بفهود، ولا يوجد بشر. وحده هناك مثل... من..؟ مثل ذلك الإنكليزي الذي قرأ قصته في مادة اللغة الإنكليزية في المتوسطة.. يحاول أن يتذكره من غير جدوى.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

يحدث انفجار مرعب. يمسك خالد بدرابزين السلم النازل، غير أن السفينة تتقوض. يسمع طقطقة مفاصلها وهي تتفكك، ويحتويه سواد جهم. يفقد وعيه للحظات، وحين يستعيده، يتهيأ له أنه يحلم. يرى طفولته الراكضة في المطر، في لجة صفير وقهقهات أقرانه اللائذين بمظلات الدكاكين المغلقة. يتذكر مرضه، وأمه تغطيه بالبطانيات والأدعية. يتذكرني، ربما، وهو يقرع باب بيت مأمور المركز ويجري فأتبعه حانقاً. يتذكر صديقاته العابرات.. من يدري؟ لعله يشد قبضته ويهزها ضد قسوة الطبيعة. ضد هذه اللامبالاة، وهذا البرود، وهذا التهكم... تتمادى العاصفة. يدوّم الماء. يتحطم جزء من السفينة فيميل، وقد فقدت توازنها.. الأفغان الستة الذين كانوا يجلسون مذعنين صامتين لأقدارهم يقومون ليحدقوا في أفق مصيرهم القريب الحالك، وهم يتمتمون.. يتشبث خالد ببقايا الأفريز الجانبي، وعلى الرغم من تشوش ذهنه فإنه يقرر أمراً، لن يرجع عنه.. هكذا يُخيل لي..

يخمّن، بحاسته السادسة، الجهة التي فيها تلك الجزيرة التي مروا بها قبل أن تتصدى لهم خفر السواحل.. إنها هناك، يقول في دخيلته.. يخلع سترته التي فيها أوراقه ونقوده ويقذفها، فيتخاطفها الماء. إنه الآن مثل إنسان بدائي لا يمتلك في مواجهة الطبيعة سوى جسده، وطاقته، وما تبقى من حظوظه. وفي لحظة تبرق أمام ناظريه صورة تلك الغجرية التي قالت

له، وهو يراودها عن نفسه قبل سنين، حيث كانت الحرب محتدمة؛ احـذر الماء.

يفتح ذراعيه ويقفز إلى الماء. في الوقت عينه تتهشم الـسفينة. صرخـات فاجعة، متوسلة، مذعورة، تنطلق دفعة واحدة، ولا يسمعها أحد. لا أحد.

خالد، الآن، في الماء.. وحده والماء.. لا شيء سوى الماء.

* * *

يحط جسد خالد على رمل ساحل ما، في غبش يوم مشمس، ممـدداً عـلى جنبه، ورأسه يرتاح على ذراعه، كما لو أنه نائم، بعد تعب طويل، طويل.

هو وحده، وبينه وبين السماء الشاسعة، العارية والعاليـة، سرب عظـيم من طيور أسيانة، تعبر بوقار كما في موكب جنائزي، وبلوعة تشدو.

* * *

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

غوايات الولد الضال

في الغروب الرطب، أصعد الدرجات الحجرية. امرأة في شرخ الكهولة تراقبني، من شرفتها، من خلل نباتات وأزهار. أحييها بهزة رأس خفيفة. تحييني بالطريقة ذاتها مع ابتسامة.

وحدي، والبرد ينمِّل قدميَّ. أدلف إلى ممر جانبي. تعترينى رعشة خفيفة مع الظلمة الهابطة والمصابيح الشاحبة والرائحة الطحلبية للجدران العتيقة الشاهقة. يصادفني سلّم آخر. أتسلقه. تمر بي فتاتان تثرثران، ثم عجوز فضولية، تكاد تسألني؛ إلى أين أنت ذاهب حقاً؟ تنفتح ساحة صغيرة، وأسمع لغط أطفال في الجوار، وهدير محرّك لا أتبين نوعه ووظيفته. أستدير فأراني على طريق مسفلت. أنا الآن في الأعالي. هكذا ينبغي أن يكون الأمر. كأنني سابح في الفراغ، مثل جسر معلق يبحث عن ركائز وضفتين. أبحث عن مهوى المستحيل، عمّا لا يوجد، عارفاً أنه لا يوجد، الآن، على الرغم من جدواه وضرورته. وموقناً من أنه سيوجد يوماً ما، في أي مكان، حيث لا أكون أنا. يصعد فيّ أسى رقيق، قابل للتهشم، قد يتحول على حين فجأة، إلى ظل قاتم. إلى انقباض كئيب.

السماء صافية. من هنا أشهد نجوماً أكثر. أمي الآتية من قرية في شمال البلاد، كانت تقول؛ هناك، في ذلك الزمان ـ زمان فتوتها ـ كانت النجوم أكثر. حشد النجوم يغطي مشهد الصحراء، في ليل الحرب. والحرب أبجدية أولى. وحش لم يغادر الغابة قط. وحش عقيم يحرق منابت الجذور، ويفتك بالأحلام من دون أن يدري. أبريئة أنت أيتها الحرب؟ كانت ثمة حرب. كان ثمة موتى. وكان دم وأحشاء ورائحة زنخة وعطش وقرف تحت حشد النجوم، وأرواح تتصارخ، تستجدي شجاعة لا مجدية، وذكريات سيستمع إليها الأطفال، يسردها من أخطأتهم الحرب مصادفة. يستمع إليها الأطفال بحسد وفضول. لو كنا هناك، لو نكون هناك. لا تفكروا في حروب جديدة يا أطفالي. يبحث الإنسان عن طرق مبتكرة للموت. الحروب لديها الحل دائماً. أقول لحنان؛ "تنجب الحروب مشردين ويتامى وحمقى ومتعصبين ومجانين وحكماء وسفلة". أقول لحنان؛ "تنجب الحروب تجارها وفجّارها". "كلنا أبناء الحرب"، تقول. "كلنا أبناء تلك الخطيئة"، أقول لها، "ورثناها من مليون عام، مليون مليون عام. كلنا قتلة ملعونون. كلنا مقتولون مساكين، وفي النهاية، كل يستحق مصيره". في العتمة ثقل الوحشة، وأنا ما لي أذكر الحرب، فلأذكر حدائق النجوم في صيف ديالى، ذات طفولة التهم النسيان نصفها. ولأذكر النشوة المدوخة، ذات مزحة، ما كانت بريئة تماماً: لبنى، أكان اسمها لبنى أو لمياء.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

تدخل أصابعي عفواً من زيق الثوب الوردي.. أكان ورد‌ياً؟ أكان الدخول إلى حيث نبت برعم الأنثى لتوِّه عفواً؟ صرختْ. كان شيئاً بين الضحك والصراخ. كانت لبنى أو لمياء مضرجة بدم الخجل. كان الثوب ورديا، ربما، وكانت تضحك. كانت تضحك، هذا ما أنا موقن منه، لكني لست موقناً من أنها أدركت مدى تلك الرعشة التي أيقظت فيّ عصب الذكورة. تلك الكهرباء التي أشعلت أول النار. ذلك النصل الذي أحدث الجرح في ظلمتي المكينة، العذراء. ملمس البرعم ذاك، سادتي، كان حارقاً، موجعاً قليلاً، كثيفاً مبهماً، وعلى قدر لا يحد من المعنى. معنى أن تعبر الحاجز. أن تأكل من شجر الجنة. أن تعرف شيئاً عن مذاق التفاحة. التفاحة التي لن تشبع منها أبداً. التفاحة التي لن تتطهر من لعنتها ما حييت.

خطواتي ليست بطيئة، وليست سريعة أيضاً. لا شيء يرغمني على أن أسرع. لا شيء في انتظاري، ولا هدف محدد لي.. يمرق شاب بسرعة على دراجته البخارية، يوشك أن يصدمني. لعله تعمد فعل ذلك. تحاذيني سيارة للشرطة. يسترق الشرطي الجالس إلى جانب السائق النظر إليّ. تنقلب أحشائي. هوّة صغيرة تفغر في داخلي، ويتولى ساقيّ الارتباك، غير أنني أحاول مواصلة طريقي، وتواصل سيارة الشرطة طريقها. أرى درجات أخرى تنحدر فأنحدر معها. أفكر؛ لو أعثر على ميدان أو شارع أعرفه لأعود. يزداد شعوري بالبرد. أحاول أن أحث الخطى من أجل قدر

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

من الدفء. ماذا أنا فاعل، هنا؟ وأين تراها كلوديا، الآن؟ أشعر بخطوات ورائي. خطوات لرجلين على الأقل، يسرعان مثلي تماماً. يتناهى إلي صوت آمر حاد. لا أعلم إن كان هذا الصوت موجهاً لشخصي. لا ألتفت. أجهد لأجعل خطواتي أوسع، كأنني أجري، وخلفي تجري الخطوات المستوفزة. يسبقني أحدهم..

عرضاً قالت لي كلوديا، ذات مرة؛ "لا تدخل المناطق القديمة وحدك، ولاسيما في الليل". ها أنا ذا في الليل، في مكان مقطوع، داخل حي قديم، ورجل أمامي يشهر سكيناً. أقف. أجدني محاصراً بثلاثة شبان يحملون سكاكين تلصف تحت الأضواء الواهنة. الرائحة الطحلبية تملؤني بالقشعريرة. أعرف ماذا يريدون. أُخرج لهم محفظتي. واحد منهم يأخذها مني. ينتزعها بغضب. يلتقط الخمسمائة يورو والعشرين ألف ليرة إيطالية التي أحملها فيها، مع صورة سامر ابن أختي. يتملى باهتمام الصورة ويتمتم بكلام مبهم قبل أن يردها لي، مع المحفظة الفارغة.

بحركة مباغتة يوجه صاحبه سكينه نحو موضع القلب مني. أنكفئ وقد ملأني الرعب، لكن النصل يرتد في اللحظة الأخيرة. أدرك أن ما يحمله ليس سوى لعبة أطفال. يستغرق الشبان الثلاثة بالضحك، ويردون لي العشرين ألف ليرة مكتفين بالخمسمائة يورو. يقول لي أحدهم شيئاً، كأنه ينصحني، أفهم ما يقول؛ "لا تأت إلى هنا ثانية".

أقول لكلوديا، وهي توبخني؛ "هؤلاء لا يقتلون". تقول؛ "وما أدراك؟ هناك من لا يتورع عن القتل، هناك متعصبون يكرهون الأجانب".. "هي تجربة على أية حال".. "لم تكن مرغماً على خوضها".. "أنت تقولين هذا؟". "أنا مسؤولة عنك بطريقة أو بأخرى". أضحك. تضحك. "لم تتناول عشاءك بعد".. "بعد كل الذي حصل ماذا تتوقعين؟".. "خمسمائة يورو، احمد الله، هذا لا شيء".. "خمسمائة يورو ثروة في بلدي".. "لستَ في بلدك".

أخرج مرة أخرى إلى الليل، وهذه المرة بصحبة كلوديا. أقول لها؛ "لم تكن سكّينة، كانت لعبة أطفال".. "واحدة فقط كانت هكذا".. "من يدري؟".. "هؤلاء يبحثون عن الصيد والمتعة".. "ألم يكن من الأفضل أن أقاوم".. "تحس بالإذلال".. "نعم، لا شك".. "السائحون، هنا، لا يتجولون فرادى".

لم أقرب صحن السمك، غير أن الصلصة وقطعة البيتزا كانتا لذيذتين، وشربت كثيراً وثرثرت. كنت قد فقدت إحساسي بالمهانة.. "سائحون كثر يتعرضون للسلب، هذا لا شيء".. استغرقت بالضحك.. "لو يتعرض مايكل للسلب، وأكون أنا على مقربة، أشهد العرض".. "هل تكرهه؟".. "ولم تظنينني أنني أكرهه؟".. "أنت تعتقد...".. "هذه فكرة مسبقة، لا أساس لها، هو مسكين وضحية أيضاً".. "أنت محيّر

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ومتناقض".. "كلنا متناقضون، هذا العالم من شأنه أن يقضي على الأسوياء، أنت لا تعرفين أنه ترك لي قبل أن يسافر رسالة".. "حقا؟".. "أجل".. "أنت تتمادى في الخيال. أخشى أنْ تغادر الواقع نهائياً". وتضحك.. "أتظنينني مجنونا؟".. "الخيط واهٍ بيننا وبين الجنون".. أضحك؛ "أشعر بالرثاء من أجلنا جميعاً".. "لو نغير الموضوع".. "حسناً تجعلك الخمرة جوهرة متوهجة".. "بل هي تشعل مخيلتك".. "أنت حقيقية روز، أنا لا أتخيل".. "روز، ها أنت تتذكر اسمي الثاني الذي اخترته لي".. "لم أنسه قط.. كلما قلتُ كلوديا حلّق في ذهني مثل عصفور اسم روز".

* * *

رأسها على رقبتي، وخصلات من شعرها تصفع وجهي، تشاكسني. يداها تحيطان بي فأطير بها. أطير بنفسي. أطير بالدراجة المارقة في نزق البرد وجنون الأبيض المتوسط.. تأخذنا الطرقات عميقاً في الزمان الذي نشرخه، وفي المكان أيضاً. نجنح إلى ما ورائهما، لكن لهنيهة، قبل الصحو.. جسدها لصق روحي. يعطيني دفئاً يليق بهذا الشمال، وقشعريرة لاظية. كما لو أنها تقترح الكمال المتناقض الفاتن لطرفي البحر، ولجهاتِ لهاثنا. كما لو أنني مقود برغبتها التي تنشد أقصى احتمالات الحياة إذ يروِّض الموت، أو يتوَّج بالبهاء النبيل.. الريح جرداء حادة حد اللاجدوى، غير أنها

كائنة، تتخلل عصب الوجود، وتترنم بالوحشة والضياء، فنتحد معاً ـ الدراجة وهي وأنا ـ في الانفلات الحر من ثقل الأشياء، نضمن الخفة العالية، حتى ليغدو التفكير بالخوف، أو بالفناء من دون معنى. أحسها أقرب إليّ من أي وقت مضى. كأن أحدنا يتلاشى في الآخر. كأنني أتقمص الحلاج في أوج استخفافه بجلاديه، وأشعر بكلوديا في قميصي.

ترى كم استغرق هذا الوجد الراكض في شوارع الخريف قبل أن ندلف من ذلك المنعطف؟

في منعطف ما يفاجئنا حشد مأخوذ بالأناشيد والسواد. في اللحظة الأخيرة أنحرف بالدراجة فيشتمني أحدهم. تشتمه كلوديا فيمرق شيء حذاء أذني، لعله حجر أو حصاة. تصرخ كلوديا. أسألها؛ ماذا قلتِ؟ تقول؛ الفاشست القذرون.

ونبتعد..

في المقصف ذاته حيث ودعت مايكل نجلس ونطلب كأسين من الكونياك. أرى الجهامة في وجه كلوديا.

ـ ما بك؟

ـ لا أدري لِمَ بتّ أشعر بالضيق؟

ـ الفاشست؟

ـ ربما.. هؤلاء يذكرونني بنهاية العالم.. بالكارثة الأخيرة.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

الكأس الثانية تنسيها الفاشية، وفكرة الكارثة والنهايات فتتألق وجنتاها. أشبك أصابعها، فتمط جسدها لتقبلني في فمي. وتطلب مني ألاّ أغادر.. أقول؛ "ما الذي يجعلك تتحدثين عن المغادرة". تقول؛ "شيء ما ينبئني بأنك تفكر بهذا". أقول؛ "أنا نفسي لم أحسم أمري بعد إنْ كنت سأغادر أم لا؟ وإن غادرت فلا أدري إلى أي جهة وإلى أي بلد، وإلى أية متاهة؟". وأقول؛

ـ وهذا، كذلك، لا يهم، ما داموا قد خربوا حياتي في ذلك الركن، وكما يقول كفافي، فهو الخراب إذن أينما حللت.

تسألني؛ "من هم؟".

أقول؛ "الفاشست".

تضحك بتهكم وتطلب كأساً ثالثة. أحذرها؛ "ستسكرين". تقول؛ "وماذا في ذلك، لنسكر يا صديقي نكاية بالفاشية والفاشست". أهمهم ولا أقول شيئاً، تقول؛ "دعك منهم".. "يللا".

المقصف هادئ في هذا الوقت من النهار، وزاويتنا تسكن في شبه العتمة. أسألها إن كانت تحفظ أيّاً من أغنيات فيروز. تقول؛ "فيروز عجيبة الشرق".

تغمض عينيها. لعلها تستدعي من الذاكرة فسحة نشوة قصية. تفتح عينيها وتغني بلكنتها التي تهيج زرازير الفرح في الدم ((تك تك تك يا أم

سليمان، تك تك تك زوجك ولهان.. تك تك تك جنب الحقل، عم يقطف خوخ ورمان)).

يصعد صوتها من الطبقة الواطئة إلى أعلى فيثير انشراحاً بين القلة الجالسين. أجاريها في خبلها المستيقظ ((تك تك تك يا أم سليمان، تك تك تك زوجك ولهان)) قبل أن أهمد، ويعتريني الذهول. تسكت هي الأخرى، وتهز رأسها. تستفهمني فألبث في صمتي. أعب دفعة واحدة في جوفي كأسي الرابعة. تقول؛ "هل تذكرتها؟".

أتقصى في عيني كلوديا. أرى حنان، ذات نزوة ببغداد تغني.. الكافتريا تعج بروادها البرجوازيين كما تسميهم فتطيش على حين فجأة بمللهم المستريب. تعصي النواميس التي بها اقتنعوا. تكسر قشرة ما، فيذهلون ويبتهجون. ((أنا بعشق البحر..)) والبحر عنها بعيد. بحرها الحلم. بحرها الوردة، تلك الوردة تتفتح في الحديقة المستحيلة، وتفيض بالعطر والثمل والندى.. يعتريني الأسى، ويغمرني صفاء شاسع. أقول لكلوديا؛ "لا شك ثمة أمل، لا شك، ما دام باستطاعة هذا العالم إنجاب نساء مثلك ومثل حنان".

* * *

أمام مطعم صغير أوقفت كلوديا سيارتها، ونزلنا.. لم يكن في الداخل سوى نادلة ممتلئة الجسم، في أواسط عمرها، وكهل يجلس إلى طاولة خالية، ينظر من النافذة. لم يلتفت إلينا لمّا دخلنا.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

جاءت النادلة وهي تبتسم. طلبنا شطائر وكأسين من النبيذ الأبيض. قالت كلوديا فجأة؛ اليوم، حين تكلمت مع أبي في الهاتف، قلت له إنك غير باق.

حدقت فيها ولم أحر جواباً.

ـ أجادٌّ أنت؟

ـ كلوديا، أنت تدركين.. ما الذي يمكنني أن أفعله هنا؟ أكلم نفسي طوال الوقت، وحين تأتين أفرّغ توتري بالشجار معك. اتصلَ والدكِ واعتذرَ عن حادث تلك الليلة وتحدثنا قليلاً، انقلي له احترامي وامتناني.

ـ قال لي أنه يشعر بالأسف والخجل، ثم ألقى اللوم على أمي.

ضحكنا. أمسكتها من أصابعها، ولم أدر ما أقول. قالت؛

ـ أكرر اقتراحي، يمكنه، أقصد والدي، أن يجد لك عملاً، أو يحجز لك مقعداً في جامعة هنا لتنال الدكتوراه.

ـ لا يا كلوديا، أشكرك.. أعرف مقدار اهتمامك.

ـ وروايتك؟

ـ هي معي.

ـ كتبت صفحات جيدة، وإذا ما أخذ العمل مساره الطبيعي يتغير الأمر. ستنكب على الكتابة.

أحضرت النادلة الشطائر وكأسي النبيذ.

ـ أرى أن تصرف النظر عن هذه الفكرة في الوقت الحاضر، وحين تكون روايتك جاهزة للطبع سيكون بيننا كلام آخر.

ـ لا أدري. لم أعد أتحمل. إن وازعاً ضاغطاً فيّ يدفعني للرحيل. ما كتبته ليس سوى نتف وقصاصات وملاحظات ومشاهد مبعثرة. هناك فقط أستطيع لملمة الخيوط.

ـ هكذا فجأة؟

ـ هكذا فجأة.

ـ إلى أين؟

ـ لم أقرر بعد.

ـ بلا اتجاه؟

ـ سأثق ببوصلتي الداخلية.

ـ وأنا؟

ـ تعرفين روز، لن أقطع اتصالي بك.

ـ سأحن أنا الأخرى لروز هذه"

تضحك وتضيف؛

ـ لو تبقى سنة أخرى، ربما حققت حلمي معك بخوض مغامرة الصحراء.

أمسك يدها.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ لستُ الرجل الذي به حلمت.

ـ دعك من أحلامي، على الأقل يمكن أن نمضي معاً.

ـ تستطيعين الالتحاق بي.

ـ وجهتك الشرق إذن.

ـ أجل، إنه الشرق، أو الجنوب، سمّهِ ما شئت.. شرقي أو جنوبي. صورته التي صنعتها أنا.

ـ أخشى أن تترك روايتك.

ـ على العكس، فروايتي لن تعرف لها نهاية إلاّ هناك.

ـ أي نوع من النهايات؟

ـ أريدها نهاية مفتوحة على الحياة.

ـ والحرية، والحب.

ـ أجل.

ـ ولِمَ، يجب أن نفترق؟

ـ علينا يا روز أن نفترق كي نلتقي ثانية، ونلتقي قبل أن نخبر أسى الوداع.

ـ ما زلت ذلك الرومانسي. أهو قدر، أم ماذا؟

ـ هو قدرنا يا روز.. أن نلتقي ونفترق.. أن نفترق لنلتقي.. أن نلتقي لنفترق.

ـ لِمَ يجب أن يكون الأمر هكذا؟

ـ لا أدري. هذا ما أحسه الآن وأنت تمسّين روحي بشعاعك الرهيف. بفائض حلاوتك. بمرح شبابك النادر. بهذا الشيء الذي لا أعلم ما هو، والذي أحسه بقوة. بقوة تفرض نفسها عليّ. الشيء الذي يميزك عن الأخريات. عن أولئك النسوة اللواتي لسن أنت، لسن هنا/ الآن. ما يميزك أنت، كلوديا، عن أية امرأة أخرى في العالم.

ـ إذا كان هذا ما يشدك إليّ، فما الذي يشدني إليك؟

ـ هذا سؤال تملكين أنت إجابته.

ـ إنها الحقيقة يا سامر، وهذا يكفي. ليس شرطاً أن نفسِّر كل شيء، وأحياناً حين نفسِّر الأشياء نفسدها.

ـ ربما.

ـ أنت حزين.

ـ أشعر بالأسى والفقدان.

ـ لقد غيرت فيّ أشياء كثيرة.

ـ وأنت فعلت الأمر نفسه روز. أنا الآن شخص آخر. هذه الأشهر القليلة معك أنضجتني أكثر، لا شك.

ـ أتحبني على الرغم من كل شيء؟

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ـ أكون كذّاباً إن قلت أنني لست مهتماً.. حقاً روز أحسك قريبة مني. ربما أقرب، الآن، من أي كائن آخر.

ـ وغداً؟

ـ من يعلم بأمر الغد، غير أنني لن أنساك، وإن بقينا على قيد الحياة، فقد نلتقي.

خرجنا.. صفعنا هواء الشتاء القارس، وكنا نسير باتجاه السيارة حين توقفت كلوديا واحتضنتني، وراحت تقبلني، وأنا أقبلها. صار طعم دموعها المالح في فمي. على لساني. بتنا كائنين يضم أحدهما الآخر إليه كأنما إلى الأبد، والريح الحادة تهب.

* * *

ستغادر كلوديا إلى روما لتقضي بضعة أيام مع أمها، أما أنا فسأخوض البحر المتوسط بحثاً عن حلم قديم، ما زلت أؤمن أنه عالق بهدب بغداد.. حلمي المحمول على أصابع الألم، العنيد كما المطر، الحر كما العصافير في الغبش، الواسع كما الفلاة في عيون كلوديا وحنان، العميق والغامض كما بساتين النخيل في ليل بلدتي/ السعدية.

قالت كلوديا؛ هكذا إذن؟

قلت؛ هكذا إذن.

* * *

أنْ أقول لكلوديا؛ "والبحر لصق غربتي ألملم نثاري، وأنتشل ما تبقى مني، وأخرج من عبء موت شاسع إلى داخلي". طعم دموعها المالحة في فمي. الليل مقرور، والبحر مستوحش، وأنا بعيد.. ليس معي سوى حقيبتي الصغيرة وأوراق، أوراق متخمة بالكلمات، وجوازي سفر. سأمزق، حالما أصل الساحل الآخر، جواز سفري المزوّر. سأفتح كفي لتأخذ مني الريح النتف إلى عمق الصحراء. السفينة متوحدة، يؤرجح شتاء الأبيض المتوسط أضواءها النعسانة، وكل شيء حولي/ حولها على وشك الاضطراب. في البحر الأحمر، قال خالد، أنه على ظهر ذلك المركب القديم المتداعي داهمه الدوار حتى أحس أنه لا يطيق نفسه. الغثيان والمرارة وفقدان التوافق مع الطبيعة؛ مع الماء والهواء والسماء الزرقاء، وراح يتقيأ. قال أنه فكر في قذف نفسه في البحر ليتخلص من ذلك الشيء المقيت.. قالت له الغجرية، في مساء العافية ذاك؛ "احذر الماء" فتبسم وقال؛ "مائي سينفجر".. هواء البحر لاذع ومالح. سوناتة غريبة، أو قشعريرة تتواصل في جسد الليل.. قلت لكلوديا؛ "روز، آن الأوان لأكمل روايتي. إنها تدعوني بهمسها الرفيق المغوي إلى شيء هو مزيج من العشق والموسيقى والجنون. شيء حر، لكنه موقّع بهارموني لا سبيل للهرب منه، حار وشجي يعد بصخب لاحق، لا بطمأنينة شائخة، كما هذا الهواء الذي يضرب بروية دؤوب كل ما يعوقه ثم يمضي". البرد في قدمي لسعة

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

صاعدة، وأنا أجري فوق الحشائش المعفرة بالثلج، وخالد يتبعني ويغني، كأنه يناكد صباح البرد، والمدرسة عند المنعطف. بخار أبيض يخرج من حلقي ومن حلقه. يرفع صوته؛ "أتذكر برد السنة الفائتة؟". أضحك وأقول؛ "شقاوتك خلفتنا سنة كاملة". يقول؛ "ولا يهمك، سنة أو سنتان، أمامنا سنوات طويلة". البرد يتسلق ساقيّ، ويداي في جيبي قمصلتي، والسفينة تنزلق كما لو في الجانب الآخر من اللامعقول. كما لو في ما وراء الآن/ هنا. كما لو أن (الآن) سديم وقد استقل عن عالمنا. كما لو أن (هنا) هيولى في حلم مديد. كم سنة أمامي من أجل شيماء؟ كم سنة أمامي من أجل كلوديا؟ كم سنة أمامي من أجل خالد وحنان؟ كم سنة أمامي من أجل رواية أو روايات؟ كم سنة أمامي؟ على الراحة القلقة للمتوسط أرى البقية من أحلامي ونثاري. الغيوم تشتبك على انخفاض. تطل نجوم قليلة وتختفي. نجوم ضائعة. تحت نجوم قليلة ضائعة سرنا. قال آمر الدورية؛ "لا تطلقوا النار حتى أقول لكم، لكن عباس أطلق النار فصرخ آمر الدورية غاضباً". قال عباس؛ "لو لم أطلق لقتلوا نصفنا"، واشتبكنا. في مرة أخرى سيطلق جندي إيراني خائف قبل دخولنا منطقة الموت فننجو ونضيع في الثلج.. لا ثلج في بغداد، غير أن الغيوم تلتم. حنان تحت الغيمة الغريبة. الغيوم تشتبك، والمطر قد يسقط وأنا لا رغبة لي بالنزول إلى قمرتي. وسقط المطر. قالت شيماء؛ "إنها تمطر"، فأخذت أفكر

باللقلق في عشه فوق علية بيت قديم أمرُّ به في طريقي إلى المدرسة. يقول خالد؛ "هو لا يأبه". يقول المعلم؛ "هو لا يبرد". تأتي الزرازير غيمة دكناء تعبر فوق إعدادية البنات. تأتي قبائل الزاغ. تأتي الكراكي في غسق الروح. وسقط المطر فركضوا، ولم نركض. ضحكت حنان؛ "ترى لماذا يخافون المطر؟". قلت؛ "كي لا يتبللوا". قالت وهي تضج بالضحك؛ "عليهم إذن أن يتبللوا جيداً كي لا يخافوا المطر". (ومطر مطر عاصي) بلل شعر حنان.. مرقت سيارة النجدة وجاءت حافلة. قالت حنان؛ "أتراهم يخافون المطر؟". قلت؛ "من؟". قالت؛ "الموتى". قلت؛ "بالله عليك حنان". قالت؛ "أنا سخيفة، دائماً أفسد عليك سلام القلب".. "أي سلام هذا الذي تشيرين إليه؟".. "أنا آسفة".. "أنا الذي عليه أن يأسف". صمتت، قلت؛ "لا بأس تعالي". واحتضنتها تحت المطر.(مطر مطر شاشا) بلل شعر حنان، وشعر حنان مطر ليلي يغمر صحرائي. عصرت شعرها بيدها وعصرت ملابسها، ولم يكن المطر يسقط. تساقطت القطرات من شعرها ونحن تحت شجرة التوت بعد الغروب. دجلة تهمهم، وأضواء بغداد على بعد مقلق تريد لهواء يوم من الصيف أن يجفف ملابسها. وصيفنا طويل طويل. غير أن الصورة في ذهني عن حنان؛ تضحك في المطر كوردة التيوليب، كتمثال لمايكل أنجلو مفعم بالحياة والجمال.. مطر مطر عنيد.. يدور خالد حول نفسه، وحقيبته

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

تحت إبطه، وحذاؤه بيده، ويركض يلاحقه صخب الأولاد. الماء تحت قدميه يطرطش والليل ينفرش وهو يختفي والماء يصعد إلينا غير أن خالداً لم يكترث، وستقول له الغجرية احذر وهو مثقل بالماء يراودها والهواء يصده فيفتح أزرار قميصه. يقول إنه يحب المشي عكس اتجاه الريح، والريح تعترضه تملأ عينيه بالغبار.. قال خالد؛ "لنختبئ خلف شجيرات الآس" واختبأنا. قال؛ "هو المعلم جاء".. قلت؛ "ولماذا نخافه إذا كنا رسبنا معاً".. قال؛ "السنة القادمة سيشعل أجداد أجدادنا"، واختبأنا. قلت؛ "هو أبي".. قال؛ "ولماذا تخاف أباك".. قلت؛ "لأنه سيضرب أمي إن رآني هنا".. وضربني أبي. ضرب أمي وشيماء. وسقطتُ. منْ يحملني؟ قلت؛ "سأحمل نفسي".. صرت اثنين. كان الثاني فارعاً وقوياً وقد تجاوز الثلاثين. كنت ما أزال في الثانية عشرة. وحملني. وحملتُني. قالت شيماء؛ "لنصعد دولاب الهواء". قلت؛ "معي عشرة فلوس، يا عم إبراهيم، ستصعد شيماء وحدها".. قال؛ "اصعد معها". قلت؛ "معنا عشرة فلوس لا غير". قال؛ "اصعدا معاً بعشرة فلوس"، وكركرت شيماء ونحن نعلو وصرخت ونحن نهبط، وعادت تضحك ونحن نعلو بعشرة فلوس. قالت أمي؛ "سامر يريد عشرة فلوس". قال؛ "لست بنكاً، لست الحاج شوكت صاحب البساتين". قلت؛ "في المدرسة يريدون عشرة فلوس لتجليد الحيطان".. لطمني وأعطاني عشرة فلوس،

وفي العيد أعطاني درهماً كاملاً ولم يلطمني وأعطى شيماء نصف درهم ولم يلطمها وقبّلني وقبّلها. قالت أمي؛ "هو طيب لولا الفقر". قلت؛ "أبو خالد فقير أيضاً ولا يضرب ابنه". قالت؛ "أبوك طبيعته هكذا. طينته هكذا، فماذا نفعل؟ عليك أن تحمد الله". قلت؛ "هل يحبنا؟". قالت؛ "من؟".. قلت؛ "أبي".. قالت؛ "وكيف لا؟، نحن عائلته، إنه يحبنا".. قلت؛ "لو كنا نملك بستاناً".. قال خالد؛ "حرام أن تُخرج العنب من البستان من دون علم صاحبه، وحلال أن نأكله هنا من دون علم صاحبه".. ضحكنا ونحن نراه يلتهم الحبات المغبرة من دون أن يمسحها حتى بأصابعه كما كنا نفعل. أغوانا بالدخول وقادنا إلى ثغرة في السياج. قال؛ لا يعرفها إلاّ بنات آوى وأنا. وبين سيقان الحلفاء والأشواك مشينا باحتراس ووجل. أمسك بثمر الشفلح الوردي المشقوق وسأل؛ بم يذكّركم هذا. قال له علي كامل؛ "أمك لم تؤدبك جيداً"، وضحكنا. صاح، "اركضوا، لقد جاء".. وركضنا، ولم نسأله عن ذاك الذي جاء. حسبنا أنه فلاّح البستان وحارسه. ونحن نعبر السياج الذي هو من سعف النخيل. علق قميصي بالسلك الشائك الذي يربط السعف. انشق القميص وسقطت. تشقق جلد ساعدي واختلط التراب بخطوط الدم. أحسست بحرقة. كنت حانقاً ومتوتراً. قال علي كامل، صديقنا؛ "اركضوا، سيلحق بنا".. قال خالد؛ "من؟".. قال؛ "ذاك الذي قلت

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

أنه جاء".. قال خالد؛ "اطمئن، لا أحد هناك".. قلت له؛ "أيها الحقير دعني الآن".. مشى مبتعداً تاركاً إياي لحالتي الفجة المضحكة. بعد أيام قال؛ "من يأتيني في الليل ونخرج سأريه شيئاً عجباً". كنا أربعة. اجتزنا عدداً من الأزقة. أوقفنا عند شباك يتسلل منه ضوء نحيل، وقال؛ "انظروا بلا كلام، بلا أي صوت". ونظرنا: امرأة نائمة. امرأة عارية نائمة. امرأة جميلة عارية نائمة. امرأة جميلة مثيرة عارية نائمة. وانتظرنا حتى تدير جسدها وتواجهنا لنرى. بغتة انطلقت صفارة الحارس الليلي فركضنا. تبعنا إلاّ أننا جرينا أسرع منه، واختفينا في دار خربة مهجورة. قال خالد؛ "كم أنتم نحسون؟ هذه هي المرة الأولى التي يضبطني فيها الحارس".. قلت؛ "وهل تعرّف علينا؟".. قال؛ "وكيف يمكنه التعرف علينا في هذا الليل المظلم؟".. قال علي كامل؛ "ما الذي يجعلنا ننقاد لجنونك؟".. قال؛ "لم أضرب أحداً على يديه أيها القبيح".. وكادا يشتبكان، وحتى بزوغ الفجر لم أنم. دخلت الشقة، كانت الخادمة كريستين نائمة على الأريكة وقد انحسر ثوبها عن فخذيها الملفوفين. وأدركت بأني أشتهيها، غير أني أيقظتها. "أنت أنهيت عملك فاذهبي".. فهمتني ودخلت الحمام وخرجت تبتسم خجلاً أو اعتذاراً، "باي".. "سأسافر".. لم تفهم. وبطريقة خرقاء قلدتُ حركات الصم والبكم، ضحكتْ، ولم تفهم. وكانت آخر ليلة. ظلت كلوديا معي. تكلمنا ورقصنا. رقصت برشاقة

وعشق. رقصت لي. لي وحدي. كانت تروم إعطائي شيئاً نادراً لا يتكرر، ولا يُنسى، في هذه الليلة التي أبت أن تسميها الأخيرة. قالت إن عصرنا تخطى الرومانتيكية وهي لا تؤمن بها، وتكره العواطف المبتذلة والدموع والتشبث الغبي بالماضي السعيد. قالت إنها كائنة من أجل المستقبل، وعلينا أن ننظر إلى ما سيكون. وأخيراً بكت وقالت شيئاً عن أيامنا الجميلة. قلت؛ "هي الرومانسية إذن".. صاحت؛ "تباً". وضحكت وقبلتني، وعادت ترقص. حملتها.. قالت؛ "ليس الآن".. قلت؛ "بل الآن، الآن".. صاحت؛ "تباً"، وضحكت وقبّلتني. قبّلتني وبقيت أحملها. خطوة، خطوتان، ثلاث، أربع، و (هوب) وسقطنا على السرير العريض. قالت؛ "إنها تمطر". قلت؛ "فلتمطر".. (مطر مطر يا حلبي) بلل شعر حنان، وحنان أغنية ما تزال تتفتح مثل كركرات الصبايا. مثل شذا القداح في الغسق. قالت؛ "اخرج".. صار الطريق وحشة وأسئلة. قلت؛ "لو أخرج إليها".. قال أبوها؛ "عدت ثانية".. فتحت عينيها ومدت أصابعها فأسقط في يد الأب وهو يراها تمنحني أصابعها النحيلة الذابلة وأصابعي تشبكها والدمع يفور في عينيها وفي عيني، في فمي، يخنق فيّ فرصة الكلام، والكلام الآخر، غير المنطوق يتدافع في الغرفة الكئيبة الباردة في مستشفى اليرموك، وحنان على بساط الريح توشك أن تطير، وخرج أبوها وهو يبكي ولم أخرج.. "اخرجْ"، فأخرج إلى دمعتي.. جلست

قربها، على سريرها. قالت؛ "سامحني". كم كانت نبرة ذلك الصوت أليمة وواهنة؟ قلت؛ "من يسامح من يا حبة قلبي؟". وحنان واقفة على سياج الجسر تمسك بعمود النور الأخضر وتضحك وروحي تهوي إلى دجلة اللاهية أبداً بأضواء بغداد وبغداد عجيبة الدنيا تعطي المساء عافيته وتعطي حنان شقاوة فاتنة وتعطيني مطراً.. مطر مطر يا.. وحنان تقول؛ "لنركض في المطر، لتطرطش أقدامنا في برك الماء. أتخاف عليّ من الزكام؟ ياه، وذلك الوحش؟".. الوحش المصنوع من اليورانيوم المنضب.. مطر مطر يا.. ويسقط المطر. مطر أخضر يبلل وردة المراهقة. مطر أخرس في فلوات الجبل، وبهروز أحمله وأخاف أن أعثر وأتطوح به ومعه والوادي وراءنا. أكان مطراً أم رذاذاً ثلجياً؟ أكان واقعاً حاصلاً أم حلماً؟ والمطر وحش من ريح وماء أسود يرشقني. توقظني كلوديا؛ "راجع طبيباً".. "لا عليك".. ومايكل بطائرته التي تقوده وتطلق على الرغم منه على شقته، حيث نيكول فيصرخ.. "بم كنت تحلم؟".. "بهذه البارجة يا كلوديا". كانوا في قطار البخار وأخبرني خالد أنهم أغراب. أطلقوا علينا واختبأنا خلف أجمة الورد وكلوديا تحلم بسلوك طريق الحرير. أقول لها حسناً وأزيح قطعة الحرير فيتفتح نرجسها، تستغرقني سطوة ضوعها المسكر. أهمس في أذنها؛ "لك عبق البحر والخوخ".. تقول وقد تصاعد لهاثها الدافئ؛ "في الحالة هذه فقط تغدو شاعراً".. أقول؛ "هي الموسيقى

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

ترفعنا الآن فوق أصابعها الناعمات".. تغمض عينيها وأغمض عيني. أراني وقد تماديت في الانزلاق بليلها الفردوسي خارجاً عميقاً إلى قرارتي. "كم أنت سخية روز، أرض طيبة باذخة". تنزلق فيّ كلوديا كأنها تلوذ بقرارتها. أراني وأراها. تضج في دمي العصافير وفي دمها. هذه الفلزات تشتعل. هذه العناصر. هذه الكيمياء الباهرة. هذا الإنشاء الذي نبتكره معاً. هذا الأنين البهيج. رأسها على كتفي تداعب بأصابعها ندوباً تعرف أن خمس عشرة شظية تغفو تحتها. تقول؛ "لو فكرت بطفل سأفكر فيك".. أدخن وأنا أتسمع لثرثرة المطر خلف النافذة. "وحدك روز تمنحين النشوة القصوى".. "هو طفح رغبتك ـ تقول ـ يجعلك ترى ما وراء المألوف والاعتيادي".. ظننا الحالة اعتيادية غير أن الطائرات باغتتنا وألقت. تحولت السماء إلى هول من نيران وسقطت طائرة. رأيتها تصعد ثم تهوي. رأيت الطيار الإيراني في مظلته.. تحت المظلة كنا. قالت كلوديا؛ "لو تعبر المتوسط"، فضحكتُ. "من أجل روايتك".. عبرت المتوسط من أجل روايتها، ها أنا أعبر المتوسط، والرواية معلّقة بين عبورين. أوراق، والحبكة شذرات بينها.. أشعر بالأسى (أنا عندي من الأسى جبل)، إحساس لطيف غامض (يتمشى معي وينتقل) يملؤني، ويملؤني هذا الصحو. هذا التأكيد أن روايتي تتخلق في إهابي. إن صورتي في رأس كلوديا أنا مسؤول عنها، أنا من أوحى بها وصنعها. "كان

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

الرحالة أجدادك، روز، يرسمون صورنا كما أرادونا أن نكون. كما تخيلونا في رؤوسهم. أريد صورة هي صورتي وأريد صورة هي صورتك. حقيقتي هي ما أصنع، وما أصنع لا يلبث على حال، وحقيقتك هي ما تصنعين، وليكن حباً ما نصنع معاً". تضحك كلوديا وتقول؛ "ها أنت تفلسف الأشياء أيضاً". أضحك وأقول؛ "ربما هي حكمة القرون. حكمة ما بعد النار والدم والموت، وإلاّ لن نعرف الحياة، والحياة هي ما نبتكر".. "أنت تبتكرني"، تقول، فأقول؛ "لندع الحب يبتكرنا معاً روز، وروايتي التي أكتبها تكتبني أيضاً وتكتبك".. في البعيد أبصر أضواء سفن أحسبها عملاقة. لعلها أسطول دمار شامل. صخب عنيف لا يبقي ولا يذر. يصطخب البحر. موجة عظيمة عنيفة تشيل السفينة، وخالد يخلع قمصلته. السفينة تتقوض. في عويل أجش هائل تتخلع الأعمدة والصواري والدرابزين. أهكذا جرت الأمور؟ من يدري، والأفغان الثلاثة دائبون على صلواتهم، والعراقيان يندبان الحظ، والكوري ما يزال يبكي امرأته التي خطفها البحر. من سيبكيك؟ يقول خالد في سرِّه ثم يصرخ: "وأنت من سيبكيك؟".. موجة أخرى تشيل السفينة. أنزع قمصلتي. البحر بارد والسفينة متوحدة وخالد بعيد، بعيد. يعيط البحر. يسألني خالد: "كيف تستطيع أن تنجز رسالة ماجستير وحولك هذه الفواكه الطازجة كلها".. أقول له: "الرسالة هي التي تبعدني عنهن"..

يضحك: "لو كنت مكانك لحصل العكس".. أقول: "لهذا السبب لست في مكاني".. دخلنا النادي وهو يضحك.. نادي المستنصرية كان مزدحماً. جلسنا إلى منضدة إزاءنا ثلاث بنات. تركته هناك ورحت لأجيء بالشطائر والشاي. خمس دقائق غبت عنه وحين عدت كان يحكي وكن يقهقهن. خالد يحكي والطالبات الثلاث تعلو قهقهاتهن فيلفتن انتباه الطلبة الجالسين على الموائد الأخرى. خالد تركته إلى المنضدة. لم يكن أمامه أي كائن. كان مهموماً.. قال بضع كلمات قبل أن يغادر إلى (البيضاء).. سألني عن وظيفتي وكم كسبت، وهل في نيتي البقاء أم المغادرة؟ قلت: "لا أدري بعد، صيفاً قد أذهب إلى تونس لتغيير الجو".. أخبرني أنه سيغادر أيضاً ولا يدري إلى أين. خرجنا إلى شوارع طرابلس، كان متهكماً، ولم يكن بمقدوري أن أضحك ملء القلب. قلت: "أتذكر كيف كنا نضحك ملء القلب". قال: "يوم جئتك إلى المستنصرية".. قلت؛ "تلك بغداد وذلك زمن آخر".. سألني إن كان زمننا قد ولى حقاً؟ قلت: "علينا أن نفترض العكس. لنقل أنه أمامنا". سكت ولم يقل شيئاً. في ذلك الصيف لم أغادر ولم يغادر. غادر في الشتاء. في الشتاء الماضي، وحين حل الصيف كان هو قد سلّم قياده للمستحيل ورحل أبعد مما يجب. وكان مستحيلاً أن أبقى صيفاً آخر في طرابلس. جئت تونس. قالت كلوديا: سأعبر بك البحر إلى إيطاليا لتنجز روايتك.. ها أنني أعود ثانيةً، من أجل

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

أن أنجز روايتي على ساحلي حيث العالم كله في داخلي. حنان وكلوديا وخالد وشيماء. أمي وأبي وماهود، وأولئك الذين عرفتهم، كلهم. في سطوع ساعتي الأخيرة معها أوشوش في أذن كلوديا، ورائحتها المسكرة تهيّج دمي؛ روز، أيتها التي لا تُضاهى. تصرخ؛ اللعنة اللعنة أتدري كم سأفتقد تدليلك لي باسم روز.. يصرخ البحر والريح. يقبل أحد البحارة: "يا سيد، هذا البحر لا يؤتمن والريح ستشتد، لو تنزل إلى قمرتك أو إلى الصالة".. "حسناً هذا البحر ينبغي أن يروّض. ولن يروّض إن لم نروِّض نحن البشر ما فينا".. "ماذا؟".. أتركه في حيرته وأمشي لأخرج.. من موت حنان يخرج مايكل ونيكول. من ذاكرتي يخرج خالد وتخرج حنان. من أفقي تخرج كلوديا. من جرحي أخرج إلى هواءٍ غازل طفولتي وطيّر شعري في الطرقات العتيقة. أخرج إلى ماء احتضن نحولي الشقي والأسماك الصغيرة تعبث بقدمي. أخرج إلى نار نشعلها بنزقنا في زاوية من شتاء لنحكي.. كنا نحكي ونحكي ونحكي.. كم حكينا؟ أوه، كم حكينا وما نزال. ما نزال. ما نزال. أكان بالمقدور أن نستمر ونكون، أن نحيا ونرحل ونأمل ونحلم من غير أن نحكي؟ لهذا أنا أحكي يا صاح. فما الجدوى إن لم نحكِ، وما المعنى إن لم تكن لدينا الحكايات؟..

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

إشارات

1ـ السعدية بلدة تقع إلى الشمال الشرقي من بغداد تبعد عنها مسافة 120 كم.

2ـ نهر ديالى: أحد روافد نهر دجلة يمر بأغلب مدن محافظة ديالى.

3ـ الديوانية: مركز محافظة عراقية جنوبية.

4ـ (مطر مطر يا حلبي) (مطر مطر شاشا) مقاطع من أغنية شعبية يرددها الأطفال في العراق عند سقوط المطر.

سيرة مختصرة

ـ سعد محمد رحيم.

ـ الولادة: العراق ـ ديالى 1957.

ـ بكالوريوس اقتصاد من كلية الإدارة والاقتصاد ـ الجامعة المستنصرية 1980.

ـ عمل في التدريس وحقل الصحافة. ونشر أعماله الصحافية في بعض الصحف والدوريات العراقية والعربية.

ـ نشر نتاجاته الأدبية والفكرية في الصحف والدوريات العراقية والعربية منها (الأقلام، الموقف الثقافي، الصدى، المسار، الرافد، أفكار، دبي الثقافية، الحياة، الزمان، المدى، السفير).

ـ من كتبه المنشورة؛

1ـ الصعود إلى برج الجوزاء.. قصص 1989. بغداد.

2ـ ظل التوت الأحمر.. قصص 1993. بغداد.

3ـ هي والبحر.. قصص 2000. بغداد.

4ـ غسق الكراكي.. رواية 2000. بغداد.

5ـ المحطات القصية.. قصص 2004. بغداد.

6ـ تحريض.. قصص 2004. دمشق.

7ـ زهر اللوز.. قصص/ 2009 بغداد.

8ـ عولمة الإعلام وثقافة الاستهلاك.. دراسة ـ بغداد/ 2011

ـ حصل على جوائز عديدة منها:

1ـ الجائزة الثالثة في مسابقة المجموعات القصصية .. وزارة الثقافة ـ بغداد، 1993.

2ـ جائزة الإبداع الروائي في العراق لسنة 2000 عن روايته (غسق الكراكي).

3ـ جائزة أفضل تحقيق صحافي في العراق 2005..

4ـ جائزة الإبداع في مجال القصة القصيرة/ العراق 2010 عن مجموعة (زهر اللوز).

5ـ الجائزة الأولى في القصة ـ ملتقى القصة العراقية ـ محافظة صلاح الدين/ تموز 2011.

- له العديد من الروايات والكتب الفكرية والأدبية المعدة للطبع.
- عضو اتحاد الأدباء والكتاب في العراق منذ عام 1987.
- كتب عن إنتاجه الأدبي نقاد وأدباء عديدون منهم؛ د. شجاع العاني، سليمان البكري، باسم عبد الحميد حمودي، مؤيد البصام، مؤيد سامي، سلمان شهيب، د. فاضل عبود التميمي، د. نادية العزاوي، إبراهيم البهرزي، د. قيس كاظم الجنابي، صباح الأنباري، قاسم عبد الأمير عجام، د. عبد الله إبراهيم، وآخرون.

فيسبوك: كتب. كتب. كتب

الفهـــــرس

–	العنـــوان	صفحة
1.	الإهـــداء	5
2.	كلوديا تخطفني إلى الشمال	7
3.	حنان تُثملني بنكهة الجنوب وترحل	69
4.	حين دخل مايكل ونيكول روايتي	109
5.	مكر الرواية	179
6.	خالد في الصحراء	217
7.	غوايات الولد الضال	249
8.	سيرة	277

فيسبوك: كتب. كتب. كتب